من معالم الأدب
فى نهج البلاغة

الدكتور سيد خليل باستان

۹۲۹

من معالم الأدب فى نهج البلاغة
الدكتور سيد خليل باستان

من معالم الأدب في نهج البلاغة

الدكتور السيّد خليل باستان

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إليك يا باني مجد الفصاحة والبلاغة،

إليك يا ناشر العلوم الربانيّة،

إليك أيُّها العامل بالأخلاق الاسلاميّة،

إليك يا من كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق،

إليك يا أملي ورجائي وثقتي في النشأتين،

إليك سيّدي ومولاي أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام،

راجياً منك القبول والشفاعة يوم الورود.

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين.

لقد منّ اللّه علينا بنشر رحمته، وفتح لنا أبواب معرفته، واستدر علينا بالخير والبركة، لما قمنا بشرح لبعض الخطب والرسائل من نهج البلاغة، مستمدين يد العون منه، آملين منه الثقة بالعمل، متوكلين عليه في جميع الأُمور، ومفوضين الأمر إليه.

خطة العمل: لقد اخترنا بعض الخطب والرسائل من نهج البلاغة بصعوبة بالغة لاختيار الأفضل لما فيهما من جمال وابداع، واكتفينا منها بأحد عشر درساً منها في الوقت الحاضر، راجياً في المستقبل القريب القيام بانجاز ما تبقى منه إن شاء اللّه تعالى.

وكانت خطة العمل أن نذكر المناسبةالتي قيلت الخطبة أو كتبت الرسالة فيها ثم بسط الموضوع وشرحه بأُسلوب حديث، ثمّ ندخل في صلب الموضوع ونقوم بالتحليل الأدبي من بيان الأفكار المتجلية في النص، وذكر العواطف والأحاسيس بشكل مبسوط وبيان أثرها في النفوس، ثمّ نعرّج على عنصر الخيال الذي يشتمل على الصور الابداعيّة في القوالب البيانيّة من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية واستدلال وتقريب رمز، وفرضية و... ثمّ نشير إلى ركن أصيل في التحليل إلاّ وهو الأُسلوب وما تضمّه من البديع البلاغي، وفي النهاية نذكر اعراباً لبعض المفردات التي جاءت خلال الكلام.

هذا وإن محاولتنا هذه جديدة من نوعها وهي تُلقي بثوب جديد على النهج، راجياً من اللّه تعالى أن يجعلها مفتاحاً لفهم هذا الكتاب العظيم، الذي ما زال في احيائنا غريباً، والوقوف على أسراره البلاغية الكامنة فيه، وأن يهدينا إلى سواء السبيل، علماً بأنّي محاط بالسهو والنسيان ولربّما تبادر الخطأ منّي في البيان، وزلّ احياناً القلم على الصفحات، وطارت الفكرة من ذهني و... فالعصمة للّه ولرسوله ﷺ والأئمّه الأطهار عليهم السلام.

وأخيراً أرجو من اخواني أصحاب العلم والأدب أن يهدوا إليّ عيوبي، شاكراً لمساعيهم الحميدة.

ربّنا عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير، ربّنا تقبّل منّا هذا الجهد المتواضع، واجعله لنا ذخيرة يوم لا ينفع مال ولا بنون، انّك سميع مجيب.

ملاحظة: لقد استعنا في فقه اللغة بكتاب نهج البلاغة للشيخ عزيز اللّه العطاردي وآخرين.

البريدالالكتروني:

seyedkhalil@hotmail.com

السيّدخليل باستان

ابن أبى الحديد في الميزان

انما ذكرنا هذه الشخصية هنا، لانه يعد من الاوائل الذين بذلوا مهجهم لشرح نهج البلاغة ،ولعلاقته المفرطة الامام اميرالمؤمنين عليه السلام، وهو أشهر من نار على علم، وهو من علماء عصره، وله اليد الطولى في علوم زمانه ، من فلسفة وفقه وادب وتاريخ و..و... ولكن اختلف العلماء في مذهبه على اقوال سنقف عليها الآن ، فنقول: ان من المسائل الخلافية بين العلماء لهذه الشخصية الادبية الفذة في عقيدته المذهبية،وقد سعينا في هذا المجال الوقوف على الآراء المختلفة لاصحلب الرأى في هذا الباب، ومن ثم نطالب القضاء له أو عليه من قبل القراء الكرام ، بعيدين كل البعد عن العصبية العمياء ، سائلين المولى ان يتقبل عملنا هذا باحسن قبول.

امّابعد فلقد تضاربت الأقوال بين العلماء حول عقيدة ابن أبي الحديد المذهبية ، فمنهم من حكم عليه بالاعتزال ، ومنهم من ذهب الى أنه شيعي ، ومنهم من ذهب الى انه سنيّ.

وما هذا الاختلاف الاّمن عقائد المعتزلة أنفسهم، لأنهم تارة يميلون إلى الشيعة في افكارهم وأخرى إلى أهل السنة، وسنقف بوضوح على ما قلناه في أفكار إبن أبي الحديد خاصة، ومن ثمّ نطلب من القاريء الكريم أن يحكم عليه بالتشيع أو ما شاء من المذاهب.

الكلام في مذهبه المعتزلي:

قبل الخوض في الحديث عن المعتزلة، لابدَّ أن نقف على علة ظهور الحياد بين علمائهم، حيث اتخذ المعتزلة والمتصوّفة الحياد ذريعة للفرار عن المسؤولية، فالاولى اتخذت التوقف في الآراء أساساً لها في الرؤى السياسية، والثانية اتخذت الزوايا ذريعة للفرار من الزحف أيام الحملة الصليبية، فانتشرت آرائهما في بقاع المسلمين بسرعة. والآن لننظر إلى ما قاله سماحة العلامة المدرسي في هذا الشأن : «إن المعتزلة تهرب من مشكلة تاريخية، الا وهو تعين الخلف الشرعي للنبيّ ﷺ والتي كانت تعني في ذلك العصر تهربهم من قضايا الثورة، الثورة التي يقودها اهل بيت الرسول ﷺ دفاعاً عن الرسالة الالهية وعن المحرومين، اذ نقل عن واصل أنه علّق الحكم في هذا الباب على أساس الافتقار إلى البينات الكافية»[1]

ثم لننظر إلى قول الدكتور أحمد حوفي في هذا الباب حيث يقول : «كان لهذه الكلمة (الإعتزال) اذاً معنى سياسي خاص، هو الإبتعاد عن الصراع الناشب بين عليّ وخصومه، والاستمساك بالحيدة العملية والقولية في هذا الصراع، فلا هم يناصرون فريقاً على فريق خوفاً من الزحف والقتل والموت والتشريد، تقاعساً وتثاقلاً إلى الأرض وتبريراً للمواقف التي اتخذوها، وستراً للمقام الشاخص الذي كان عندهم لدى الناس»[2]

وأما الحديث عن مذهبه المعتزلي فينقسم البحث إلى قسمين، الأول : رأيهُ الصريح في الإعتزال والثاني : رأي العلماء في هذا المجال.

---

١. العرفان الإسلامي / محمد تقي المدرسي / ايران / المركز الثقافي الإسلامي / ١٤٠٥ / ص ٤١.

٢. تاريخ الأدب السياسي / أحمد حوفي / ص ١٣٩.

فالمتصفح لشرحه في نهج البلاغة سيرى انّ إبن أبي الحديد يذكر مادحاً زعماء المعتزلة، معتزاً بهم، شارحاً لأقوالهم ذاكراً لموافقهم المذهبية وآرائهم العقائدية، فهو يكثر من ذكر الشيخين أبي علي وأبي القاسم كما في (ج١ : ١٢٣) ويذكر الشيخ أبا عثمان الجاحظ (ج٣ : ١٩٩ و ٤٥٩) و (ج٤ : ٢٩٣)، وإن لم يكن يتتلمذ عليه، وكذلك الشيخ عمر بن عبدالله الدباس (ج٢ : ٤٢٤) والشيخ أباعبدالله (ج٣ : ٤٥)، والشيخ أباالحسين (ج٣ : ٢٤٨) والشيخ أباالهذيل (ج٤ : ٢٤٨ و ٣٤٤)، والشيخ أباجعفر يحيي إبن زبي (ج٤ : ٤٧٧)، والشيخ أباجعفر الاسكافي (ج٤ : ١٥٩)، وآخرون، فالاستشهاد بهؤلاء الشيوخ والترحّم عليهم، ونقل أفكارهم وآرائهم مباشرة ما هي إلا الانتماء إلى المعتزلة ومن جانب آخر يصرح برأيه في أشعاره قائلاً:

ورأيت دين الإعتزال وانّني   أهوى لأجلك كل من يتشيعُ[١]

أو يقول في موطن آخر:

أحب الإعتزال وناصريه   ذوي الالباب والنظر الدقيق

وأهل العدل والتوحيد أهلي   نعم وفريقهم أبداً فريقي[٢]

وأما القسم الثاني: فلنرَ أقوال بعض العلماء فيه، منهم الشيخ ابوالفضل عبدالرزاق بن أبي المعالي الشيباني الذي يقول فيه: «كان... عارفاً بأصول الكلام، يذهب مذهب المعتزلة»[٣]. ومنهم محمد ابوالفضل ابراهيم الذي يقول عنه: «اصطنع

١. الآراء الأدبية والنقدية / ص ٥٦.
٢. الشعر العربي في العراق ص ٢٤٤.
٣. أدب الطف / جواد شبر – ج ٤: ٥٧.

مذهب الإعتزال وعلى أساسه جادل وناظر وحاجّ وناقش، وفي شرح النهج وكثير من كتبه أراء منثورة مما ذهب اليه»[1]. ومنهم السيد عبدالزهرائ الحسيني الخطيب الذي يقول في كتابه مصادر نهج البلاغةج١ : ٢١١: «شرح نهج البلاغة، وألفه علامة المعتزلة الفاضل عزالدين عبدالحميد بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني.»

الكلام في تشيعه:

الحديثُ يدور على محورين، الأول ما جاء على لسناه في الشرح والقرائن الموجودة، والآخر ما قالته علماء الشيعة في حقه.

أما المحور الأول : فالذي يطالع الشرح سيرى التعبير المألوف لدى الشيعة عند ما يذكر الإمام علي عليه السلام هو «الإمام عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام» فلم يعدل إبن أبي الحديد عن هذا النعت أبداً، وثم لم ينعته بما تنعته السنة بـ(كرّم الله وجهه). وترى موقفه من الإمام علي عليه السلام في أشعاره التالية:

١- عليٌّ أميرالمؤمنين زعيمه وقائده نسرُ المفازة والذيبُ

٢- رميت أباسفيان منها بجحفل اذا قيس عدّاً بالثرى كان أكثرا

٣- وليس تُنكر في حنين فراره ففي أُحدٍ قد فرّ خوفاً وخيبرا

٤- فيك الإمام المرتضى فيك الوصيّ المجتبى فيك البطين الأنزع

---

١. شرح نهج البلاغة / تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم ج ١ : ١٤، ولكن هذا المحقق يناقض نفسه قائلاً : أنه ولد بالمدائن... وكان الغالب على أهل المدائن التشيع.

٥- بل أنت في يوم القيامة حاكم   في العالمين وشافع ومشفع

٦- وإليه في يوم المعاد حسابنا   وهو الملاذ لنا غداً والمفزع[1]

٧- عُج بالغريّ على ضريح حوله   نادٍ لاملاك السماءُ محفل

فمسبّح ومقدّس وممجّد   ومعظّم ومكبّر ومهلّل

٨- وقل السلام عليك يا مولى الورى   نصاً به نطق الكتاب المنزل

وخلافةٌ ما إن لها لو لم تكن   منصوصة عن جيد مجدك معدل

٩- وحقك إن ادخلتني النار قلتُ   للذين بها قد كنت ممن يُحبه

وأفنيتُ عمري في علوم دقيقة   وما يعنيني الاّ رضاه وقربه[2]

يكفينا هذا المقدار من الشواهد على تشيعه من خلال أشعاره، فالاعتراف بالخلافة لهعليه السلام الذي نصّ به القرآن الكريم يوم الغدير، والذي يعد محور الخلاف بين الشيعة والسنة، إنما يدل على تمسكه بالتشيع، بل يذهب أبعد من ذلك ويجزم قاطعاً ويفرض محالاً إن لم يكن هناك نصاً من القرآن فلا يمكن العدول عن أبي الحسنعليه السلام. ثم انك تجد قد استخدم المصطلحات المتداولة عند الشيعة من اعطائهعليه السلام لقب أميرالمؤمنين، وأنه قاتل الكفرة والفجرة أمثال أبي سفيان، وأنه هو الوصيّ المختار، وأنه سيكون غداً قسيم الجنة والنار،... و... على أي شيء تدل هذه البيانات الصريحة القاطعة؟

---

١. تجد هذه الأبيات في رسالة الدكتوراه للسيد خليل باستان (الآراء الأدبية والنقدية)، ص ٣٥٠-٣٩٥.

٢. تجد هذه الأشعار أيضاً في الآراء الأدبية والنقدية ص ٥٨.

ثم انظر إلى كلامه في (ج٤ : ٥٧٤)، حيث يقول : «واستشفع إليه – الإمام علي عليه السلام – بمن أنصبت جسدي، وأسهرت عيني، وأعلمتُ فكري، واستغرقت طائفةً من عُمْري في شرح كلامه، والتقرب إلى الله بتعظيم منزلته ومقامه» فطلب الشفاعة من آل البيت عليهم السلام والتقرب بهم إلى الله من عقائد الشيعة خاصةً.

ثم انظر إلى قوله كيف يشيد بأيام خلافة الإمام علي عليه السلام حيث يقول في (ج١ :٥٧٤) : «فتمَّ تصنيفه (شرح نهج البلاغة) في مدة قدرها أربع سنين وثمانية أشهر...، وهو مقداره مدة خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام» فانظر يا أخي القاريء كيف يقارون بين فترة تأليفه لشرح نهج البلاغة وبين مدة خلافة الإمام علي عليه السلام فقلّما يخطر هذا الموضوع على قلب أحد، الاّ من كان محباً موالياً له عليه السلام.

ثم انظر كلامه في (ج١ : ٤٧)، كيف ينظر إلى أبي طالب؟ وكيف يثبت له الحق على الإسلام! حيث يقول : «واعلم أن علياً عليه السلام، كان يدعي التقدم على الكل، والشرف على الكل، والنعمة على الكل بإبن عمه صلى الله عليه وآله، وبنفسه و بأبيه أبي طالب عليه السلام فإنّ من قرأ علوم السير، عرف ان الإسلام لولا أبوطالب لم يكن شيئاً مذكوراًز وليس لقائل أن يقول كيف يقال هذا في دين تكفل بمدح رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يقال أنه هدى الناس من الضلالة وانقذهم من الجهالة... وهؤلاء ألة مستعملة، ووسائط تجرى الأفعال على أيديها، فحمدهم والثناء عليهم والإعتراف لهم إنما هو بإعتبار ذلك قيل لكم في شأن أبي طالب».

ثم انظر إلى كلامه في (ج١ : ١٠)، كيف يمدح أباطالب ويشيد بمقامه عند رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول : «وأبوطالب هو الذي كفل رسول الله صلى الله عليه وآله صغيراً وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه من مشركي قريش ولقى عنتاً عظيماً/ وقاسى بلاء شديداً،

وصبر على نصره والقيام بأمره، وجاء في الخبر أنه لما توفي أبوطالب أوحي إليه ﷺ وقيل له : أخرج منها مات ناصرك».

وأما القرائن التي تدل على التشيع فهي موطنه، حيث اتخذ إبن أبي الحديد في حياته موطنين له، أحدهما مسقط رأسه، ألا وهوالمدائن التي يقول عنها محمد ابوالفضل ابراهيم : «وكان الغالب على اهلها التشيع، فسار في دربهم وتقبّل مذهبهم ونظم القصائد المعروفة بالعلويات السبع»[1]

والثاني محله الكرخ، وذلك لما أكمل إبن أبي الحديد دراسته في المدائن قصد بغداج واتخذ اكرخ مقاماً له، والمعروف عن الكرح أنها محلة للشيعة، والرصافة التي تقابلها محلة لأهل السنة، ولإبن أبي الحديد شعر يخاطب الكرخ قائلاً:

«يا كرخُ جاء عليك مدرار الحيا وسقى ثراك من الرواعد مسبل

إن كان جسمي عنك أسبح راحلاً كرهاً فقلبي قاطن لا يرحل»[2]

نكتفي بهذا المقدار من الكلام خوف الإطالة.

وأما المحور الثاني، فهو موقف علماء الشيعة بالنسبة إلى إبن أبي الحديد. فقد اختلف علماء الشيعة في موقفهم بالنسبة لإبن أبي الحديد على أقوال ثلاثة، فمنهم من يجزم القول في تشيعه، ومنهم من يتردد، ومنهم من جعله من أعداء الشيعة.

وأما المناصرون له فمنهم إبن العلقمي[1] يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة (ج١ :٢١٣) «لما وقعت حادثة المغول أخذوا إبن أبي الحديد، وأخاه موفق

---

١. شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم ج١ : ١٤.

٢. الآراء الأدبية والنقدية ص ٤٠٩.

الدين وأرادوا قتلهما، فسعى إبن العلقمي في خلاصهما، وتشفع اليهم بنصير الدين الطوسي، فخلوا عنها، فأقبل إبن أبي الحديد يشكر إبن العلقمي على حسن فعله، فقال إبن العلقمي : والله لو أفتديتكما بنفسي لكان ذلك قليلاً، لأنك خلدت اسمي في كتابك».

ومنهم صاحب روضات الجنات الذي يقول في حقه جازماً : « إبن أبي الحديد المعتزلي، صاحب شرح نهج البلاغة المشهور، وهو من أكابر الفضلاء والمتتبعين، وأعاظم النبلاء المتبحرين، موالياً لأهل العصمة والطهارة، وإن كان في زيّ أهل السنة والجماعة، منصفاً غاية الإنصاف في المحاكمة بين الفريقين ومعترفاً في ذلك المصاف بأنَّ الحق يدور مع والد الحسنين، وهو بين علماء العامة بمنزلة عمر بن عبدالعزيز الأموي بين خلفائهم، فكما ورد في حديث الشيعة أنه يحشر يوم القيامة أمة واحدة، فكذلك يُبعث هذا الرجل إن شاء الله بهيئته على حدةٍ، وحسب الدلالة على علو منزلته في الذني و علوّه في ولاية أميرالمؤمنين...»[٢]

ومنهم الطريحي الذي يقول في حقه : «قال بعض الأفاضل : كان ذلك (إعتزاله) قبل رجوعه إلى الحق، لأنا نشهد من كلامه الإقرار له عليه السلام والتبرّي من غيره، من تقدم عليه (الإمام علي عليه السلام) وذلك قرينة واضحة على ما قلناه»[٣]

---

١. المعروف عن إبن العلقمي أنه كان من فضلاء الشيعة وأعيانهم، وكان يحب الأدب والعلم وأنه كان صاحب دهاء وذكاء.

٢. روضات الجنات، خوانساري ج٥ :١٩.

٣. مجمع البحرين الطريحي، ص ١٩٣، ياليته ذكر لنا بعض هذه القرائن.

وأما المتردّدون فيه، فمنهم الشيخ الصدوق، فإنه لا يجزم بتشيعه، حيث يقول : ان رأي إبن أبي الحديد كان رأي الحكماء، والله أعلم بباطن أمره، وحشره الله مع من أحبّه.

وأما المخالفون له، فهناك طائفة من علماء الشيعة ترفض تشيعه رفضاً تاماً، منهم السيد عبدالزهراء صاحب مصادر نهج البلاغة الذي يقول : «ويعدّ إبن أبي الحديد من خصوم الشيعة وأشدّ مناوئيهم رغم ما يظهر من حبّه لعليعليه السلام وإظهار تفضيله» ويستمرّ قائلاً : «ورأيت بخط الإمام المرحوم كاشف الغطاء على ظهر المجلد الأول من الشرح من الطبعة ذات المجلدين المطبوعة على الحجر في ايران الموجودة في مكتبته العامة الشهيرة في النجف الأشرف ما معناه : (نعم المؤلف لولا عناد المؤلف)، فتأمل هذه العبارة من هذا المطلع المتتبع، لتعرف أن هؤلاء الذين نسبوا إبن أبي الحديد إلى التشيع على جانب من الخطأ عظيم» ويمضي صاحب مصادر نهج البلاغة قائلاً : «وسمعت المرحوم الثقة السيد كاظم الحسيني الخطيب، ينقل عن الإمام الشيخ محمد طه نجف قدس سره أنه قال : لو أوقف خصوم أميرالمؤمنينعليه السلام بين يدي الله، ما استطاعوا أن يعتذروا عن أنفسهم كما اعتذر عنهم إبن أبي الحديد».[1]

آرائه الشيعية:

المتصفح لشرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد مؤلفاته الأخرى يواجه أفكاراً قريبة إلى التشيع وهي كثيرة، نذكر منها:

---

١. مصادر نهج البلاغة ج١: ٢١٧، ليت الشيخ محمد طه نجف ذكر لنا بعض الشواهد.

١- ولادة الإمام علي عليه السلام : جعل إبن أبي الحديد يوم ولادة أمير المؤمنين عليه السلام ضمن التاريخ الإسلامي، حيث صرّح بذلك كتاب مصادر نهج البلاغة في (ج١ : ٢١٥)، حيث قال: «ويروى (إبن أبي الحديد) إلي المصادر الصحيحة التي كانت بحوزته أنه صلى الله عليه وآله، مكث قبل الرسالة سنين عشرة يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك ارهاصاً لرسالته صلى الله عليه وآله فحكم تلك السنين العشرة حكم أيام رسالته، ومعنى ذلك تقليص أيام الجاهلية عشر سنوات أخرى وادخال يوم ولادة الإمام علي عليه السلام في العهد الإسلامي لا الجاهلي الوثني».

٢- إسلام الإمام علي عليه السلام يقول إبن أبي الحديد في (ج١ :١٠) «وفي حديث عفيف الكندي لما رأى النبي صلى الله عليه وآله يصلي في مبدأ الدعوة ومعه غلام وامرأة، قال: فقلت للعباس: أي شيء هذا؟ قال: هذا إبن أخي يزعم أنه رسول من الله إلى الناس، ولم يتبعه على قوله الاّ هذا الغلام[١] وهو إبن أخي أيضاً، وهذه الامرأة وهي زوجته».

٣- إيمان الإمام علي عليه السلام بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وآله : يقول إبن أبي الحديد في (ج١ :١٠) «وما أقول في رجل سبق[٢] الناس إلى الهدي، وآمن بالله وعبده، وكل من في الأرض يعبد الحجر[٣]، ويجحد الخالق، لم يسبقه أحد إلى التوحيد الاّ السابق إلى كل خير محمد صلى الله عليه وآله.» ويستمرّ قائلاً: «ذهب أكثر أهل الحديث

---

١. خلافاً لبعض الفرق الإسلامية التي لا تعتبر إسلامه فضيلة، لأنه لم يبلغ التكليف الشرعي، والحال ان القرآن الكريم يشيد بإيمان الرضيع عيسى بن مريم.

٢. يعد السبق إلى الإيمان بالله من أكبر الفضائل ، حيث مدحهم الباريء بقوله : والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم (الواقعة / ١٠-١٢).

٣. ومنهم الخلفاء الثلاثة.

إلى أنه عليه السلام، أول الناس إتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإيماناً به، ولم يخالف في ذلك الاّ الأقلون. وقد قال هو عليه السلام: أنا الصديق الأكبر وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام الناس وصليت قبل صلاتهم».

٤- من فضائل الإمام علي عليه السلام : يقول إبن أبي الحديد في هذا المجال (ج١ :١٠) «أنه إبن عم محمد سيد الأولين والآخرين، وأخاه جعفر ذوالجناحين الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : أشبهت خلق وخُلقي، فمرّ يحجل فرحاً، وزوجته سيدة نساء العالمين، وابنيه سيدا شباب أهل الجنة، فآباؤه آباء رسول الله، وأمهاته أمهات رسول الله، وهو مسوط بلحمه و دمه، لم يفارقه منذ خلق الله آدم ألى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبدالله وأبي طالب، وأمهما واحدة، فكان منها سيدا الناس، هذا الأول وهذا التالي، وهذا المنذر وهذا الهادي.»

٥- موقف الإمام علي عليه السلام من عثمان : يرى إبن أبي الحديد ما تراه الشيعة، بأنه عليه السلام بريء من دم عثمان حيث يقول في (ج١ :٦٧) : «والذي نقول نحن أنّها وإن كانت أحداثاً، الاّ أنّها لم تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه (عثمان)، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة، حيث لم يستصلحوه لها، ولا يعجّلوه بقتله، وأميرالمؤمنين عليه السلام أبرأ الناس من دمه، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه، ومن ذلك قوله عليه السلام: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت (ساعيت) على قتله، وصدق صلوات الله عليه».

٦- الإمام علي عليه السلام وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول إبن أبي الحديد في (ج١ :١٣٥)، «الإمامية يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ على أميرالمؤمنين نصاً صريحاً جلياً ليس بنص يوم الغدير، ولا خبر المنزلة، ولا ما شابههما من الأخبار...

ولكن قد يسبق إلى النفوس والعقول، أنه قد كان هناك تعريض وتلويح وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبثوت (مقطوع). ولعله ﷺ كان يصده عن التصرح بذلك أمر يعلمه، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى في ذلك».

٧- رأيه في عمر : يقول إبن أبي الحديد في (ج١ : ٥٨) : «وعمر هو الذي شيّد بيعة أبي بكر و رقم[١] المخالفين فيها، فكسر سيف الزبير لما جرده ودفع في صدر المقداد، ووطيء في سقيفة سعد بن عبادة وقالا : إقتلوا سعداً قتل الله سعداً، وحطّم أنف الخباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة أنا جذيلها المحك، وعذيقها المرجب، وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة٣ من الهاشميّين، وأخرجهم منها، ولولاه لم يثبت لإبي بكر أمر، ولا قامت له قائمة».

آرائه السنية:

وانّك لتجد إبن أبي الحديد أحياناً أخرى يقطع القول جازماً كما تراه أهل السنة، وخاصة في أمر الخلافة فنذكر منها:

١- خلافة أبي بكر: يقول إبن أبي الحديد في (ج١ :٣) : «اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله – المتقدمون منهم والمتأخرون والبصريون والبغداديون – على أن بيعة أبي بكر الصديق صحيحة شرعية، وأنها لم تكن عن نص، وانما

١. أظنه تصحيف، والأفضل : أرغم.

كانت بالإختيار[1] الـذي ثبـت بالإجمـاع وبـير الإجمـاع كونـه طريقـاً إلى الإمامة».

٢- موقفه من عمر : قال الإمام علي عليه السلام : في الخطبة ٢٢٨ من نهج البلاغـة : لله بلاد فلان، فقد قوّم الاود...، يقول إبن أبي الحديد في (ج٣ :٩٢): «أنه عليه السلام كنّي بفلان عن عمر، وخصّص جزءاً بأكملـه في شـرحه مـن ص ٩٢ إلى ١٨٠، لحياة عمر و ذكر فضائله وسياسته و... و... .

علماً بأن المفسّرين اختلفوا في أن المراد بفلان هو عمر، فمنهم من قال ذلك كإبن أبي الحديد الذي يقول : «وفلان المكني عنه، عمربن الخطاب، وقد وجـدت النسخة التي بخط الرضي أبي الحسن، جامع نهج البلاغة، وتحت فلان عمر، حدثني بذلك فخار بن معد الموسوي الأديب الشاعر». ثم يستمر قـائلاً: «وسـألت عنـه النقيب أبا جعفر يحيي بن أبي زيد العلوي، فقال لي: هو عمر، فقلت له: أيثنى عليه أميرالمؤمنين عليه السلام هذا الثناء؟ فقال : نعم».

ومنهم الشيخ محمد جواد مغنية صاحب كتاب في ظلال نهج البلاغة الـذي يقول في شرحه (ج٣ : ٣٣٠) : «المراد بفلان أبي بكر وقيل عمر وهـو الأشـهر». ومنهم السيد جمال الدين دين برور الذي يقول في ترجمته : المراد الخليفـة الثـاني. ومنهم فيض الأسلام الذي يقول في ترجمته: أنها جاءت في حق عمر، ولكنها من باب التورية، ظاهره مدحٌ وباطنه ذمّ، وبناءاً على هذا، ان هذا الكلام لا يخالف ما جاء في الخطبة الشقشقية.

---

١. يشير إبن أبي الحديد في ج١ : ١٢٣ إلى الأقوال المختلفة في كيفية بيعة الإمام علـي٥ لأبـي بكـر، ومنها ما قاله الواحدي في روايته في حكاية عمر : (والله لأنا أقدم فانحر كما ينحر البعير أحبُّ إليّ من أن أتقدّم على أبي بكر) فكيف تمّت الشرعية الصحيحة لخلافة أبي بكر و علي٥ مكره؟

وهناك طائفة أخرى تخالف ما ذكرناه، وترى أن المراد بفلان امّامالك الأشتر أو سلمان المحمدي أو أحد أصحابه عليه السلام. فمن هؤلاء السيد الشيرازي قدس سره يقول في كتابه توضيح نهج البلاغة (ج٣: ٣٩٤) وجاء في صدر شرحه للخطبة: من كلام له عليه السلام في مالك الأشتر رحمه الله بعد موته، ثم يذكر في نهاية التفسير قائلاً/ وقد قال بعض اهل السنة أن المراد بفلان في كلام الإمام عمر، وهذا خطأ، وكيف يجتمع هذا مع تضجّره الشديد من عمر في الخطبة الشقشقية، مع الغضّ عن سائر الأمور التي ثبتت في التواريخ والسير. ومنهم الراوندي كما صرّح بذلك إبن أبي الحديد في (ج٩٢:٣) الذي يقول: أنه عليه السلام مدح بعض أحصابه بحسن السيرة. ومنهم الدكتور أسدالله المبشري المترجم لنهج البلاغة حيث يقول في ص ٩٠٧: المراد بفلان أحد أصحابه عليه السلام. ومنهم الشيخ محمد دشتي الذي يقول في ترجمته ص ٤٦٤: أنها قيلت في سلمان المحمدي، وذكر في الهامش نقلاً عن المرحوم السيد هبة الدين الشهرستاني : أنّ النسخة الخطية للسيد الشريف الرضي كانت بيد بنته الذي تتلمذت على يد عمّها السيد المرتضى، كان إسم سلمان المحمدي مكتوباً في أول هذه الخطبة، وأن هذا الكلام لهو الصحيح...

فانّا لا ندري كيف قطع إبن أبي الحديد جازماً القول بأن المراد بفلان عمر، والحال كان من المفروض أن يحقق في هذا المجال أكثر؟

الجمع بين التسنن والتشيع:

يرى المحقق في هذا الباب حالة التذبب عند المعتزلة بين الطائفتين النسية والشيعية، فتارة إلى هؤلاء وأخرى إلى هؤلاء.

وتجد هذا التذبب خاصة عند إبن أبي الحديد، والآن نسمتع إلى إبن أبي الحديد حيث يقول في (ج٣:١): «واختلفوا (علماء المعتزلة) في التفضيل، فقال قدماء البصريين: أن أبابكر أفضل من عليّ عليه السلام، وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وقال البغداديون قاطبةً: أن علياً عليه السلام أفضل من أبي بكر، وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون من تفضيله عليه السلام».[١]

ثم يذكر آراء منفردة لبعض الشيوخ الذين عدلوا أخيراً إلى أفضيلة الإمام علي عليه السلام، ثم يضيف قائلاً: «وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقف فيها».

فانظر إلى شدة الخلاف المطروح بين علماء المعتزلة في أمر الخلافة. فلا تقارب بينهما بل التنافر والتناقض حاكم عليها، إضافة إلى موقف الحياد المطروح (المتوقف) وهو بمنزلة الفرار عن المسؤولية، وبناءاً على هذا تجد هذه الحالة موجودة عند إبن أبي الحديد، كما ترى ذلك بوضوح في أشعاره التالية:

وخير خلق الله بعد المصطفي　　اعظمهم يوم الفخار شرفا

السيد المعظمُ الوصيّ　　بعل البتول المرتضى علي

وابناه ثم حمزة وجعفر　　ثم عتيق بعدهم لايُنكر

المخلص الصديق ثم عمر　　فاروق دين الله ذاك القسور

وبعده عثمان ذوالنورين　　هذا هو الحق بغير مين

١. وترى التناقض في كلامه واضحاً، حيث يقول في المقدمة: الحمدلله الذي قدّم المفضول على الأفضل.

فالجمع بين عليّ عليه السلام وابنيه وحمزة وجعفر من جانب، وبين أبي بكر وعمر وعثمان من جانب آخر ما هو الاّ الجمع بين التسنن والتشيع، وهذا ما لا يحبّذه الشيعة.

ثم انظر إلى التناقض الواضح من خلال هذه العبارات: «الحمدلله الذي قدّم المفضول (أبابكر) على الأفضل (الإمام علي عليه السلام) لمصحلة اقتضاها التكليف...» ثم انظر إلى قوله : «واختص الأفضل من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظم عن التشبيه، ويجلّ عن التكلف» (ج١: ٢)، ويستمر يقول: «قد ذكرنا في كتبنا الكلامية : ما معنى الأفضل؟ وهل المراد به الأكثر ثواباً أم الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة؟ وبينا أنه عليه السلام أفضل على التفسيرين معاً»(ج١: ٣)، فالعجب من هذا الجزم القاطع، كيف يناقضه في مفتتح شرحه؟

ومن الموضوعات المختلفة عليها بين السنة والشيعة، احراق بيت فاطمة عليها السلام، فيرى إبن أبي الحديد في (ج١: ٣)، أنه : «لما جلس أبوبكر على المنبر، كان علي عليه السلام والزبير وناس من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عمر إليهم فقال : والذي نفسي بيه لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم، فخرج الزبير مصلتاً سيفه فاعتنقه رجل من الأنصار...»، ثم يذكر الروايتين التاليتين تأكيداً لما مرَّ، «وأما الأولى فإنّ سعد بن أبي وقاص كان معهم في بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا علياً عليه السلام، فأتاهم عمر ليحرق عليهم البيت، فخرج إليه الزبير بالسيف وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح... وأما الرواية الثانية فعن الشعبي قال: سأل أبوبكر فقال أين الزبير؟ فقيل عند علي، وقد تقلّد سيفه، فقال : قم يا عمر، قم يا خالد بن الوليد، إنطلقا حتي تأتياني بهما، فانطلقا فدخل عمر وقام خالد على باب البيت من خارج، فقال عمر للزبير : ما

هذا السيف؟ فقال: نبايع علياً، فاخترطه (انتزعه) عمر، فضرب به حجراً فكسره، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه، وقال: يا خالد دونكه فامسكه، ثم قال لعلي: قم فبايع لأبي بكر، فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده وقال: قم، فأبى أن يقوم، فحمله ودفعه كما دفع الزبير، فأخرجه، ولأت (وقعت في شدة) فاطمة ما صنع بهما، فقامت على باب الحجرة، وقالت: يا أبابكر! ما أسرع ما أغرتهم على أهل بيت رسول الله ﷺ والله لا أكلّم عمر حتّى ألق الله، قال: فمشى إليها أبوبكر بعد ذلك، وشفع لعمر وطلب إليها فرضيت عنه»[1]

ثم يستمر في ذكر الأقوال الأخرى ومنها قول الشيعة. فلما ينتهي منها يعلق قائلاً: «فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدّملج... وان عمر أضغطها بين الباب والجدار فصاحت... فكله لا أصل له عند أصحابنا، ولا يثبته أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وانما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله»

ثم انظر إلى كلامه في لقب أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول في (ج١: ٩٢) «تزعم الشيعة انّه خوطب في حياة رسول الله ﷺ بأميرالمؤمنين، وخاطبه بذلك جلة المهاجرين والأنصار، ولم يثبت ذلك في أخبار المحدثين، الا أنهم قد رووا ما يعطي هذا المعنى وإن لم يكن اللفظ بعينه وهو قول رسول الله ﷺ له: أنت يعسوب الدين،

---

١. ذكر صاحب كتاب ثم اهتديت في ص ١٣٠ نقلاً عن الإمامة والسياسة لإبن قتيبة ج١، ص ٢٠، وفدك في التاريخ ص ٩٢، خلافاً لما ذكره إبن أبي الحديد، وإليك نص الحديث: وقالت فاطمة لأبي بكر وعمر: نشدتكما الله تعالى ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبَّ إبنتي فاطمة فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ، فقالت: فإنّي أُشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن ألقيت النبيّ لأشكونكما اليه.

والمال يعسوب الظلم، وفي رواية أخرى : هـذا يعسـوب المـؤمنين وقائـد الغـرّ المحجلين[1] واليعسوب ذكر النحل وأميرها...».

وأما نفيه لعصمة الإمامعليه السلام، فيقول إبن أبي الحديـد في (ج١: ٩٢) «وهـذا يقتضى أن العصمة ليست الاّ للأنبياء والملائكة، ولو كان الإمـام يجـب أن يكـون معصوماً لكان قسماً سادساً، فإذا قد شهد هذا الكلام بصحة ما تقوله المعتزلـة في إشتراط العصمة في الإمامة، اللهم الان أن يجعل الإمام المعصوم داخـلاً في القسـم الأول... وفيه بعد وضعف».

وأما إنكار لوصيّ رسول اللهصلى الله عليه وآله فيقـول في (ج١: ٤) : «ودُعـي بعـد وفـاة رسول اللهصلى الله عليه وآله بوصيّ رسول الله لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ولكن يقولون أنّها لم تكن وصية بالخلافة، بل بكثير من المتجـددات بعـده أفضـى بهـا إليهعليه السلام».

وأما بالنسبة إلى تنزيه آدمعليه السلام فيقول إبـن أبي الحديـد في (ج١: ٣٤)، في معرض تفسيره لقولهعليه السلام: «ثم أسـكن سـبحانه آدم داراً... فبـاع الـيقين بشـكه، والعزيمة بوهنه واستبدل بالجذل وجلاً...» يقول إبن أبي الحديد : «ان هذا الكـلام من أميرالمؤمنينعليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدمعليه السلام وهو قولـه: فبـاع الـيقين بشكه... فما قولكم في ذلك؟ أما أصحابنا فإنهم لايمتنعون مـن إطـلاق العصـيان عليه ويقولون : ان النهي كان نهي تنزيه لا نهي تحـريم، لأنهـم لا يجـزون علـى الأنبياء الغلط والخطأ، لاكبيراً ولا صغيراً». ثم يستدرك كلامه قـائلاً : «وظـواهر هذا الألفاظ تشهد بخلاف قولهم».

---

[1] . كما جاء ذلك في زيارتهعليه السلام.

وأما بالنسبة إلى محلّ ولادة الإمام علي عليه السلام، فيقول إبن أبي الحديد في (ج ١: ٥) «واختلف في مولد علي عليه السلام أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدثون[١] لايعترفون بذلك، ويزعمون ان المولود في الكعبة حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي».

بين بين :

أفردنا هذا العنوان عما قبله لمّا رأيناه يترك العصبية جانباً، ولربما ذكر بعض الموضوعات لأجل أرضاء الطرفين من الشيعة والسنة، أو لأجل سدّ ثغر الخلاف بينهما، أو لأجل توحيد الصفوف بين المسلمين، أو لأجل... فيأتي إبن أبي الحديد أحياناً بآراء للفريقين ومن دون أي تعصب، نذكر منها:

١- رؤية الإمام علي عليه السلام عند الموت : قال إبن أبي الحديد في تفسيره، للخطبة ٢٠ في ج ١ : ٩٩ «ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقول عن نفسه أنّه لا يموت ميتٌ حتى يشاهده عليه السلام حاضراً عنده، والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقده، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهمذاني:

يا حار همدان من يمت يرني ... من مؤمن أو منافق قبلا
يعرفني طرفه وأعرفه ... بعينه وأسمه و ما فعلا
أقول للنار وهي توقد للعرض ... ذريه لا تقربي الرجلا
ذريه لا تقربيه أن له ... حبلاً بحبل الوصي متصلا

---

[١]. حبذا لو ذكر أسما بعضهم.

ويستدرك كلامه قائلاً : «وليس هذا بمكنر أن صحّ أنه

وبعـــــده عثمـــــان ذوالنـــــورين هـــذا هـــو الحـــق بغـــير مـــين

قاله عن نفسه، ففي الكتاب العزيز ما يدل على أن أهل الكتاب لا يمـوت منهم ميت حتي يصدق بعيسى بن مريمعليه السلام»

٢- خلافة أبي بكر: يقول إبن أبي الحديد في معرض تفسيره للخطبة الثالثـة مـن نهـج البلاغة المعروفة بالشقشـقية ج١: ٥٢ : «أمـا الإماميـة الشـيعة فتجـري هـذه الألفاظ على ظواهرها وتذهب إلى أن النّبيصلى الله عليه وآله نصّ على أميرالمؤمنينعليه السلام وأنـه غصـب حقـه. وأمـا أصـحابنا رحمهـم الله فلـهم أن يقولـوا: أنـه لمـا كـان أميرالمؤمنينعليه السلام هو الأفضل والأحق، وعدل عنه إلى مـن لايسـاويه في فضـل ولا يوازيه في جهاد وعلم، ولا يماثله سودد وشرف، ساغ اطلاق هذه الألفـاظ، وإن كان من وسم بالخلافة قبله عدلاً تقياً، وكانت بيعته بيعة صحيحة».

ويستدرك الكلام قائلاً : «فأصحابنا لما أحسنوا الظن بالصحابة وحملوا ما وقـع منهم على وجه الصواب...» ويستمر خلال الشرح في ص ٥٣ حيث يقول : «فلم يلبثا أن جاءتهما (الإمام عليعليه السلام والعباس) الأخبار بأن الأنصار أقعدت سعداً لتبايعـه، وأن عمر جاء بأبي بكر فبايعه، وأنه سيّر أبابكر وعمر في بعـث أسـامة لتخلـو دار الهجـرة منها، فيصفوا الأمر لعليعليه السلام، ويبايعه من تخلف مـن المسـلمين بالمدينـة علـى سـكون وطمأنينة...»

هذا وان البحث والتدقيق في هذا الأمر يستحق أن يكون بمنزلة رسالة دكتـوراه، ونحن نكتفي بهذا المقدار من الكلام، أرجوا أن قد بلغت إلى الهـدف المنشـود. وأخـيراً أرى أن الرأي بيد القراء الكرام أصحاب الفكر وأهل التقوى إن يحكموا له أو عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

باب الجنّة[1]

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللّه لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللّه الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ[١] الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ[٢] أَلْبَسَهُ اللّه ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ وَدُيِّثَ[٣] بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ[٤] وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ[٥] وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ[٦] بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ[٧] وَمُنِعَ النَّصَفَ[٨].

أَلا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللّه مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ[٩] إِلاّ ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ[١٠] وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ الْغَارَاتُ[١١] عَلَيْكُمْ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ. وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ[١٢] قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ[١٣] وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ[١٤] وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا[١٥] وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ[١٦] فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا[١٧] وَقُلُبَهَا[١٨] وَقَلائِدَهَا وَرِعَاثَهَا[١٩] مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاّ بِالاسْتِرْجَاعِ[٢٠] وَالاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً

---

١. يقول محمّد جعفر امامي ومحمّد رضا آشتياني في كتابهما نهج البلاغة، ج١، ص٣٠٩: إنّ هذه الخطبة جاءت في: الكامل للمبرد، ج١، ص١٣؛ وصاحب الغارات، ج٢، ص٤٧٤؛ ويقول صاحب مدارك نهج البلاغة انّ الكليني ذكرها في باب الجهاد والجاحظ في كتاب البيان والتبيين مع اختلاف يسير، وكذلك تجدها في الأخبار الطوال والعقد الفريد وعيون الأخبار.

مِنْهُمْ كَلْمٌ[٢١] وَلا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ. فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً.

فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللّه يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَـؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً[٢٢] حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً[٢٣] يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللّه وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَـذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ[٢٤] أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ[٢٥] عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ[٢٦] أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ. كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللّه مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ.

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ[٢٧]، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللّه جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً[٢٨]. قَاتَلَكُمُ اللّه لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً[٢٩] وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي[٣٠] غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ[٣١] التَّهْمَامِ[٣٢] أَنْفَاساً[٣٣] وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . للّه أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً[٣٤] وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ[٣٥] وَلَكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ[١].

---

١. هذه هي الخطبة السابعة والعشرون من نهج البلاغة ذكرها صبحي الصالح في ص ٦٩ وقال هي ذات طابع سياسي، اجتماعي، عقائدي، وتُعدُّ من مشاهير خطبه٧.

[١]. جُنّتُهُ: بالضمِّ، وقايتُهُ، والجُنّة كلُّ ما استرتَ بهِ.

[٢]. رغبةً عنه: زهداً فيه.

[٣]. دُيِّث: مبنيّ للمجهول، من ديّثَهُ أي ذلّلهُ، ومنه الديوث الذي لا غيرة له.

[٤]. القماءةَ: الصغار والذلُّ، والفعل منه قَمُؤَ من باب كرُم.

[٥]. الإسهاب: العمق، ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة.

[٦]. أُدِيلَ الحقُّ منه: أي صارت الدولة للحقّ بدله، والمراد هنا القصاص.

[٧]. سِيمَ الخسفَ: أولاهُ ذُلاًّ، ابتلي بالذلّ، والخسف: الذلّة والمشقّة.

[٨]. النصف: العدلُ والانصاف.

[٩]. عُقر دارهم: بالضمِّ وسطها، أصله، وسُمّي الملك الثابت عقاراً لأنّه أصل المال.

[١٠]. تواكلتُم: من وكلتُ الأمر إليك ووكلته إليّ أي لم يتوله أحد منّا، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر، ومنه رجل وكل أي عاجز يكلُ أمره إلى غيره.

[١١]. شُنّت الغاراتُ: مُزّقت عليكم من كلّ جانب كما يشنّ الماء متفرّقاً دفعةً بعد دفعة.

[١٢]. أخو غامد: غامد قبيلة من اليمن، وأخو غامد هو سفيان بن عوف جهّزه معاوية عسكرياً للإغارة على الأنبار والمدائن، وقتل كلّ مَن خالفه، وتدمير القرى والأرياف التي يواجهها في الطريق، ونهب الاموال الذي هو أوجع للقلب، وامتثل سفيان الأمر فلمّا رجع إلى معاوية قال له: كنت عند ظنّي بك، وجاء ذكره في مناسبة الخطبة.

[١٣]. الأنبار: بلدة على شاطئ الفرات الشرقي في العراق ويقابلها هيت. وخيلـه: جيشه، قواته المسلّحة.

[١٤]. حسّان بن حسّان البكري: هو عامل الامام علي عليه السلام على مسلحة الأنبـار، قاتل الغامدي مع ثلّة من أنصاره حتّى استشهدوا جميعاً.

[١٥]. مسالحها (جمع مسلحة): الحدود والثغور، والمرقب.

[١٦]. المعاهدة: الذمية، وفيه اشارة إلى الدفاع عن أهل الكتاب وهذه هي الرؤية العالمية للاسلام.

[١٧]. الحجْل: بالكسر وبالفتح وبكسرين، الخلخال.

[١٨]. القلب: بضمتين (جمع قُلْب): السوار.

[١٩]. رُعُثها: بضمتين (جمع رعاث) أي شنوفها وقرطها.

[٢٠]. الاسترجاع: ترديد الصوت بالبكاء مع قول إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

[٢١]. الكَلْم: بالفتح وسكون اللام: الجُرح.

[٢٢]. تَرَحاً: بالتحريك، أي همّاً وحزناً، وهو ضدّ الفرح.

[٢٣]. الغرض: ما يُنصبُ ليرمى بالسهام ونحوها، الهدف.

[٢٤]. حمارةُ القيظ: بتشديد الراء، شدّة الحرّ.

[٢٥]. يُسبّخ: يُخفّف، ويسبّخ عنّا الحرّ أي يُخففه.

[٢٦]. صبّارة القُرِّ: بتشديد الراء، شدّة البرد.

[٢٧]. حجال: ج حجلة وهي القبة، وموضع يـزين بالسـتور. وربـات الحجـال: النساء.

[٢٨]. السدم: محركة، الهمّ مع أسف أو غيظ وفعله كفرح.

[٢٩]. قيحاً: ما في القرحة من الصديد.

[٣٠]. شحنتم صدري: ملأتموه.

[٣١]. النغب: جمع نغبة كجرعة وجرع لفظاً ومعنىً.

[٣٢]. التهمام: بالفتح الهم، وكل تفعال فهو بالفتح إلا التبيان والتلقاء فهما بالكسر.

[٣٣]. أنفاساً: أي جرعة بعد جرعة. والمراد أن أنفاسه أمست هماً يتجرّعه.

[٣٤]. مراساً: مصدر مارسة ممارسة ومراساً، أي عالجه وزاوله وعاناه.

[٣٥].ذرفت على الستين: زدت عليها.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

وعلة ذلك كما ذكرها صاحب الكامل[١]، انّه انتهى إلى عليّ عليه السلام أنّ خيلاً لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عاملاً له يقال حسّان بن حسّان، فخرج مُغضباً يجرُّ ثوبه حتّى أتى النُخيلة واتبعه الناس، فرقى رباوةً من الأرض فحمد اللّه وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله ثمّ قال اما بعدُ فانّ الجهاد....

هذا وانّ الحملة كانت عنيفة جداً كما ذكرها ابن أبي الحديد[٢] نقلاً عن كتاب الغارات، انه قال (الغامدي): دعاني معاوية فقال: انّي باعثک في جيش كثيف ذي أداة وجلاد، فالزم لي جانب الفرات حتى تمرّ بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغرّ عليهم، وإلاّ فامض حتّى تُغير على الأنبار، فان لم تجد بها جُنداً فامض حتّى توغل المدائن، ثمّ أقبل (ارجع) إليّ واتّق أن تقرب الكوفة، واعلم انّك ان أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة انّ هذه الغارات

---

١. الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص١٣.

٢. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٤٤.

يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كلّ من لـه فينـا هـوى منـهم، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر (المصائب والشدائد)، فاقتل من لقيته ممّن لـيس هو على مثل رأيك واخرب كلّ ما مررت به من القرى واحرب (اسلب) الأموال فانّ حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب.... .

٢. شرح النص

قيل إنّ كلام الملوك ملوك الكلام، وبناءاً على هذا فانّ كلام المعصوم ما هو إلاّعصمة للكلام، فانّك تجد في هذه الخطبة انّ الكلام جاء مناسباً للمخاطبين بـلا لغو ولا إبهام، يصبُّ في الضمائر الحيّة حميم الغضب ضدّ أعداء الـدين، يـذكّرهم أوّلاً بفضل الجهاد في سبيل اللّه والتمسّك بسنّة رسولهﷺ، والترغيب في الـدخول إلى الجنان، والجلوس عند الحور الحسان ومن جانب آخر يُحـذّرهم نـار جهـنّم وغضب الجبّار، ثمّ التحذير من الذل والاحتقـار، وكـان هـذا العمـل منـه دؤوبـاً يدعوهم ليلاً ونهاراً، سـرّاً واعلانـاً، ثمّ بـدأ باسـتنهاض الهمـم العاليـة للرجـال وترغيبهم للجهاد، واثارة الحماسة في قلوب الجماهير، من قبل أن يستفحل الأمر، وينقادوا لسيطرة الهوان، ولكن لا أمر لمن لا يُطاع، حينئذٍ استصرخ ضـمائرهم،و حاول أن يحرّك الوجدان لديهم، وذلك لمّا ذكر المرأة الـتي تُعـدُّ ناموسـاً وعرضـاً للانسان، وبيّن كيف تجاوز عليها الأعدا؟ وسلبوا منها الذهب من خلخال وسـوار وقلادة وقرط وفي النهاية يبدي أسفه الشديد بالموت لمشـاهدة هـذه المنـاظر، أو السامع لهذه المقالة، عساه أن يكتسب الأعوان وينفروا معه الى سوح القتال، ولكن للأسف الشديد لقد ماتت الضمائر الحيّة، وخرست الألسن الناطقة، وكأنّ المـوت كان يُرفرف على رؤوسهم فراراً من الزحف، وأخيراً دعا عليهم بقوله: قُبحاً لكم

وترحاً، وان يُنحيهم اللّه عن الخير، ذاماً لهم بقوله: قاتلكم اللّه لقد ملأتم قلبي قيحاً (صديداً) وشحنتم (ملأتم) صدري غيظاً (غضباً) وجرعتموني نُغب (جُرع) التهمام (الهمّ) انفاساً (أي جرعة بعد جرعة)... فتراه يُشير في هذه الخطبة إلى بعض محنه التي لاقاها من الكوفيين.

٣. النصّ والافكار

احتوت الخطابة على البحوث التالية:

فضل الجهاد، الدعوة إليه، تخاذل الكوفيين، الرؤية المستقبلة، اظهار التحسر والتلهف عليهم، التنفر منهم والفخر بنفسه، وأخيراً ذمّ الكوفيين.

٤. العاطفة

نشير قليلاً الى تجلّي عنصر العاطفة في هذه الخطبة فنقول:

أولاً) خطاب الوجدان:

حيث خاطب الامام عليه السلام نفسه الكريمة والحاضرين قائلاً: انّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً و....

فانّك ترى من خلال الكلام نفسه عليه السلام مطمئنة ارتياحاً، لأنّه قام بالواجب الملقى على عاتقه بقوله: دعوتكم ليلاً ونهاراً... ولكن المستعين اتخذوا التواكل والخذلان طريقاً لهم كي لا يفلحوا أبداً، والحال أنهم هم المسؤولون أمام هذا الخراب والدمار لأنّهم المقصرون في أداء واجباتهم ورضوا بالغزو، وتمسكوا بالمعاذير الواهية.

ثانياً) تحريك المشاعر:

الف) وذلك عن طريق حبّ الوطن حيث قال: ومُلكت عليكم الأوطان فاحتلال الوطن من قبل العدوّ يُثير الغضب لدى الجمهور حتّى يصل بهم الحدّ إلى الأخذ بالثأر من المعتدين، وطرد المهاجمين.

ب) عن طريق العرض، فانظر الى تدرجه في إثارة العاطفة لدى الجماهير الحاشدة مبتداً بالمسلمة ثم المعاهدة، ثمّ التدرج من الحجل (الخلخال) في الأقدام إلى السوار في المعاصم (الأيدي) وإلى القلادة في الجيد وأخيراً إلى القرط في الآذان، فمع هذا التصاعد يتصاعد لهيب الحماسة والغيرة وتُثير الحميّة في النفوس وتشحنها حقداً وحنقاً على العدوّ. علماً بأنّه عليه السلام كان يعلم ما للمسلم من بذل نفسه للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة، فاذا هو يعنّف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاة حِماها ثمّ انصرفوا آمنين.

ج) عن طريق اثارة الشعور الديني، حيث يقول: فيا عجباً! عجباً! واللّه يُميتُ القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم!... صرتم غرضاً (هدفاً) يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون وتغزون ولا تغزون، ويُعصى اللّه وترضون!

فكلّ من القسم والتفرّق عن دين الحق وعصيان اللّه، أحاسيس ومشاعر دينية صادقة تُفجّر بركان الغضب عند المسلمين ضد أعدائهم.

د) عن طريق الخوف: لقد استولى الخوف على نفوس الكوفيّين حيث يقول: فانتم واللّه من السيف أفرُّ، وليست المسألة مسألة الصيف والشتاء، والحرّ والبرد، وإنّما هو الخوف من العدوّ.

ه) عن طريق صدق العاطفة: حيث يُقسم باللّه العظيم قائلاً: فواللّه ما غُزي قومٌ قط في عُقر دارهم (وسطها) إلاّ ذلّوا، ثمّ تراه ينفعل مراراً خلال الخطبة

ويدعو عليهم بالويل والثبور قائلاً لهم: قبحاً لكم وترحاً (هماً وحزناً)، وأُخرى يقول مخاطباً ايّاهم: قاتلكم اللّه لقد ملأتم قلبي قيحاً (صديداً) وشحنتم (ملأتم) صدري غيظاً (غضباً) وجرّعتموني نغب التهمام انفاساً.

و) الغضب، يقول جورج جرداق، ص ١٤: «ومن الطبيعي ان يغضب الامامعليه السلام في مثل هذا الموقف، فاذا بعبارته تحمل كلّ ما في نفسه من هذا الغضب، فتأتي حارّة شديدة مسجّعة مقطعة ناقمة: فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يرمى يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون ويُعصى اللّه وترضون»[١].

وأخيراً تبدو إمارات اليأس في كلامه حيث يقول: لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة (واللّه) جرّت ندماً وأعقبت سدماً (همّاً)، رادّاً شبهة الأعداء بأنّه المقاتل في سبيل اللّه منذ العشرين وحتى الستين عاماً، ويختم الخطاب في النهاية بالمثل المعروف: ولكن لا رأي لمن لا يطاع، «فلا جرم أن صاحب الخلافة الكبرى أميرالمؤمنينعليه السلام قال هذه المقالة تحسّراً عليهم من قلب ملؤه حبّ وحنان، وعن يقين ان في الطاعة نجاتهم، وفي الخلاف هلاكهم، ولا يقول قائلٌ هذا الكلام إلاّ تحسّراً على فوت الهدف الأفضل بالعصيان، علماً بالعاقبة المحمودة بالطاعة»[٢] آيساً من الجمهور عارضاً عنهم صفحاً، وإلى اللّه المشتكى وعليه المعوّل في الشدّة والرخاء.

وأمّا قولهعليه السلام: ما نال رجلاً منهم كلم، كناية عن الاستسلام، وكذلك قولهعليه السلام: ويعصى اللّه وترضون كناية عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

١. روائع نهج البلاغة، ص٣١.

٢. الأمثال والحكم، ص٣٨٨.

٥. عنصر الخيال والبلاغة

في العبارتين «لباس التقوى، ثوب الذل» استعارتان ففي «لباس التقوى» استعارة مكنية شبّه التقوى بانسان وحذف المشبه به وأبقى شيئاً من صفاته يدلّ عليه وهو اللباس على سبيل الاستعارة المكنية، وكذا القول في «ثوب الذلّ».

وفي عبارة ليلاً ونهاراً، سرّاً واعلاناً، طباق، وكذلك في قولهعليه السلام: يُغار عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تَغزون، طباق سلب.

وتجد عنصر المقابلة واضحاً في:

١. قولهعليه السلام... ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم... حيث قابل بين كلمتي اجتماع وتفرقكم، وبين باطلهم وحقكم.

٢. قولهعليه السلام... في ايام الحرّ قلتم هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحرّ...، في الشتاء قلتم هذه صبّارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد... حيث قابل أيّام الحرّ والشتاء، وبين حمارة القيظ وصبارة القر، وبين الحرّ والبرد.

وبعمله هذا أظهر الجمال في الكلام حيث يقول المثل المعروف والحسنُ يظهره الضدّ.

وبين الحرّ والقرّ جناس ناقص. وفي عبارة: يا عجباً عجباً واللّه يُميتُ القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء... صناعة بديعية تؤكّد على القسم[١] الذي فيه هجاء.

---

١. قال النويري في نهاية الإرب، ج٧، ص١٥٠: القسم هو أن يريد الشاعر الحلف على شيء فيأتي في الحلف بما يكون مدحاً له وما يكسبه فخراً، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً، أو جارياً مجرى التغزل.

٦. الاسلوب

أولاً) متأثر بالقرآن الكريم كما يلوح للناظر، وذلك امّا عن طريق الاقتباس مباشرة كما في العبارات التالية:

الف) قولهعليه السلام: وهو لباس التقوى، مقتبس من قوله تعالى: قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خيرٌ (الأعراف، ٢٦).

ب) قولهعليه السلام: دعوتكم ليلاً ونهاراً وسرّاً واعلاناً، مقتبس من قوله تعالى: ربّ انّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً... ثمّ انّي دعوتهم جهاراً... وأسررت لهم اسراراً(نوح،٤ ـ ٩).

ج) قولهعليه السلام: وهذا أخو غامد... مقتبس من قوله تعالى: وإلى مدين أخاهم شعيباً (الأعراف، ٨٥)، وأمّا بصورة غير مباشرة كما في الأمثلة التالية:

١. قولهعليه السلام: وديّث بالصغار، مقارنة لقوله تعالى: زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا (البقرة، ٢١٢).

٢. قولهعليه السلام: وضُرب على قلبه بالأسهاب، متشابه لقوله تعالى: وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (التوبة، ٨٧).

٣. قولهعليه السلام: وأُديل الحقّ منه، نظير قوله تعالى: قال قد أُجيبت دعوتكما (يونس، ٨٩).

٤. قولهعليه السلام: وسيم الخسف، يشابه قوله تعالى: وقيل يا ارضُ ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء (هود، ٤٤).

٥. قولهعليه السلام: ما غُزي قومٌ قطّ، يشبه قوله تعالى: وإذا قرئ القرآن (الأعراف، ٢٠٤) ولها نظائر أُخرى أعرضنا عنها صفحاً خوف الاطالة.

ثانياً) الفصاحة:

وهي من أبرز صفات الخطابة عند الامام علي عليه السلام فالكلمات الفصيحة والبليغة جاءت مناسبة لمواقعها في الخطبة، فأدنى تغيير في المحل أو استخدام المرادف يخلّ بالمعاني، فعلى سبيل المثال كلمة تواكلتم في هذه الجملة «فتواكلتم وتخاذلتم...» لقد جاء معناها في فهرس الألفاظ، لو عُوّضت بكلمةب «تعاجزتم» لما أدّت ذلك المعنى الملقاة على عاتق «تواكلتم» فالكلمة الاولى فيها معنى فرار الانسان من المسؤوليّة وهو غير معذور، والحال انّ الكلمة الثانية ترى العاجز معذوراً.

ثالثاً) اتّخاذ الجمل الانشائيّة والخبريّة منطلقاً في الكلام، فتارةً يميل إلى الانشائيّة كقوله عليه السلام: قلت لكم اغزوهم (أمرية) قبل أن يعزوكم، فواللّه (قسم) ما غُزي قوم... وأُخرى يستعين بالخبريّة كقوله عليه السلام: فتواكلتم وتخاذلتم حتّى شُنت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان...، ممّا يجعل القاريء يتمتع بالكلام ولا يملّ الخطاب، وهذه الصبغة هي الحاكمة على الخطبة بصورة كاملة.

٧. موازنة

من أجل الوقوف على الصياغة الأدبيّة ومن أجل بيان محاسن الخطبة الجهاديّة لمولانا أميرالمؤمنين عليه السلام نشير هنا إلى مقايستين قام بها ابن أبي الحديد في شرحه:

الاولى) القرآن الكريم وعلي عليه السلام: يقول ابن أبي الحديد: «فان شئت أن تزداد استبصاراً، فانظر القرآن العزيز، واعلم انّ الناس قد اتّفقوا على انّه في أعلى طبقات الفصاحة، وتأمّله تأمّلاً شافياً، انظر إلى ما خصّ به من مزية الفصاحة

والبعد عن التقعر[1] والتعقيد والكلام الوحشي الغريب، وانظر كلام أميرالمؤمنينعليه السلام فانّك تجده مشتقاً من ألفاظه، ومقتضباً من معانيه ومذاهبه ومحذواً به حذوه، ومسلوكاً به في منهاجه فهو وإن لم يكن نظيراً ولا ندّاً يصلح أن يقال انه ليس بعده كلام أفصح منه ولا أجزل ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل إلاّ أن يكون كلام ابن عمّهصلى الله عليه وآله، وهذا أمر لا يعلمه إلاّ من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة وليس كلّ الناس (العلماء) يصلح لانتقاد الجوهر، بل ولا لانتقاد الذهب، ولكلّ صناعة أهل، ولكلّ عمل رجال»[2].

الثانية) الامام عليعليه السلام وابن نباتة: يقول ابن أبي الحديد: «واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلّهم أخذوا من كلام أميرالمؤمنينعليه السلام، فمن جيد ذلك ما قاله ابن نباتة الخطيب: أيُّها الناس إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون، وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون كأنّ أسماعكم تمجُّ ودائع الوعظ وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ وعدوكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه...، فالجهاد الجهاد أيّها الموقنون والظفر الظفر أيّها الصابرون والجنّة الجنّة أيّها الراغبون، والنار النار أيّها الراهبون، فانّ الجهاد أثبت قواعد الايمان وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان....

يقول ابن أبي الحديد: فانظر إليها وإلى خطبتهعليه السلام بعين الانصاف تجده إليها كمخنث بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافة إلى سيف من حديد، وانظر ما عليها من أثر التوليد، وشين التكليف وفجاجة كثير من الألفاظ، ألا ترى

---

١ . تقعّر في كلامه : أخرجه من حلقه .

٢. شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص١٤٣.

إلى فجاجة قوله: كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ، وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ... ومع هذا فهي مسروقة من كلام أميرالمؤمنينعليه السلام، ألا ترى انّ قولـهعليه السلام: أمّا بعد فانّ الجهاد باب من أبواب الجنّة قد سرقه ابن نباتة فقال: فانّ الجهاد أثبت قواعد الايمان... وقولهعليه السلام: من اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكـم، سرقه أيضاً فقال: صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه... وقولهعليه السلام: قد دعوتكم إلى قتال هؤلاءالقوم إلى آخره، سرقه أيضاً فقال: كم تسمعون الـذكر فـلا تعـون وتقرعون بالزجر فلا تقلعون، وقولهعليه السلام: حتّى شُـنت علـيكم الغـارات وملكـت عليكم الأوطان سرقه أيضاً وقال: وعدوّكم يعمل في دياركم عمله ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله»[1].

التحليل الاعرابي

اولاً) بعض المفردات:

١. أمّا: شرطيّة[2] غير جازمة، ويقترن جوابها بالفاء كقوله تعالى: فأمّا اليتيم فلا تقهر وأمّا السائل فلا تنهر وأمّا بنعمة ربّك فحدّث (الضحى،٩).

٢. الباء في قولهعليه السلام: واديل الحق منه بتضييع الجهاد للسببية كمـا في قولـه تعالى: ذلك جزيناهم ببغيهم (الأنعام، ١٤٦).

٣. رغبةً: مفعول لأجله.

٤. سرّاً: امّا مفعول مطلق أو حال.

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص١٤٣.

٢. سمّيت حرف شرط لأن الفاء الرابطة للجواب لا تفارقها، لا لأنها كأدوات الشرط لها فعل شرط وجواب شرط.

٥. قطّ: ظرف زمان مبني على الضم متعلق بـ«غُزي».

٦. أسفاً: صفة لمفعول مطلق أي موتاً أسفاً، أو حال.

٧. فيا عجباً: منادى نكرة غير مقصودة، أو منصوبة على المصدرية (مفعول مطلق) ومثله قبحاً وترحاً.

٨. فلو أن امرءاً: بتأويل مصدر فاعل لفعل محذوف تقديره فلو ثبت.

ثانياً) اعراب الجملة الأخيرة من الخطبة:

فاذا: أداة شرط غير جازمة ظرف منصوب محلاً متعلق بجوابه (قلتم) وهو مضاف وجملة «كنتم...» مضافة إليها مجرورة محلاً.

كنتم: كان من الأفعال الناقصة مبنية على السكون لاتصاله بضمير متحرك، والضمير المتصل اسم كان مبني على السكون محلاً مرفوع.

من الحرّ والقرّ: من حرف جر مبني على السكون، والحر: مجرور بالكسرة الظاهرة، والقرّ: معطوف عليه، والجار والمجرور متعلق بالفعل تفرون.

تفرون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، لأنه من الأفعال الخمسة، والواو في محل رفع فاعل، والجملة في محل نصب خبر كان.

فانتم: الفاء في جواب الشرط، وأنتم: مبتدأ مبني على السكون محلاً مرفوع.

واللّه: الواو حرف قسم ولفظة الجلالة مجرورة، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره اقسم، والجملة معترضة ليست لها محل من الاعراب.

من السيف: جار ومجرور متعلقان بـ«أفرّ» الآتي.

أفرّ: خبر أنتم مرفوع بالضمة الظاهرة.

قوله عليه السلام: وجرعتموني نغب التهمام انفاساً، فانفاساً جمع قلة جاءت لمناسبة الجرعة التي يتم شيئاً فشيئاً، فهي أفضل من الشرب مرّة واحدة.

الدرس الثاني

أهل البيت عليهم السلام[1]

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاء، وَتَسَنَّمْتُمْ[١] ذُرْوَةَ الْعَلْيَاء، وَبِنَا أَفْجَـرْتُمْ[٢] عَنِ السِّرَارِ[٣].وُقِرَ[٤] سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ[٥].

وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ[٦] مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟

رُبِطَ جَنَانٌ[٧] لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ.

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ[٨] بِحِلْيَةِ[٩] الْمُغْتَرِّينَ. حَتَّى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ[١٠]، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ.

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ[١١]، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِيهُونَ[١٢].

الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ[١٣] ذَاتَ الْبَيَانِ.

عَزَبَ[١٤] رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي.

مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ!

---

١. هذه هي الخطبة الرابعة من نهج البلاغة كما ذكرها صبحي الصالح في ص٥١، وقال الشريف الرضي رحمه الله: هي من أفصح كلامه٧، وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم، وذكرها المفيد في ارشاده مع اختلاف يسير كما قال ذلك صاحب المستدرك، ص٢٣٩.

لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السلام خِيفَةً[١٥] عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ[١٦] مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّال وَدُوَل الضَّلال.

الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا[١٧] عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

فقه اللغة

[١]. تسنّمتم العلياء: ركبتم سنام الناقة.

[٢]. أفجرتم: دخلتم في الفجر.

[٣]. السرار: آخر ليلة في الشهر يختفي فيها القمر، وهو كناية عن الظلام.

[٤]. وقر: صم.

[٥]. الواعية: الصارخة والصراخ نفسه، والمراد هنا العبرة والمواعظ الشديدة الأثر.

[٦]. النبأة: الصوت الخفيّ.

[٧]. الجنان: القلب.

[٨]. اتوسّمكم: أتفرسُ فيكم.

[٩]. الحلية: الزينة والمراد هنا صفه أهل الغرور.

[١٠]. جلباب الدين: ما لبسوه من رسومه الظاهرة.

[١١]. جوادّ المضلة: الطرق التي تضل سالكها وجواد ج جادة وسط الطريق.

[١٢]. تُميهون: تجدون ماء، وأماه المحتفر يُميه: أنبط الماء.

[١٣]. العجماء: البهيمة، وقد شبه بها رموزه واشاراته لغموضها على من لا بصيرة لهم.

[١٤]. عزب: غاب وبُعد، والمراد: لا رأي لمن تخلّف عني.

[١٥]. لم يوجس...: لم يستشعر خوفاً.

[١٦]. أشفق: خاف.

[١٧]. توافقنا: تلاقينا وتقابلنا.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

قيل إنّ هذه الخطبة خطبها بعد مقتل طلحة والزبير مخاطباً بها، لهما ولغيرهما من أمثالهما[١].

٢. شرح النص

يقول عليه السلام: انّ الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام هم أسباب الهداية، ومنار الايمان، بهم نكتسب المعالي من علم وتقوى و... و... وبهم نطردُ الجهل والضلال، ونقود الامم نحو شاطئ النور والسلام. ويدعو بالصم على الذي لا يعي المواعظ ويُعرض عنها، فالذي لا يستمع لكتاب اللّه ومواعظ رسول اللّه صلى الله عليه وآله، كيف يستمع لكلامه عليه السلام.

ثم يدعو للذي يهاب اللّه من عذابه وغضبه بالثبات والاستقامة في طريق الحقّ، ثمّ يعدلُ بالخطاب إلى الناكثين أصحاب الغدر والخيانة ويفترس فيهم الغرور (الناشيء عن الغفلة)، وإنّ تظاهرهم بالاسلام عصمهم من انتقامه عليه السلام، فلم يتعرض لهم بالأذى لارتدائهم ثوب الدين، علماً بأن الامام عليه السلام واقف على

١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١، ص٧٠ وكذلك في توضيح نهج البلاغة للشيرازي، ج١، ص٧٨. وكذا قاله الرضي(ره).

ضمائرهم الخبيثة من خلال صدق نيته وصفاء باطنه. قال الشيخ محمد عبده: «وصاحب القلب الطاهر تنفذ فراسته إلى سرائر النفوس فتستخبرها»[1].

ثم يستمر في كلامه قائلاً: فاظهرت لكم الطرق الصحيحة والشرائع الحقة عن طرق الضلال، حيث كنتم تلتقون في الطرقات باحثين عن الماء فلم تجدوه.

فاليوم تنطق لكم المواعظ والعبر الصامتة، فالذي غاب فكره عنّي تاه، فاتباعكم ايّاي فرض عليكم، لأنني لم يتداخلني الشك في الحق منذ اللحظة الاولى ولن أحيد عنها أبداً، كما ان موسى عليه السلام لم يخف على نفسه، بل خاف من الفتنة وغلبة الجهال والظّلام على قومه. فاليوم اتّضح الحق والباطل وعرفناهما نحن وأنتم. والذي يملك الماء بقدر الحاجة لم يهج به العطش، ومن اطمئن قلبه اطمئنّ جسمه وسكن.

٣. الافكار الرئيسية

وهي تحوم حول الهداية والضلالة، والايمان والكفر، وصفاء النفس لعليّ عليه السلام، وتمييز الحق عن الباطل، والاعتماد على النفس.

٤. العواطف

فرضت المشاعر العاطفية نفسها على هذه الخطبة، منذ بدايتها حتى نهايتها بعنصر السكينة التي تجلّت من خلال نفسه المطمئنة بالايمان ويقينه الصادق باللّه سبحانه، فابتدأ بالاطمئنان في كلامه قائلاً: بنا اهتديتم لا بغيرنا (اذ هم مصدر

---

١. في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص١٠٢.

الهدى)، ويختم كلامه بلا شك وبلا ترديد قائلاً: ما شككت في الحقّ... مؤكداً كلامه هذا باليقين عبر المثل المعروف من وثق بماء لم يظمأ. ثم بعد ذلك يستعين بالغضب عبر الدعاء، ضد الأعداء قائلاً: وقر سمعٌ لم يتفقه الواعية، ولكن سرعان ما تخمد نار غضبه عبر جلباب الدين، ثم يدعو لأصحاب الايمان عاطفاً عليهم بالحنان طالباً لهم الاطمئنان بقوله عليه السلام: ربط جنان لم يفارقه الخفقان، وتراه يُثير الشوق عند تلاقي الجمهور، ولكنه يتبدل إلى اليأس كما هو مشهود في قوله عليه السلام: تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون.

ثمّ يعرّج الى اثارة المشاعر لدى الجماهير عن طريق ذكر العجائب مخاطباً لهم: اليوم انطق لكم العجماء... فانطاق المواعظ من العجائب وكذلك ترى هذا المشهد في قوله عليه السلام التالي: عزب رأي امريء تخلّف عنّي، ويتصاعد هذا التعجب حينما نسمع كلامه عليه السلام يقول: ما شككتُ في الحقّ مُذ أريته، «لأنّ علمه بالشريعة الاسلامية مطابق للأصل الموجود في علمه تعالى»، وهذا الكلام يُثير الأسئلة لدى الحاضرين! ثم ينحدر نحو الشفقة على الجماهير ممثلاً لها بأحس تصوير مستعيناً بالقرآن الكريم قائلاً: لم يوجس موسى عليه السلام خيفةً... فصورة الخوف جاءت مماثلة لما حصلت لموسى عليه السلام ، حيث نفى الخوف عن نفسه الكريمة عليه السلام بل الخوف وكل الخوف كان من إضلال الجماهير وبهذا النمو تتكامل اصول العاطفة من رغبة ورهبة وطرب وغضب في هذه الخطبة الكريمة.

٥.عنصر الخيال

لقد أبدع الامام عليه السلام الجمال في تصاويره الحسية التالية:

الف) صورة التعالى: قوله عليه السلام: تسنمتم العلياء، ان ارتقاء ظهر الناقة يألفه الجميع، فلمّا أراد أن يصفهم بأنّهم صاروا أصحاب المفاخر والمعالي بأهل البيت عليهم السلام استعان بـ(سنام الناقة) فشبّه ارتقائهم في المعالي بـ(تسنمهم للناقة)، فجاءت الصورة بيّنة المعالم، محسوسة الظواهر. فالألفاظ صوّرة المعاني (الرفعة والعظمة والسمو) بدقة.

ب) صورة الحقّ: قوله عليه السلام: أقمت لكم سنن الحقّ في جواد المضلّة، حيث شبّه حالتهم في الضلال حالة الذي يسير في طريق خال من المعالم، فلا يصل الى المقصود، وكذلك شبه حالة المؤمن الذي يسلك طريق الحق بطريق فيه معالم وارشادات ومعه الدليل(الامام علي عليه السلام، فانه سيهتدي الى الغاية المطلوبة.

ج) صورة الضلال: قوله عليه السلام : تلتقون... الى ولا تُميهون: حيث شبّه اجتماعهم على الباطل بلا عائد، بلقائهم بعضهم الآخر باحثين عن الماء فلم يجدوه.

د) صورة الخوف: تكررت هذه الصورة التي حصلت لموسى عليه السلام مع قومه من سحر سحرة فرعون، للامام عليه السلام وأصحابه الذين يخاطبهم بعد مقتل طلحة والزبير.

ه) صورة الجهل: بنا اهتديتم في الظلماء، أراد بالظلماء الجهل والكفر، فجاءت الصورة تحت ظل الاستعارة التصريحية، حيث ادّعى فيها ان الجهل هو عين الظلام وحذف المشبه وأقام المشبه به وحده، فما أجملها من صورة وعبارة.

و) صورة الوعظ قوله عليه السلام : اليوم أنطق لكم العجماء: فيه كناية، وذلك ان العجماء تطلق على البهائم، ولكنه كنّى بها عن المواعظ فجاءت الكناية هنا أبلغ من التصريح.

٦. الاسلوب

له محاور عديدة منها:

١. التضمين: قوله عليه السلام: لم يُوجس موسى عليه السلام خيفةً... متضمن قوله تعالى: فاوجس في نفسه خيفةً موسى (طه، ٦٧).

٢. التوازن: تجد ذلك في العبارتين التاليتين:

الف) النبأة في قوله عليه السلام: وكيف يراعي النبأة... والنبأة الصوت الخفيّ، وأراد منها صوته عليه السلام، حيث وازنها مع الصيحة في قوله عليه السلام: من أصمته الصيحة، والصيحة الصوت الجليّ، وأراد منها نداء اللّه تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله، وهذا هو الأدب الاسلامي، حيث جعل دعوته الى الحقّ خفية (خافتة) مقابل الدعوة النبوية الكبرى التي عبّر عنها بالصيحة(العظمى)، فجعل لكلّ واحد منهما مقاماً خاصاً به يستوجب التوازن في الكلام، وإلاّفسيكون الخلل واضحاً في المعنى.

ب) قوله قوله عليه السلام : وقر سمع... وقوله عليه السلام: رُبط جنان...فالأوّل دعاء ضد الأعداء، والثاني دعاء لأصحاب الايمان، وبهما يتمّ التعادل في البيان، والسيطرة على الطرفين من الموالي والأعداء.

٣. الحصر: قوله عليه السلام : بنا اهتديتم... بنا أفجرتم... حيث خصص الهداية والدخول في النور والايمان بآل محمد صلى الله عليه وآله فقط.

٤. اسلوب المبني للمجهول: العبارتان ١- وُقر سمع... ٢- رُبط جنان... ان استخدام الفعل المجهول في النصوص له دلالالته الخاصة، منها الأعراض ،ومنها الشهرة ومنها... وما هذا الاعراض هنا عن ذكر الفاعل الاّ لغرض الايجاز في البيان، ومن جهة ثانية له هدف آخر ألا وهو التحقير للفاعل في الاولى، والتعظيم

لشأن الفاعل في الثانية، واخيراً جاء الفعلان بصيغة الماضي لتقرير ان الفعل واقع لا محالة، فاكرم بهما من بلاغة.

٥. **صور من الاستدلال:** احياناً يمدّ الخطيب يد العون في خطابه إلى البرهان والاستدلال لاقناع الجمهور، أو لاقتضاء الموقف أو... حتى يتم التسليم والرضى من قبل الجماهير بأحسن الاشكال، فانظر الى هذه العبارة: وكيف يُراعي النبأة من أصمّته الصيحة، ففي الكلام برهان قاطع وردّ جازم على عدم قبول النصائح من قبل الضالين، ثم انظر الى العبارة الثانية: من وثق بماء لم يظمأ، دليل اقناعي آخر يعرضه على الجماهير الحاشدة مخاطباً ايّاهم ان وثقتم بي وسكنت نفوسكم اليّ، فانتم كمن وثق بالماء، فلا يخاف الظمأ، وبذلك يكون المخاطب مرتاح الباطن والخاطر.

٦. **الموازنة:** «هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن»[١]، فيعطي موسيقى خاص للخطبة، وتقع موضع الحسن من النفس، تجلب انتباه السامع، فانظر اليها في الفقرتين التاليتين:

الف) بنا اهتديتم في الظماء، وتسنمتم ذروة العلياء، فان الكلمتين النبأة والصيحة على وزن واحد أيضاً.

٧. **العنصر الايقاعي:** فانه متجل في الفواصل المقفاة في الخطبة من الظلماء ـ العلياء، الواعية ـ الصيحة، والقسم الآخر من الخطبة جاء على شكل نثر مرسل معروف لدى الجميع.

٨. **بين الايمان والهداية:** «الهدى يعد أصل الايمان ملازم لارتقاء درجة الايمان الذي فيه اهتداء الانسان إلى كلّ ما ينتهي إلى رضوان اللّه تعالى»[١]

---

١. المثل السائر، ج١، ص٢٧٢.

حيث قال سبحانه: أنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى (الكهف، ١٣)، فلو قال بنا آمنتم لما حصلت منها الهداية، فانك لتجد الروعة في هذا الكلام بارزاً.

٩. فنّ متفرد: «أمامنا الآن نصّ فنيّ تفرّد به الامامعليه السلام من حيث النوع الأدبي الذي ينتسب إليه هذا النص... وبالرغم من أنّ النتاج الأدبي المعاصر يألف شكلاً فنيّاً يصطلح عليه «قصيدة النثر» وهو شكل فنيّ نعدّه من أحدث الصياغات التي انتهى اليها الشعر الحديث الذي بدأ بالتحرّر من القصيدة العموديّة الى ما يُسمّى بـ«الشعر المنثور» الذي اقتبسه العرب من الاوربيين في القرن الماضي، الى انبثاق ما يسمّى بـ «الشعر الحرّ» الذي اقتبسه العرب من الاوربيين أيضاً في منتصف القرن الحالي، الى انبثاق ما يُسمّى بـ«قصيدة النثر» التي اقتبسها العرب من الاوربيين...

حيث يعدّ هذا اللون من الشعر المتحرر من الوزن أيضاً قمة ما وصلت إليه التقنية الشعرية المعاصرة، حيث يُعوّض عن الايقاع الخارجي بـ«ايقاع داخلي»، وحيث تصاغ العبارة بنحو مضغوط ومنتقى، وحيث تصاغ الفكرة وفق رموز مكثفة مركّزة...

كلّ هذا يمكن أن يتبينه الملاحظ الأدبي، حينما يقف عند النص الذي قدّمه الامام عليعليه السلام، فهو مقسّم الى مقاطع متفرقة... كلّ مقطع يتناول فكرة مركّزة... كلّ مقطع تنظمه صورتان أو ثلاث... كل صورة تصاغ وفق عبارة مضغوطة منتقاة... كل عبارة مشحونة بـ«رموز»، لكنه في الحصيلة النهائية للنص يجسّد نقاطها التي تبدأ منها، وتنتهي إلى المركز العام الذي تصبّ فيه فكرة النص...

---

١. الميزان، ج١٣، ص٢٥٠.

وجاءت الصياغة في لغة فنية تمتزج فيها «الذات والموضوع»، «المرارة أو الشكوى: مع شموخ الايمان» بنحو مدهش ومثير وطريف»[1].

التحليل الاعرابي

بنا: جار ومجرور متعلق بـ«اهتديتم».

سمعٌ: نائب فاعل مرفوع بالضمة.

كيف: اسم استفهام للتعجب، مبني على الفتح، منصوب محلاً، حال.

بصرنيكم: الياء مفعول به اول، والكاف مفعول به ثانٍ.

حيث: ظرف مكان مبني على الضمّ، وهي مضافة والجملة بعدها مضافة إليه.

خيفة: مفعول به، منصوب.

مَن: اسم شرط مبني، مرفوع محلاً، مبتدأ.

ولم يظمأ: الجملة في محل رفع خبر.

وجملتا الشرط والجواب في محل رفع خبر.

---

١. البستاني، تاريخ الأدب العربي، ص٢١٣.

الدرس الثالث

النور المبين

قال أميرالمؤمنين علي عليه السلام واصفاً القرآن في آخر الخطبة رقم ١٩٨[1]:

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ

نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ،

وَسِرَاجاً لا يَخْبُو[١] تَوَقُّدُهُ،

وَبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ،

وَمِنْهَاجاً[٢] لا يُضِلُّ نَهْجُهُ[٣]،

وَشُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ،

وَفُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ،

وَتِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ،

وَشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ،

وَعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ،

وَحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ،

فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ[٤]،

---

١. صبحي الصالح،ص٣١٥.

وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ،
ورِيَاضُ[٥] الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ[٦]،
وأَثَافِيُّ[٧] الإِسْلامِ وبُنْيَانُهُ،
وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ[٨]،
وبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ[٩] الْمُسْتَنْزِفُونَ،
وَعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا[١٠] الْمَاتِحُونَ[١١]،
ومَنَاهِلُ[١٢] لا يَغِيضُهَا[١٣] الْوَارِدُونَ،
ومَنَازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ،
وأَعْلامٌ لا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ،
وآكَامٌ[١٤] لا يَجُوزُ عَنْهَا[١٥] الْقَاصِدُونَ،
جَعَلَهُ اللّه رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ،
ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ،
ومَحَاجَّ[١٦] لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ،
ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ،
ونُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ،
وحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ،
ومَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ،
وعِزّاً لِمَنْ تَوَلاّهُ،
وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ،
وهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ،
وعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ[١٧]،

وبُرْهَاناً لِمَنْ تكَلَّمَ بهِ،

وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بهِ،

وَفَلْجاً[١٨] لِمَنْ حَاجَّ بهِ[١٩]،

وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ،

وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ،

وَآيَةً لِمَنْ توَسَّمَ[٢٠]،

وَجُنَّةً[٢١] لِمَنِ اسْتَلْأَمَ[٢٢]،

وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى،

وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى[٢٣]،

وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى[٢٤].

فقه اللغة

[١]. خبت النار: انطفأت.

[٢]. المنهاج: الطريق الواسع.

[٣]. النهج: هنا السلوك، أي لا يكون من سلوكه إضلال.

[٤]. بحبوحة المكان: وسطه.

[٥]. الرياض: ج روضة، وهي مستنقع الماء في رمل أو عشب.

[٦]. الغُدران: ج غدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل.

[٧]. الأثافيّ: ج أثفية: الحجر يوضع عليه القدر، أي عليه قام الاسلام.

[٨]. غيطان الحق: ج غاط أوغوط، وهو المطمئن (المنخفض) من الأرض.

[٩]. لا ينزفه: لا يفني ماؤه ولا يستفرغه المغترفون.

[١٠]. لا ينضبها: لا ينقصها.

[١١]. الماتحون: ج ماتح: نازع الماء من الحوض.

[١٢]. المناهل: مواضع الشرب من النهر.

[١٣]. لا يغيضها: من غاض الماء أي نقص.

[١٤]. آكام: ج أكمة، وهو الموضع يكون أشد ارتفاعاً ممّا حوله وهو دون الجبل.

[١٥]. يجوز عنها: يقطعها ويتجاوزها.

[١٦]. المحاجّ: ج محجة، وهي الجادة من الطريق.

[١٧]. انتحله: دان به، وجعله نحلته.

[١٨]. الفلج: الفوز والظفر.

[١٩]. حاجّ به: خاصم.

[٢٠]. توسّم: تفرّس، قال تعالى: انّ في ذلك لآيات للمتوسمين (الحجر، ٧٥).

[٢١]. جنّة: ما يتقى به من الضرر.

[٢٢]. استلأم: أي لبس اللأمة، وهي الدرع أو جميع أدوات الحرب، أي ان من جعل القرآن لأمة حربه لمدافعة الشبه كان القرآن وقاية له.

[٢٣]. وحديثاً لمن روى: سمّى اللّه القرآن الكريم حديثاً فقال تعالى: اللّه نزل أحسن الحديث (الزمر، ٢٣).

[٢٤]. قضى: حكم وفصل.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

لم أجد من الشرّاح والمترجمين (التالية أسمائهم) من تعرض لغرض الخطبة، منهم ابن أبي الحديد في شرحه ومحمد جواد مغنية (في ظلال نهج البلاغة) وفي توضيح نهج البلاغة للسيد محمّد الشيرازي، وترجمة الدكتور شهيدي، وترجمة السيد دين پرور، وترجمة الدكتور مبشري، وترجمة فيض الاسلام، وترجمة السيد محمّد جعفر امامي ومحمد رضا آشتياني، بل اكتفوا بأهم الموضوعات التي ذكرتها الخطبة كما صنع صبحي الصالح.

٢. شرح النص

هذا هو القسم الاخير من الخطبة رقم ١٩٨ من نهج البلاغة، ويحتوي على ذكر خصائص القرآن الكريم وأهدافه المقدسة.

فالقرآن نوره سرمدي، مصابيحه منيرة، وشعلته متّقدة، وليس لأشعته ظلاماً، علومه جمة، مناهجه واضحة، أدلته قاطعة، بُنيانه مرصوص، شفاءه محتوم، أنصاره أعزاء، أتباعه منصورون.

فهو مركز الايمان، وساحته الكبرى، مصدر العلوم ومشرعها، وجداول العدل وحياضة الجميلة، وأساس الدين وعمارته، وأنهاره الجارية، فهو بحر عميق، وعين لا ينضب ماءه للشاربين، ومنزل للمهتدين، وعلم لأصحاب اليقين، وامام لا يحيد عنه القاصدون.

أهدافه سامية، يسقى العلماء، ويُنعش خواطر الفقهاء، يطرقه الصلحاء، ويشفي الأمراض، ويُنير الظلام، لا تنفصم عروته، شديدة معاقله، يُعزّ مواليه،

ويؤمن الواردين فيه، يهدي المأتمين، ذريعة لمعتنقيه، دليل لأرباب الكلام، غالب على الخصماء، نصر وفوز للمستدلين به، ومركب للعاملين، وآية للمتفرسين، ووقاية من الشرور، وعلم للواعين، وحديث للراوين، وقضاء عدل للحاكمين. ولابدّ أن أختتم الكلام بقوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات (الاسراء، ٩).

اعتراف بالعجز: لقد اعترف الشيخ محمد جواد مغنية بعجزه لما قال في شرحه ج٣: ١٩٣، من البداهة ان مجال التفسير والتحليل هو للقضايا العقلية والفلسفية لا الخطابات الحماسية، ومن أجل هذا نكتفي من الكلام بما يشبه التعليق كما فعل ابن أبي الحديد...

والحال انّ عناصر الأدب من عاطفة وخيال و... تنتشر في ربوع الكلام كما سنرى بعد قليل.

٣. الأفكار

تحوم حول وصف القرآن الكريم كما وصفه العزيز في كتابه، ثم تميزت هذه الأفكار أنها داخلة في جميع النواحي البشرية من اجتماعيّة وسياسيّة وعقائديّة وثقافيّة كما ترى ذلك واضحاً في الفقرات التالية: انه سلم، أي ليس بحرب، وانه معقل أي حماية ومحافظ لأصحابه وانه علم لأصحاب الفهم، وانه الحكم والقضاء، وانه لا يخذل أعوانه وأصدقائه وانه الهادي وانه النور وانه... وانه...

وهي تدور على محاور ثلاثة، الاولى: مميزات القرآن الكريم، والثانية صفات القرآن المجيد، والثالثة: أهداف القرآن العظيم.

٤. العاطفة

تجلّت عملية العاطفة في هذا النص عن طريق زرع الشوق للقرآن الكريم في قلوب الحاضرين، وتحبيبهم إليه وذلك لما قال عليه السلام للمخاطبين: ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، فالنور يعشقه الجميع وتجتمع حوله الجماهير فراراً من الظلام والجهل والشر و... و... لأنّه حياة البشر، وامتاز نور القرآن عن بقية الأنوار بعدم الخمود ما بقت السموات والأرض، وكذلك ترى تجيب آخر لهواة الحقّ ألا وهو حبّ الاستطلاع الذي أودعه اللّه في نفوس الشعوب وذلك حينما قال عليه السلام : وبحراً لا يُدركُ قعره، فدخل إلى نفوس المستمعين عن طريق حبّ الاستطلاع مثيراً العاطفة عندهم، اذ ان النفس ترغب ان تطلع على المجهول وان تعرضت للمخاوف والاخطار، ولربّما غامر الانسان بنفسه وحياته في المهالك لاكتساب الأرقام القياسية،فما أجدر بالانسان أن يخوض في غمار بحر القرآن الشريف لاكتساب العلوم واحياناً الأرقام القياسية و... ثم عرّج على العاطفة بما يثير الأعجاب لدى الناس وذلك لما قال عليه السلام: بأنه شفاء وانه عزّ للناس،أو بكلامه عليه السلام لا ينزفه المستنزفون، ولا ينضب مائه أبداً، أو بقوله عليه السلام انه ساقي عطش العلماء، ففيه نوع من اثارة الأحاسيس والمشاعر اتجاه الأعجاب بالقرآن ثم لو نظرنا بدقة إلى الفقرات الاخرى من الكلام نشاهد هذا الأعجاب يتصاعد شيئاً فشيئاً حتى يدرك الانسان اعجاز القرآن عن طريق اثارة العجائب فيه.

٥. عنصر الخيال

الكلام كلّه مرتكز على الحس الذي هو أقرب الطرق الى الوجدان فالصور جاءت مبنية على التشبيه والاستعارة، فالكتاب نور وسراج ومنهاج... ما هي الاّ

من باب التشبيه البليغ، وأما قولهعليه السلام معدن الايمان وينابيع العلم و... و... استعارات تصريحيّة أصليّة مرشّحة، وينظر ابن أبي الحديد في ج٢: ٥٤٨، الى قولهعليه السلام ومطية لمن أعمله، استعارة وكما ان المطية تنجي صاحبها اذا اعملها وبعثها على النجاء، فكذلك القرآن اذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى أعماله اتباع قوانينه والوقوف عند حدوده.

٦. الاسلوب

استمدت الخطبة مفرداتها من القرآن المجيد (بما في هذه الكلمة من معنى) فالقرآن الكريم سمّى نفسه بأسماء مختلفة في مواطن عديدة منها:

١. الكتاب: قوله تعالى: حم والكتاب المبين (الدخان، ٢).

٢. نوراً: قوله تعالى: وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً (النساء، ١٧٤).

٣. فرقاناً: قوله تعالى: نزّل الفرقان على عبده (الفرقان، ١)، والفرق بينها وبين القرآن «أنّ القرآن يفيد جمع السور وضمّ بعضها إلى بعض والفرقان يفيد انه يفرّق بين الحق والباطل والمؤمن والكافر»[1].

٤. تبياناً: قوله تعالى: ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء (النحل، ٨٩).

٥. شفاء: قوله تعالى: وننزّل من القرآن ما هو شفاء (الاسراء، ٨٢).

٦. حقاً: قوله تعالى: ويحق اللّه الحقّ بكلماته (يونس، ٨٢).

٧. حبلاً: قوله تعالى: واعتصموا بحبل اللّه (آل عمران، ١٠٣).

٨. وثيقاً عروته: قوله تعالى: فقد استمسك بالعروة الوثقى (البقرة، ٢٥٦).

---

١. الفروق اللغوية، ص٤٤.

٩. هدًى: قوله تعالى: هدًى ورحمة للمؤمنين (يونس، ٥٧).

١٠. برهاناً: قوله تعالى: يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم[١].

١١. شاهداً: قوله تعالى: أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه (هود، ١٧).

١٢. العلم: قوله تعالى: من بعد ما جاءك من العلم (البقرة، ١٤٥).

١٣. الحديث: قوله تعالى: اللّه نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني (الزمر، ٢٣).

ومن ناحية أُخرى اتخذ الامام علي عليه السلام اسلوب النفي والايجاب منطلقاً في بيانه مبتدأ بالنفي مازجاً به الايجاب منتهياً به الكلام، ففي الخطبة قطبان موجب وسالب تضيء الطريق للسامعين، فما أجمله من أسلوب. وأمّا الكلام المنفي احتوى على ثماني عشرة فقرة، والموجب على أربع عشرة فقرة.

وقفة مع الكلمات

أولاً: النفي يدور بين «لا» و«ليس» فيا ترى ما الفرق بينهما؟ اعلم انّ «لا» تفيدنفي الاستقبال و«ليس» تفيدنفي الحال. وهذا يعني انّ القرآن ينفع المسلمين في وقتهم الراهن وفي مستقبلهم القادم، فأكرم بهذا القرآن من كتاب.

ثانياً: ثمّ انظر إلى الفارق بين الاطفاء والخمود فسوف تتمتع بالمعاني التي احتوتها الكلمتان، فالاطفاء يتمّ عادةً بالنفخ عن طريق الفم كما يقول اللّه تعالى «يريدون ليطؤا نور اللّه بأفواههم» (الصف، ٨)، والهدف هو انهم يقصدون أمراً

---

١. وقيل البرهان ما يقصد به قطع حجة الخصم فارسي معرب وأصله بران أي أقطع ذلك ،نفس المصدر، ص ٥٥.

يتوصلون به إلى اطفاء نور اللّه، وبعبارة أُخرى انّ الأعداء مترصدون من الخارج لإخماد نور اللّه بما يملكون من حول وقوة، ويعد هذا الأمر بمنزلة العوامل الخارجية للقضاء على القرآن الكريم، ومن جهة أُخرى هناك عوامل داخلية عبّر عنها بقوله عليه السلام : وسراجاً لا يخبو توقّده والخبأ هو اخماد اللهيب دون الجمرة، قال تعالى: كلّما خبت زدناهم سعيراً (الاسراء، ٩٧)، ويبدو لي من هذا الكلام العظيم انّ القرآن الكريم لا يتأثر بشيء من العوامل الداخلية كما هو الحال في ماهية الأشياء حيث تتآكل على مرّ الأيام، ولا بالعوامل الخارجية كما هو المشهود في ظواهر الأشياء، فهو النور المبين وان تضائل احياناً، ولكنّه سيبقى نوراً إلى الأبد.

ثالثاً: استخدم أميرالمؤمنين عليه السلام كلمتي «النور والسراج» في هذه الخطبة مستعيناً بقوله تعالى: وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً (الفرقان، ٦١)، فالسراج للشمس المضيئة نهاراً، والإنارة للقمر ليلاً، وهذا يعني ان القرآن الكريم يُشع أنواره ليلاً ونهاراً وإلى الأبد، فما أجمله من تعبير لهذا الكتاب العظيم.

رابعاً: استعمل الامام علي عليه السلام الفعل المضارع في ربوع هذه الخطبة من مثل: لا تطفأ ـ لا تخمد ـ لا يضلّ ـ لا تخذل... ولا يُغيضها ـ لا ينزفه ـ لا يعمى...

فالمضارع يدلّ على الحال والاستقبال، وهذا يعني ان القرآن سيظل مستمراً في هدايته وتشريعه وأحكامه و... و...

خامساً: قوله عليه السلام : فهو معدن الايمان...، لو تتبعنا المخاطبين في القرآن الكريم سنرى انّ المؤمنين هم المعنيون بالخطاب دون الآخرين، لقد خاطب القرآن المجيد المؤمنين في تسعين موطن، والحال جاءت الخطابات الاخرى أقلّ عدداً، فعلى سبيل المثال جاء الخطاب للناس عشرين مرّة، ويا اولى الألباب أربعة

مرّات، والكافرون مرّة واحدة،... فانك لن تجد غلواً في كلام أميرالمؤمنينعليه السلام ، لمّا قال أنّ القرآن معدن الايمان وساحته الكبرى.

سادساً: استخدم الامامعليه السلام في هذه الخطبة الجمع أمثال: ينابيع ـ عيون ـ رياض ـ اثافيّ ـ منازل ـ مناهل... فهي تدلّ على الكثرة، ففي القرآن الزيادة فلا يعروه العدم، وهكذا بالنسبة إلى اللذين يخوضون في القرآن بصورة جماعات فهم لا يشعرون بقلّة المتاع فيه بل يجدون ما يُعينهم في حياتهم العلميّة، فانّهعليه السلام استخدم ألفاظ: العلماء ـ الفقهاء ـ السائرون ـ المستنزفون ـ الواردون....، مشيراً إلى كثرة المستفادين من القرآن.

فلو تتبعنا في هذا المجال لبعض الكلمات الاخرى سنجد لها مدلولات اُخرى تزيد الجمال جمالاً.

التحليل الاعرابي

كلمة «نوراً» حال من الكتاب أي منيراً، وجملة «لا تطفأ...» صفة للنور.

السجع

لو أعدنا النظر في الخطبة مرّة اُخرى لوجدنا فواصلها متساوية الأجزاء وهي مكوّنة من أربعة ألفاظ في أغلب الاحيان، وهو من السجع القصير «وكلّما قلّت الألفاظ كان أحسن، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً وأبعده متناولاً... لأنّ المعنى اذا صيغ بألفاظ قصيرة

عزّ مُواتاة السجع فيه، لقصر تلك الألفاظ، وضيق المجـال في استجلابه»[1]، فاقرأ النص ثانية متلذّذاً بسجعه.

الترصيع

«هو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأوّل مساوية لكلّ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية،...، وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأوّل مخالفاً لما يقابله من الفصل الثاني»[2].

فانظر إلى الأمثلة التالية من الخطبة:

١. قوله عليه السلام: نوراً لا تُطفأ مصابيحه، وقوله عليه السلام بحراً لا يدركه قعره، فقابل بين النور والبحر وزناً وقافية، وبين لا تطفأ ولا يدرك في الوزن فقط وبين مصابيحه وقعره في القافية فقط.

٢. قوله عليه السلام: منهاجاً لا يُضلّ نهجه، وقوله عليه السلام وفرقاناً لا يخمدُ برهانه، فقابل بين منهاج وفرقان في الوزن فقط وبين لا يضلّ ولا يخمد في الوزن فقط وبين نهجه وبرهانه في القافية فقط.

٣. قوله عليه السلام: مناهل لا يُغيضها الواردون وقوله عليه السلام منازل لا يضلّ نهجها المسافرون، فقابل بين مناهل ومنازل وزناً وقافية، وبين لا يُغيضها ولا يضلّ نهجها قافية فقط وبين [الواردون والمسافرون] وزناً وقافية.

---

١. المثل السائر، ج١، ص٢٣٥.

٢. نفس المصدر، ج١، ص٢٥٩.

٤. قوله عليه السلام: اعلامٌ لا يعمى عنها السائرون وقوله عليه السلام وآكامٌ لا يجوز عنها القاصدون، فقابل بين أعلام وآكام في الوزن والقافية، وبين لا يعمى عنها ولا يجوز عنها في القافية فقط، وبين السائرون والقاصدون في الوزن والقافية.

٥. قوله عليه السلام: علماً لمن وعى، وقوله عليه السلام حكماً لمن قضى، فقابل بينهم وزناً وقافية. ولو دققنا النظر في الخطبة لوجدنا النص مرصعاً بكامله.

الدرس الرابع

صفات المتقين[1]

قال الامام علي أميرالمؤمنين عليه السلام بعد حمد اللّه والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّه ـ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ـ خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خلَقَهُمْ؛ غَنيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهمْ؛ لِأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، ولَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصَادُ[١]، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ[٢] عَمَّا حَرَّمَ اللّه عَلَيْهِمْ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ[٣] وَلَوْ لا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللّه عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ.

---

١. وهي الخطبة رقم ١٩٣ من نهج البلاغة، لصبحي الصالح.

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَـاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَـارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيـدُوهَا، وَأَسَـرَتْهُمْ فَفَـدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً[٤]، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ[٥] بِهِ دَوَاءَ دَائِهِـمْ. فَـإِذَا مَـرُّوا بِآيَـةٍ فِيهَـا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا[٦] طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَـا شَـوْقاً، وَظَنُّـوا أَنَّهَـا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ[٧]. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ[٨] جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا[٩] فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَـى أَوْسَاطِهِمْ[١٠]، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ[١١] وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ[١٢] إِلَى اللّه تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ[١٣].

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَـدْ بَـرَاهُمُ الْخَـوْفُ بَـرْيَ الْقِدَاحِ[١٤]، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِـنْ مَـرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا[١٥]. وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ؛ لا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيـرَ. فَهُـمْ لِأَنْفُسِـهِمْ مُتَّهِمُـونَ، وَمِـنْ أَعْمَـالِهِمْ مُشْفِقُونَ[١٦]، إِذَا زُكِّيَ[١٧] أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِـي! اللَّهُـمَّ لا تُؤَاخِـذْنِي بِمَـا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ[١٨]، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً[١٩] فِي غِنًى وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً[٢٠] فِي فَاقَةٍ وَصَبْراً فِـي شِـدَّةٍ، وَطَلَبـاً فِـي

حَلال، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لا يَبْقَى يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَله، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ مَنْزُوراً[٢١] أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ[٢٢]، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ[٢٣]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلازِلِ[٢٤] وَقُورٌ[٢٥] وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ لا يَحِيفُ[٢٦] عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ[٢٧]، وَلا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلا يَشْمَتُ[٢٨] بِالْمَصَائِبِ، وَلا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللّه هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِاخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قَالَ: فَصَعِقَ هَمَّامٌ[٢٩] صَعْقَةً[٣٠] كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا.

[١]. ملبسهم الاقتصاد: ملبس مصدر ميمي، بمعنى ثيابهم ليست غالية ولا رخيصة.

[٢]. غضوا أبصارهم: الغض النقصان من الطرف والصوت ، قال تعالى: واغضض من صوتك (لقمان، ١٩)، وقال أيضاً: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم... (النور، ٣٠).

[٣]. نُزّلت أنفسهم منهم بالبلاء: أي انهم اذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل في اللّه، كأنهم كانوا في رخاء لا يجزعون ولا يهنون، واذا كانوا في رخاء كانوا من خوف اللّه وحذر النقمة، كأنهم في بلاء لا يبطرون ولا يتجبرون.

[٤]. الترتيل: التبين والايضاح.

[٥]. استثار الساكن: هيّجه. وقارئ القرآن يستثير به الفكر الماحي للجهل.

[٦]. ركن الى: مال إليه وسكن ووثق به.

[٧]. نُصب أعينهم: ظاهراً قائماً غير مخفي.

[٨]. زفير النار: صوت توقّدها.

[٩]. شهيق النار: الشديد من زفيرها، كانه تردد البكاء.

[١٠]. حانون على أوساطهم: من حنيت العود: عطفته، يصف هيئته ركوعهم وانحنائهم في الصلاة.

[١١]. مفترشون لجباههم: باسطون لها على الأرض.

[١٢]. يطلبون إلى اللّه تعالى: يدعونه.

[١٣]. فكاك رقابهم: خلاصها من النار.

[١٤]. القداح: ج قِدْح (بالكسر) وهو السهم قبل أن يُراش، وبراه: نحته، أي رقّق الخوف أجسامهم كما تُرقّق السهام بالنحت.

[١٥]. خولط في عقله: مازجه خلل فيه، والأمر العظيم الذي خالط عقولهم هو الخوف الشديد من اللّه.

[١٦]. مشفقون: خائفون من التقصير.

[١٧]. زُكّي أحدهم: مدحه أحد الناس.

[١٨]. الدين: يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة، قال تعالى: ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه للّه وهو محسن (النساء، ١٢٥).

[١٩]. قصداً: أي اقتصاداً.

[٢٠]. التحمّل: التظاهر باليسر، عند الفاقة أي الفقر.

[٢١]. منزوراً: قليلاً.

[٢٢]. حريزاً: حصيناً.

[٢٣]. الفُحش: القبيح من القول.

[٢٤]. الزلازل: الشدائد المرعدة.

[٢٥]. الوقور: الذي لا يضطرب.

[٢٦]. الحيف: الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين.

[٢٧]. لا ينابز بالألقاب: لا يدعو باللقب الذي يكره ويشمئز منه.

[٢٨]. لا يشمت: الشماتة الفرح ببليّة من تعاديه ويعاديك، يقال شمت به فهو شامت وأشمت اللّه به العدو، قال «فلا تشمت بي الأعداء» (الأعراف، ١٥٠).

[٢٩]. هو همام بن شريح بن يزيد بن مرّه بن عمرو بن جابر بن يحيي بن الأصهب بن كعب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذهل بن مران بن

سيفي بن سعد العشيرة.وكان همام هذا من شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام وأوليائه وكان ناسكاً عابداً.

[٣٠]. صعق: أُغمي عليه ومات، قال تعالى: فصعق من في السموات والأرض (الزمر، ٦٨).

التحليل الأدبي

١. المناسبة

قال الشريف الرضي رحمه الله: روي أنّ صاحباً لأميرالمؤمنين عليه السلام يقال له همام[١] كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أميرالمؤمنين، صف لي المتقين حتّى كأنّي أنظر إليهم. فتثاقل[٢](أبطأ)عليه السلام عن جوابه ثمّ قال: يا همام اتّق اللّه وأحسن ف«إنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون» (النحل، ١٢٨). فلم يقنع همام بهذا القول حتّى عزم عليه[٣] (أقسم الامامعليه السلام على ذلك).

٢. شرح النص

لابدّ قبل الشرح أن أقول: انّ آيات التقوى تجلّت في هذه الخطبة الرائعة للفنّ الكلاميّ، فمن مشاهد عرفانية ومناظر عملية للمتقين، إلى ألواح فنيّة بديعة مزدانة بالثقافة القرآنيّة، مستنيرة بالسيرةالنبويّة، محاطة بالعلم والأدب، وإلى ركائز وأعمدة التقوى.

---

١. توجد ترجمته في شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٥٢٨.

٢. من أراد علل ذلك فليراجع شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٥٢٨ .

٣. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص٣٠٣.

مشاهدة فريدة لا يأتي عليها إلاّ من اكتسب الدرجات العُلى من مصدره الفيّاض، القرآن العظيم، سائراً في ربوعه شارباً من معينه، ملتذاً من مفاهيمه، عاملاً بيقينه، مرشداً لأهل التقوى بقوله: «فمن أخذ بالتقوى عزبت (غابت) عنه الشدائد بعد دنوّها، واحلولت له الامور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، واسهلت له الصعاب بعد إنصابها (الاتعاب)، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدّيت (عطفت) عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها (غار الماء في الأرض)، ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها[1] (المطر القليل)»، روائع وجمال لا يمكن وصفها إلاّ لمن عمل بها، فاللسان قاصر واليد عاجزة عن التبيان لما يرى الانسان من هذه المشاهد الشريفة والروائع العجيبة، وأمّا الشرح: فالخطبة تحتوي على مقاطع مختلفة ففي:

المقدمة: يذكر فيها صفات ثلاثة للبارئ تعالى، أولاً: غناه عن طاعة المخلوقين وآمناً من ذنوبهم، لأنه القائل: ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فانّ اللّه لغنيّ حميد (ابراهيم، ٨). ثم يشير إلى الصفة الثانية من تقسيمه لأرزاق العباد، حيث يقول عزّ من قائل: اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (الرعد، ٢٦). وأخيراً الصفة الثالثة: أنّ اللّه فضّل بعض عباده على الآخرين في الرزق حيث يقول تعالى: ولا تتمنّوا ما فضّل اللّه به بعضكم على بعض (النساء، ٣٢). ثم يعرّج إلى ذكر فضائل أصحاب التقوى، وهي ما تجلّت في ظاهرهم من الصفات العامة من صواب المنطق والكلام، والملابس المتوسطة ثمناً والمشي المتواضع و... و... و... إلى قوله عليه السلام وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها وهي تسع عشرة فضيلة فالكلام واضح ولكن اشرحُ بعض العبارات: عظم الخالق في أنفسهم... فما دونه سراب وهباء،

١. نفس المصدر، خ١٩٨، ص٣١٣.

وقوله عليه السلام فهم والجنّة كمن قد رآها... وهم والنـار... فيـه مكاشـفة ويقـين كمـا صرّح عليه السلام بقوله: لو كشف عنّي الغطاء مـاازددت يقينـاً، وأمّـا قولـه عليه السلام: قلـوبهم محزونة و... و... يدل على موقفهم من أنفسهم، وامّا موقفهم من الدنيا انهم اتّخذوا من الصبر سبيلاً فربحت تجارتهم. ثم يصف حالهم في الليل والنهار وأمّا لـيلاً فهـم مع القرآن تلاوةً وفهماً وتعاملاً، شوقاً إلى الجنّة وخوفـاً مـن النـار، قيامـاً ركّعـاً وسجّداً، طالبين من المولى تعالى النجاة من الجحيم.

وأمّا صفتهم نهاراً: فهم أصحاب علم وحلم واحسان وتقوى، نحفاء الجسوم من شدّة الخوف، يظن الناس بأنّهم مصابين في عقولهم، لا يرضـون بالقليـل مـن العمل لأنّهم أصحاب جهاد ونضال ولا يستكثرونه، وكما يقول الشاعر:

اذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

وبقيّة العبارات مفهومة المعنى.

وأخيراً يعرّج ذاكراً أخلاق و سيماء أهل التقوى، وهو الفصل الأخير من هذه الخطبة. علامات كثيرة، تبدو لأوّل وهلة بسيطة، ولكن لا يمكـن الوقـوف عليها إلاّ بالمثـابرة والممارسـة، ولا يتكسـبها إلاّ أصـحابها، فهـي منشـأ الخيرات والبركات للانسان، وهي مصدر غناه وقدرتـه، وهـي الأخـلاق الفاضلة الحميدة التي من أجلها بُعث الرسول صلى الله عليه وآله، ثمّ انّ هذه العلامـات لهـا الطابع العملي والتطبيقي، سواءً كانت في الحياة الفردية أو الاجتماعيّة. فما أشدُّ حاجتنا اليوم إلى هذه الخصال، والتمسك بها حتّى يتمّ التطور العلمي والثقافي والاقتصادي و... و... بصورة أسـرع وأكمـل. هـذا وان الألفـاظ معانيها واضحة، ومعالمها بيّنة وآثار القرآن الكريم عليها بادية.

٣. الأفكار

بما انّ الموضوع هو التقوى، فجاءت الأفكار تحوم في المجالات التالية؛ صفات اللّه من الغنى والرزق و...، ذكر فضائل المتقين الظاهرة والبارزة عندهم، ثم وصف حالهم ليلاً ونهاراً، وأخيراً ذكر صفاتهم وعلاماتهم. فانك لترى وحدة الموضوع جاءت متناسقة الأجزاء، متلاحمة المقاطع، متواصلة المعاني، وعلى هذا بنى النقاد رأيهم.

٤. العاطفةوالخيال

لابدّ لنا الوقوف قليلاً عند هذين العنصرين اللذين يشكل أحدهما الوجه الداخلي للأدب (العاطفة)، والآخر الوجه الخارجي له (الخيال) وذلك لأنّنا وجدنا ان همّام استسلمت روحه الشريفة في نهاية المطاف لربّ العالمين. اذن، فيا ترى ما هو السرّ وراء ذلك؟ هذا ما سنقف عليه بعد قليل إن شاء اللّه.

وقبل الخوض في صلب الموضوع أودّ أن أُشير إلى بعض النقاط التي تُنير لنا السبيل، وهي:

١. امام الأدب: لا شك انّ الامام علي عليه السلام من أشهر الخطباء، يؤاتيه الكلام طوعاً ويتذلّل القول بين يديه، ويستعين بالحجج من دون تكليف، وانه عليه السلام أرحب الخطباء باعاً، وأعلاهم منزلة وأمضاهم لساناً، ويعلو كلامه الأنوار القدسيّة الالهيّة، وهالات ضوئيّة من الجمال النبوي صلى الله عليه وآله، وهو بحق ينبوعاً مترعاً يمدّ الحياة الأدبيّة بالتقدّم والازدهار، وكذلك لا يشكّ به عليه السلام بأنّه امام الأدب كما تزعم الامامة في الدين والسياسية ومعجزته «نهج البلاغة».

٢. الخيال العبقري «وأما الخيال في نهج البلاغة فمديد وسيع، خفّاق الجوانح في كلّ افق، وبفضل هذا الخيال القوي الذي حرم منه كثير من حكماء العصور ومفكري الامم، كان عليعليه السلام يأخذ من ذكائه وتجاربه المعاني الموضوعيّة الخالصة، ثمّ يطلقها زاهية متحرّكة في اطار تثبت على جنباته ألوان الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقلياً، جافاً لا يمرّ في مخيّلة عليعليه السلام الاّ وتنبت له أجنحة تقضي فيه على صفة الخمود وتمدّه بالحركة والحياة.

فخيال عليعليه السلام نموذج للخيال العبقري الذي يقوم على أساس من الواقع، فيحيط بهذاالواقع، ويبرزه ويحليه، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعه، ويصبغه بألوان كثيرة من مادته ولونه. فاذا الحقيقة تزداد وضوحاً، واذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه»[١].

٣. الأدب رسول الحياة: «ليس المطلوب من الأديب أن يقول كلاماً كيفما اتّفق ولكن المطلوب أن يكون له ميسم ذاتي، وطابع شخصي، يدمغ به كلّ عمل يخرج من بين يديه، فيلمسه القارئ في كلّ أعماله، لا في طريقة تعبيره، ولكن اولاً في شعوره،... والأديب رائد من رواد البشرية وهو رسول الحياة الى الآخرين، فهو يطلع على خفايا الحياة ما لم يطلع عليه الآخرون، يحسّها كما انبثقت أوّل مرّة من نبعها الأصيل. ووظيفة الأديب أن يفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع من وراء الحواجز والسدود. وبعض الأدباء يبدو دائم الاتصال بالنبع الكبير، اولئك هم الكبار... فالكثيرون ـ حتى من العباقرة ـ يستطيعون أن ينقلوا إلينا شعورهم باللحظات الجزئيّة والحالات النفسيّة قويّاً دافقاً يسري في شعورنا، وأن ينقلونا إلى

١. روائع نهج البلاغة، ص١٢.

عالمهم لنشاركهم مشاعرهم كأنّما نعيشها، وقد يصلوننا في بعض اللحاظت بالأزل والأبد»[1].

٤. «وأدرك عليعليه السلام ان منطق الحنان أرفع من منطق القانون وان عطف الانسان على الانسان وسائر الكائنات، إنّما هو حجّة الحياة على الموت، والوجود على العدم... ثمّ اعلم انّ الريح لا تجري إلاّ صادقة، والدماء لا تطوف العروق إلاّ بصدق، والاحياء لا يولدون الاّ بقانون صادق أمين، والصدق ضرورة حياته لا يستغني عنها أي فرد أو جماعة»[2].

٥. ونحن الآن مع الامام عليعليه السلام امام خطبته مليئة بعوالم الايمان، الايمان باللّه، الايمان بالقيامة، الايمان بالفضائل والقيم الأخلاقية، الايمان بالمشاعر الصادقة، الايمان بالأعمال الصالحة، الايمان بالمثل العليا، وكذلك نحن أمام مشاهد مليئة أيضاً بالعواطف[3] الحارّة الملتهبة من العقيدة باللّه سبحانه، فهي تشعّ طاقات حراريّة من الفضائل والمثل الأخلاقيّة تتغلغل إلى القلوب فتمنحها الحياة والولاء والاخلاص في القول والعمل.

٦. اعلم انّ مصدر العاطفة ـ كما رسمها النقاد ـ ينبع من الرهبة والرغبة والطرب والغضب. وبناءً على هذا نقول: انّ عامل الترغيب يتجلّى في قولهعليه السلام: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، فكلّ انسان صاحب كمالات لا يميل طرفة عين عن هذه الاصول الثلاثة السامية، فانك لتشعر بعامل الاتزان في هذه الاصول، فالصواب هو الحدّ الوسط بين الخطأ والخلاف، والاقتصاد

١. النقد الأدبي، ص٢٤ ـ ٢٩.

٢. روائع نهج البلاغة، ص٥٥ ـ ٦١.

٣. والخطبة عادة تستدعي تحريك الجماهير واستثارة العواطف لديهم.

هو الحدّ بين الافراط والتفريط (البخل والتبذير)، والمشي المتواضع هو الحدّ بين السرعة والبطيء. فان هذا الاعتدال تميل إليه النفوس الزكية، وتتحبب إليه، فعندها يتمّ الاستسلام بلا قيد وشرط، ثمّ أضف إلى عنصر الرغبة هذه ترى إلى جانبها صورة حية متحرّكة من النطق واللبس والمشي، ممّا يزيد حالة التأثر العاطفي لدى المستمع، فما أكرمها من صورة وعاطفة.

ثمّ انظر إلى عامل الرهبة التي من أعلى منازل الخوف لدى العرفاء والتي تجلّت في قولهعليه السلام: غضوا أبصارهم عن الحرام، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، فالخشية بادية على أصحاب التقوى وهي التي مدحها ربّ العباد قائلاً «إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء» (الفاطر، ٢٨)، فمن شدّة الخوف ابتعدوا عن كلّ حرام، فهي تنبأ عن عفة نفوسهم، وكذلك ترهب نفوسهم من عقاب اللّه، فلن يستمعوا إلاّ إلى العلم النافع، فالخوف عامل نفسي يزيد التأثير والانفعال في العاطفة ويتصاعد لهيب العاطفة لما تنضمّ إلى الصورتين المفردتين «أغضاء البصر، وايقاف السمع» فعدم التحرّك (الامساك عن الحرام) يزيد الشوق والحنان عند المستمع.

وتزداد نار الحبّ شعلةً لما يقولعليه السلام: لولاالأجل لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب،وخوفاً من العقاب... ثمّ انظر إلى قولهعليه السلام: نُزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نُزّلت في الرخاء، حيث ترى اندمجت الصورة في العاطفة اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس، عادة الانسان يستسلم للأمر الواقع عند المصائب حينئذٍ يستولي اليأس والخمول وضيق النظر عليه، ولكن الصورة التي ابدعها الامامعليه السلام على العكس تماماً، فالانسان عادة في حالة الرخاء يكون متأملاً ساعياً نشيطاً وله سعة النظر إلى الآفاق، فالصورة المتفرّدة من وراء

هذا التشبيه تكمن في المفردات التالية، حيث انك تتصوّر للرجاء ابعاد مختلفة، فالراجي صاحب أمل ولأجلها يسعى وينشط للوصول إلى الهدف ثمّ سيكتسب من وراء ذلك التجارب وسعة النظر في الامور على خلاف في حالة البلاء، فالمبتلى يرى نفسه في يأس وخمول ثمّ يتباعد عن التجارب وسيؤدي به الأمر إلى ضيق النظر في الامور، وأخيراً يؤدّي به الأمر إلى الاستسلام واليأس لما حلّ به من البلاء، فانظر إلى الجمال هذا كيف يصنع من المبتلى راجياً آملاً في حياته...

وهكذا ترى انه عليه السلام كيف جمع بين الصورة والعاطفة (الخوف والرجاء) في قوله: فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون، فلنقف قليلاً عند هذه اللفظة سنجدها تنبأعن حقيقة ودقة نظر واطمئنان قلب كما عبّر سبحانه وتعالى عن ابراهيم عليه السلام قائلاً: ربّ أرني كيف تحي الموتى قال أولَم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي (البقرة، ٢٦٠) فرؤية الجنّة في حالة النعمة، ورؤية النار في حالة العذاب ما هو إلاّ يقيناً حصل لأصحاب التقوى، فأصبحت صورة الجنة والنار من جهة والاحساس بالنعمة والعذاب من جهة أُخرى مندمجة في الشوق والرهبة فما ابدعها من صورة وعاطفة. ثمّ هناك ملاحظة أُخرى في كلامه عليه السلام حيث استخدم أداة التشبيه الكاف لتدلّ انّ عمليّة الرؤية كانت حسيّة وإلاّ فانّ الموقف كان يتطلّب حذفها.

ثمّ هكذا تستمر العواطف هيّاجة منيرة الدرب امام محبي اللّه سبحانه ثمّ قف قليلاً واستمع لقوله عليه السلام حيث يقول: صبروا أيّاماً قصيرة أعقبهم راحةٌ طويلةٌ يسرّها لهم... فالشوق إلى الثواب والراحة في الجنان واكتساب الأرباح تنشأ عادة من الرغبة النفسانيّة المحرّكة للعواطف الانسانيّة، حيث تسوق الانسان لاكتساب

مرضاة الرب. فجاءت الصورة متزنة بين تحمل المشاق والمصائب والأعسار لأيّام قلائل مع الراحة الطويلة في الجنان واليسر الذي أعدّه اللّه لهم.

وأرجو منك أيّها القارئ الكريم أن تأسر نفسك معي لحظات عند هذه العبارة التي يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فيها: وأسرتهم الدنيا ففدوا أنفسهم منها، فالأسر عادة يكون في ساحة القتال، والفدية تدفع بعد أن تضع الحرب أوزارها هذا من جهة، والقلب احياناً يأسره الهوى كما يقول الشاعر:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكبول

فحالة المتقي تشبه ساحة القتال ومن جهة أُخرى تشبه أسير الهوى، ففي الحالتين تجب الفدية لفكاك الاسر و الملاحظ ان الاسر الثاني اعظم شأناً من الاول،فايّ فدىةىدفعها المتقون لفكاك رقابهم؟ انها فدية عظيمة ألا وهي الأعراض عن الدنيا وتطليقها ثلاثاً، والصبر أمام الشهوات ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، صورة جميلة فيها حيويّة ونشاط ومقاومة، فلن تجد لمفردات هذا الكلام بديلاً إلاّ في كلام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وهكذا انظر إلى صور العبوديّة التي جسّدها الامام عليه السلام في وصف المتقين ليلاً من اصطفافهم للأقدام وتلاوتهم للقرآن الكريم والاستشفاء به والتشوق إلى آيات الرحمة والتخوف من آيات العذاب فانك ترى لقد امتزجت الصور المختلفة من القيام والاصطفاف والتلاوة والاستشفاء بالعاطفة من شوق وخوف.

ثمّ انظر إلى مركز التفكير ألا وهو القلب، كيف صاغ له مسمع واذن بحيث يسمع بها زفير وشهيق الجحيم، ممّا يجعل عاطفة الخوف تتصاعد لدى المستمع إلى حدّ اليقين، لأن كلمة «الظنّ» هنا تفيد اليقين، أي فهم على يقين ممّا أخبر الغيب بذلك.

ثم يصفهم عليه السلام في حالة الصلاة وخاصّة الركوع والسجود، بالانحناء والانعطاف أمام جبّار السموات والأرض، ولا يتمّ هذا الانحناء إلاّ لمن كان ضامر الخصر، أما حالهم وقت السجود ما هي إلاّ بسط الوجوه والأيدي والركبان على الأرض كبسط الفراش عليه، تعظيماً لخالقهم وتحقيراً لأنفسهم، ويشتدّ هذا التأثّر على النفس لما قرنها بعاطفة الرجاء مطالبين الربّ الغفور بفكاك رقبتهم من النار. موقف رائع لا يمكن أن يصوّره إلاّالفنان الأديب المثالي، «فالعاطفة تتعاون مع الخيال وتتساوق في لوحات رائعة حيّة، شديدة الروعة والحيويّة ترتكز على واقعيّة صافية تمتدّ لها فروع وأغصان ذات أوراق وأثمار»[1].

وأمّا في النهار فهم أصحاب حلم، والحلم بمثابة عشيرة للمتقي يستند عليها في جهاده مع الأعداء كما يتّكأ عليها الانسان وقت الحاجة. ولقد اَقرن عليه السلام الحلم بالعلم والاحسان وبالكرم، أي لا ينفع الحلم بجوار الجهل والبخل، هكذا تسير الصور البلاغيّة في الكلام حتّى نصل إلى سيماء أصحاب التقوى. وقلنا من قبل انه عليه السلام مزج العاطفة في الصورة امتزاجاً جميلاً دقيقاً، فانظر إلى عبارته التي يقول فيها: وتجمّلاً في فاقة، فالمتّقي مهما أجبرته الظروف الاقتصاديّة على الفقر فانه يتحاماها بجمال الزينة التي عبّر اللّه سبحانه عنها بقوله: خذوا زينتكم عند كلّ مسجد(الأعراف، ٣١)، فالجمال ممّا تشاقها النفوس ،ولقد امتزجت هنا بصورة الفقر فأصبحت جمالاً في جمال.

هكذا تجد الصور الابتكاريّة تسير جنباً إلى جنب العاطفة في جميع أرجاء الخطبة، عرضنا عنها صفحاً خوف الاطالة.

---

١. روائع نهج البلاغة، ص١٢.

واضافة إلى هذه الصور البيانيّة والتعابير العاطفيّة، تجد انّ الامامعليه السلام من خلال كلامه يميل إلى تجسيد بعض الصور عن طريق استخدام الكناية التي «هي مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلاّ من لطف طبعه وصفت قريحته، والسرّ في بلاغتها انها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها... وتظهر هذه الخاصة جلية في الكنايات عن الصفة...»[1]. فانظر إلى قولهعليه السلام يقول: غائباً منكره، حاضراً معروفه، فالمتقي عامل بالمعروف وناهٍ عن المنكر، وفي الكلام اثبات لهذين الصفتين (والصفات التالية) لأصحاب التقوى. وهاك المثال الآخر في قولهعليه السلام: قرّة عينه فيما لا يزول، وقرّة العين كناية عن الفرح والسرور لأنّ العين لا تتحرّك عند السرور وتضطرب عند الخوف. وقولهعليه السلام فيما لا يزول أيضاً كناية عن الموصوف وهي الجنّة التي وعدها اللّه للمتقين وكذلك تجد الكناية في قولهعليه السلام: ميتة شهوته، فهي كناية عن عدم اتباع الشهوات والسيطرة على النفس الأمارة، وبعبارة أُخرى هي تملكهم للنزاهة والقداسة. «ومن أسباب بلاغة الكناية انها تضع لك المعاني في صور المحسّات»، فانظر إلى قولهعليه السلام: صبروا أيّاماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، ففي الكلام كنايتان الصبر القصير يدركه الحسّ، وهي كناية عن الدنيا الزائلة، وكذلك الراحة الطويلة، يدركها الحسّ أيضاً وهي كناية عن الآخرة، وانظر إلى قولهعليه السلام يقول: يستثيرون دواء دائهم، فدواء دائهم كناية عن البكاء الذي يدركه كلّ انسان. والكلام كثير نعرض عنه صفحاً.

---

١. البلاغة الواضحة، ص١٣١.

٥. الاسلوب

قبل الخوض بالتفصيل عن الاسلوب في هذه الخطبة، لابدّ لنا من ذكر خصائص عامة، لاسلوب الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة حتّى ندرك الحقيقة أكثر فنقول:

أولا) الايجاز، فكلامه «موجز على وضوح، قويّ جيّاش، تام الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف، حلو الرنّة في الاذن»[١].

ثانياً) اللفظ: «وألفاظه ما هو فخمٌ كأنّه يجرّ ذيول الأرجوان أنفةً وتيهاً، ومنها ما هو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح، ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين، ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقى على بعض العواطف ليستر من حدّتها ويخفّف من شدّتها، ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء»[٢].

ثالثاً) صدق الاسلوب: «تميّز أدب الامام عليه السلام بالصدق كما تميّزت به حياته. وما الصدق إلاّ ميزة الفنّ الاولى ومقياس الاسلوب الذي لا يخادع»[٣].

رابعاً) الاسلوب والجمال، «ويبلغ اسلوب الامام علي عليه السلام قمة الجمال في المواقف الخطابيّة أي في المواقف التي تثور بها عاطفته الجيّاشة، ويتّقد خياله فتعتلج فيه صورٌ حارة من أحداث الحياة التي تمرّس بها»[٤].

خامساً) انّ هذه الخطبة دعوة ودعاية إلى التقوى، وحسن السلوك، ويومئ إلى ذلك اتّباع الكلام اسلوباً يكثر فيه التكرار والترديد.

---

١. روائع نهج البلاغة، ص٢٨.

٢. نفس المصدر، ص٣٢.

٣. نفس المصدر، ص٢٨.

٤. نفس المصدر، ص٣٠.

فالاسلوب رصين محكم، مفرداته مفهومة، معانيه غزيرة، بالحواس تدرك احياناً وبالعقول أُخرى كقوله عليه السلام: غضوا أبصارهم عن الحرام، فالاغماض عملية حسيّة وحركة آلية يدركها الجميع عن طريق البصر، وقوله عليه السلام: هم والجنّة كمن قد رآها، فالرؤية هنا جاءت عن طريق الادراك العقلي أو قُل الادراك النفسي وكذلك تجد هذا الكلام ينطبق على قوله عليه السلام: وقفوا أسماعهم على العلم، فالوقف على العلم يعني فهمه وادراكه عن طريق السمع، ولم يحصل هذا الفهم إلاّ بواسطة حركة آلية مادية وهي الاذن، وقوله عليه السلام: اصغوا إليها مسامع قلوبهم فلم يتمّ الاصغاء هنا إلاّ عن طريق الادراك العقلي، وأمثال هذا الكلام كثير، ومع هذا فانّ الاسلوب في هذه الخطبة تدور على المحور التالية:

١. الاقتباس من القرآن: انه لمن المعروف ان النهج ما هو إلاّ وليد القرآن الكريم، ومقتبس من مدرسة الرسول العظيم صلى الله عليه وآله، فما من كلام في نهج البلاغة إلاّ واقتبس منهما مصحوبة بعبقرية وذكاء الامام عليه السلام.

ثمّ اعلم انّ هذا الاقتباس يورث الكلام بهاءاً ووقاراً ورقةً وصفاءاً، والاقتباس هو الغالب على الخطب الوعظيّة.

فالقرآن الكريم هو النور المشعّ على أرجاء نهج البلاغة، فهو تارةً يقتبس المعاني القرآنيّة ويصوغها باسلوبه كما نرى في أقواله التالية:

«تالين لأجزاء القرآن» فهو مأخوذ من قوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته (البقرة، ١٢١)، وقوله عليه السلام: مشيهم التواضع فهو مقتبس من قوله تعالى: واقصد في مشيك (لقمان، ١٩)، وأيضاً قوله عليه السلام: غضوا أبصارهم عن الحرام، فهو موازي لقوله تعالى: قُل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم (النور، ٣٠)، كذلك قوله عليه السلام: فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، يشابه قوله تعالى:

يبشّرهم ربّهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (التوبة، ٢١)، وأيضاً قوله عليه السلام: وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أُصول آذانهم كقوله تعالى: فأمّا الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق (هود، ١٠٦) وكذا قوله عليه السلام: حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم... يطلبون إلى اللّه في فكاك رقابهم، يماثل قوله تعالى: تراهم ركعاً سُجداً يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً (الفتح، ٢٩)، ونظائر هذا الكلام كثير فعلى الراغب استنتاج ذلك، وأمّا ما جاءت من الألفاظ القرآنيّة في كلامه عليه السلام فقوله عليه السلام: قرّة عينه فيما لا يزول هي من الألفاظ القرآنيّة التي جاءت في هذه الآية المباركة: قالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك (القصص، ٩)، أو قوله عليه السلام: يعفو عمّن ظلمه، فالعفو من أبرز صفات اللّه سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وأمر المؤمنين القيام بها في قوله عزّ من قائل: ان تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفو عن سوء فانّ اللّه كان عفوّاً قديراً (النساء، ١٤٩) وأخيراً انظر إلى قوله عليه السلام الذي يقول: وان بُغي عليه صبر حتّى يكون اللّه هو الذي ينتقم له، فبغى عليه جاءت في قوله تعالى: ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه اللّه (الحج، ٦٠). وتجد لامثالها كثيراً.

٢. ثمّ نعرّج على الصناعات البديعيّة فنقول حدّث عنها ولا حرج فهي أقرب ما يكون إلى الطبع الزاخر بعيداً عن الصنعة والتكلّف، فانظر الى الطباق في قوله عليه السلام: الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون ممّا يجعل المعنى أكثر وضوحاً والصورة أكثر جلاءواشراقاً، ولها أمثال كثيرة، وإلى السجع بنوعيّة القصير

والطويل والسجع القصير[1] جاء في قوله عليه السلام: خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميّتة شهوته، مكظوماً غيظه، وقصر هذه الجمل تشدّ الواقع في النفوس أكثر والخطبة كلّها على هذا المنوال. اما السجع[2] الطويل فقوله عليه السلام: اذا زكّي أحدٌ منهم خاف ممّا يقال له، فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي منّي بنفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ممّا يظنّون، واغفر لي ما لا يعلمون، ثمّ انظر إلى صناعة حسن التعليل حيث يقول عليه السلام: لولا الأجل الذي كتب اللّه لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، فكلاً من الشوق والخوف علة لعدم استقرار الروح فيهم، وكذلك قوله عليه السلام: عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فالصغر والحقارة سبب لعظمة الربّ في أنفسهم، ولو دققت النظر لتجد أمثالها في هذه الخطبة. وأمّا الموازنة[3] فنجدها في قوله عليه السلام: مقبلاً خيره، مدبراً شرّه، فالخير والشرّ على وزن واحد، وكذلك قوله عليه السلام: في الزلازل وقورٌ وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، فكلّ من وقور وصبور وشكور جاءت على وزن فعول، وقوله عليه السلام: ان صمت لم يغُمّه صمتُهُ، وان ضحك لم يعلُ صوته، فكلمتا صمتُهُ وصوته متحدتان وزناً وكذلك قوله: الخير منه مأمول، والشرُّمنه مأمون، فالمأمول

---

١. يقول ابن الأثير في المثل السائر، ج١، ص٢٣٥، والسجع القصير، هو أن تكون كلّ واحدة من السجعتين مؤلّفة من ألفاظ قليلة، وكلّما قلّت الألفاظ كان أحسن، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً، وأبعده متناولاً، ولا يكاد استعماله يقع إلاّ نادراً.

٢ . والسجع هو توافق الفاصلتين في كلّ فقرتين أو أكثر في الحرف الأخير كما نجد ذلك في قوله٧ يقولون، يظنون، يعلمون .

٣. الموازنة هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ،نفس المصدر، ج١، ص٢٧٢.

والمأمون على وزن واحد. ولما كانت الموازنة لها مقاطع معتدلة وقعت في النفس موقع الاستحسان، وزادت الاسلوب جمالاً وروعة.

ثمّ للنظر إلى عنصر المقابلة[١] في قولهعليه السلام: فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعتت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا انّها نُصب أعينهم، تقابل كلامهعليه السلام وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أُصول آذانهم، فالموازنة بين الجنّة والنار والتشويق والتخويف والعين والاذن، جاءت على الترتيب لتزيد الشعور التهاباً وتزكي النفوس علواً وتعمل عمل السحر في مستمعيها. ثم قف إلى جوار فن الترصيع[٢] الذي جاء بكثرة في كلامهعليه السلام مثل قوله: قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، فقلوبهم توازي شرورهم، ومحزونة تقابل مأمونة وزناً، وكذلك الكلام في قولهعليه السلام: أجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأيضاً كلامهعليه السلام شوقاً إلى الثواب مقابل قولهعليه السلام وخوفاً من العقاب. ومن أجل ازالة الملل والتعب لدى المستمع يلتجأ الامامعليه السلام إلى تغيير رنّة الموسيقى، فأحياناً يطيل السجع وأُخرى يقصّر، حتى يتمّ التعادل ويرتاح المستمع لاستقبال المعاني حتى يصل الخطيب إلى مآربه، فانظر إلى كلامهعليه السلام: منطقهم الصواب، ملبسهم الاقتصاد، مشيهم التواضع، ثمّ يتغيّر الوزن مباشرة فيقول غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللّه عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم... وما هذا

١. يعرف السكاكي المقابلة بأنّها اجتماع شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديها، ثمّ إذا اشترطت هنا شرطاً شرطت هناك ضدّه .السكاكي، مفتاح العلوم، ص١٧٩.

٢. الترصيع: هو أن تكون كلّ لفظة من ألفاظ الفصل الأوّل مساوية لكلّ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية .المثل السائر، ج١، ص٢٥٨.

التغيير في الوزن إلاّ زيادة في شوق السامع ولم تحصل هذه الفائدة إلاّ من وراء هذه الموسيقى التي تتصاعد احياناً مع تناسب الموضوع وأُخرى تهدأ.

وما هذا الاسلوب المتين إلاّ ناشيءٌ عن الصدق الذي أعطى للكلام روح الجمال وسرّ البقاء وتأجج العاطفة عند همام، فما أكرم الخطيب وما أعظمه.

في رحاب الكلمات: من له بصيرة لا ينكر العلاقة الوثيقة القائمة بين الألفاظ والمعاني فالألفاظ كما قيل كالجسم والمعاني كالروح، تتقوى بقوته وتضعف بضعفها، فالكلام الجزل أقوى من المعاني اللطيفة على حد تعبير صاحب العمدة، وينقل ابن رشيق قائلاً «سمعتُ بعض الحذاق يقول: قال العلماء اللفظ أغلي من المعنى ثمناً وأعظم قيمة، وأعزّ مطلباً، فان المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحّة التأليف»[1] وان «الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار»[2]. وبناءاً على هذا سنقف قليلاً عند بعض الألفاظ من هذه الخطبة ونقول: لو نظرنا إلى هذه الفقرة: فمن علامة أحدهم انّك ترى له قوّةً في دين،و حزماً في لين، وايماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنًى، وخشوعاً في عبادة وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدّة، وطلباً في حلال ونشاطاً في هدًى، وتحرّجاً عن طمع، سنجد كلّ لفظة من الألفاظ التالية «قوّة، حزماً، ايماناً، حرصاً، علماً، قصداً، خشوعاً، تجمّلاً، صبراً، طلباً، نشاطاً، تحرّجاً» تمثّل مظهراً من مظاهر القدرة، وإن اختلفت في القوالب، فهذه الفقرة مصدرة بالقوّة أي القدرة أي لا تواني ولا كسل في أمر الدين، وترى هذا المعنى في الحزم الذي هو الشدّ والربط ولولاه سيكون الضعف وخسران اللين،

---

١. العمدة، ج١، ص١٢٧.

٢. نفس المصدر، ج١، ص١٢٨.

والايمان فيه تصديق ووثوق وهما يعتمدان القوّة على ايجاد اليقين في النفس، والحرص عبارة عن قشر الجلد، و حرص القصار الثوب: مزقه، فنجد معنى القوة إلى جانبها قائمة، والعلم عبارة عن ادراك الشيء بحقيقته ولن يتمّ هذا الادراك بالضعف فلابدّ من طاقة، والقصد: استقامة الطريق والاستقامة مظهر من مظاهر القدرة، والخشوع: التضرّع وهي قوة باطنية يشعر بها العابد، وتجمل الفقر فيه لزوم الحياء ولن يتمّ ذلك إلاّ عن طريق القدرة، والصبر هو الامساك في ضيق والسيطرة على النفس فلولا وجود القوّة لم يحصل الصبر بمعناه الواقعي، والطلب هي المحاولة والأخذ والفحص عن الشيء فلولا وجود عنصر القوّة فيه لم ينفع، والنشاط العقد والشدّ فهي أيضاً من مظاهر القدرة وأخيراً التحرج هو التجنّب عن الحرام والاثم، فالضعيف الارادة لن ولم يتمكن من ذلك إلاّ بالقوّة فما أبدعها من فقرة حيث أظهرت القوّة والقدرة بالألفاظ المختلفة تحوم على معنى واحد. وهكذا تجد بطيء الحركة والاعتدال في هذه الفقرة: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، فالصواب هو الحدّ الوسط بين اليمين والشمال، والاقتصاد هو التعادل بين الافراط والتفريط، والمشي هو الحدّ الوسط بين الركض والهرولة، ولأمثال هذا الكلام مواطن كثيرة في هذه الخطبة.

ثمّ نعطف على ذكر بعض الفروق اللغويّة من حيث الاستعمال لنرى مدى تمكّن الامام عليه السلام من اللغة والسيطرة على معانيها، سالكين مسلك أبي هلال العسكري في ذلك، فنقول انّ قوله عليه السلام: تالين لأجزاء القرآن، فما هو «الفرق بين القراءة والتلاوة، ان التلاوة لا تكون إلاّ لكلمتين فصاعداً، والقراءة تكون للكلمة الواحدة... وذلك ان أصل التلاوة اتباع الشيء الشيء، يقال تلاه، اذا تبعه فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضاً، ولا تكون في الكلمة الواحدة، اذ لا يصح

فيه التلو»[١]. فانظر إلى هذه الدقّة بنظر الاعتبار. وكذلك ترى «الفرق بين القرآن والفرقان، ان القرآن يفيد جمع السور وضم بعضها إلى بعض، والفرقان يفيد انه يفرق بين الحق والباطل والمؤمن والكافر»[٢]، فالتالي للقرآن المجيد ليس بحاجة الى القضاء بين الحق والباطل، بل هو يُركّز على الاستمرار في المطالعة فجاءت لفظة القرآن مناسبة لمكانها في الخطبة. وأمّا قوله عليه السلام واذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، «والفرق بين السمع والاصغاء، ان السمع هو ادراك المسموع،... والاصغاء هو طلب ادراك المسموع بامالة السمع إليه، يقال صغا يصغو اذا مال وأصغى»[٣]، فانظر إلى دقة اختيار الكلمات واستعمالها في محلها المناسب لها. وأخيراً نشير إلى قوله عليه السلام: يُمسي وهمّه الشكر، «والفرق بين الشكر والحمد، ان الشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، والحمد الذكر الجميل على جهة التعظيم المذكور به... ويصح على النعمة وغير النعمة، والشكر لا يصح إلاّ على النعمة... فالاعتماد في الشكر على ما توجبه النعمة، وفي الحمد على ما توجيه الحكمة»[٤] فالبون شاسع بين المعاني، ولا يأتي عليها إلاّ من كانت له بصيرة في اللغة والأدب، وما هذه المعرفة إلاّ لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

وهنا أودُّ أن أشير إلى شيء من جمال كلمة «الأهل» التي جاءت في مقدمة هذه الخطبة (فالمتقون هم أهل الفضائل)، فلو وقفنا نتأمّل هذه الكلمة (الأهل) وما احتوتها من المعاني كي ندرك عمق كلام المعصوم عليه السلام فنقول: «إنّ هذه اللفظة

١. الفروق اللغوة، ص٤٨.

٢. نفس المصدر، ص٤٤.

٣. نفس المصدر، ص٧٠.

٤. نفس المصدر، ص٣٥.

قرآنيّة حيث استخدمها القرآن الكريم تارة مضافة إلى الاسم الظاهر كقوله تعالى «أهل الكتاب ـ أهل الانجيل ـ أهل البيت ـ أهل الذكر ـ أهل المدينة...» واخرى مضافة إلى الضمير كقوله تعالى: «أهلك ـ أهلنا ـ أهله ـ أهلهم...» ثمّ استعملها لذاته المقدس قائلاً «وما يذكرون إلاّ أن يشاء اللّه هو أهل التقوى وأهل المغفرة» (المدثر، ٥٦)؛ أي هو الحقيق لأن يتقي محارمه، لأنّه بيده الولاية، وهو غفار الذنوب جميعاً لمن اتقاه. هذا وقد ذكر لها أصحاب اللغة معاني مختلفة منها «أهل الرجل من يجمعه وايّاهم نسب أو دين أو ما يجري مجراها... فأهل الرجل في الأصل من يجمعه وايّاهم مسكن واحد...»[1]، وقال الطريحي «أهل الرجل آله، وهم أشياعه وأتباعه وأهل ملته، ثمّ كثر استعمال الأهل والآل حتّى سمي بهما أهل بيت الرجل، لأنّهم أكثر من يتبعه...»[2] وجاء قريب من هذا المعنى قول صاحب اللسان: «أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه...»[3]، فكلمة الأهل غنية المعاني حيث احتوت على معاني الاتباع، والعشيرة ،...، فالمتقون هم أتباع وعشيرة و... جميع الفضائل حيث يجتمعون بها ويسكنون إليها وينتسبون بها ولا لغيرهم نصيب منها.

واختم الكلام هنا بما يراه أحمد أحمد بدوي في كيفية اختتام الخطبة حيث يقول: «للخاتمة الأثر الكبير من ناحية بقائه أمداً طويلاً في نفس سامعه، ولذا كان من جمال المقطع الأخير أن يأتي والنفس قد استعدت له. فأكمل فكرة تهيأت النفس لاكمالها، بحيث يشعر السامع أن الخطيب قد انتهى من عرض فكرته،

---

١. المفردات، ص٢٩.

٢. مجمع البحرين، ص٤٢٤.

٣. لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص١٢٤.

ورتّب لها كلّ أسباب الايضاح، ولم يعد في نفس السامع رغبة في المزيد»[1] وفات البدوي أن يذكر ما احلّت الخطب العلوية بأهلها، حيث تزيد النفوس حبّاً وشوقاً لخالقها، مشتاقة إلى اللقاء، مفارقة الأجسام البالية إلى دار الخلود والبقاء.

التحليل الاعرابي

قوله عليه السلام: خلق الخلق حين خلقهم غنيّاً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، الكلمتان «غنياً وآمناً» حالان، وقوله عليه السلام نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، فالجار والمجرور (في البلاء وفي الرخاء) متعلّقان بحال محذوفة، وكالتي: الكاف هنا بمعنى مثل وهي صفة مفعول مطلق محذوف وتقدير الكلام نزولاً مثل نزول، وجملة: لولاالأجل الذي...، الذي: صفة، وخبر الأجل محذوف تقديره حاصل. قوله عليه السلام: فهم والجنةُ، الواو معية أو عاطفة، والنصب أولى. وشوقاً وخوفاً مفعول لأجله، وقوله عليه السلام: تجارة مربحة: تجارة خبر تلك المحذوف وقوله عليه السلام اما الليل، نصب على الظرفية ويمكن رفعه على الابتداء (الليلُ)، وتالين حال اما من الواو في صافون أو من هم في أقدامهم، نصب أعينهم، ظرف أو خبر مرفوع لأن، وقوله عليه السلام يطلبون إلى اللّه، الجار والمجرور متعلق بحال محذوف تقديره سائلين، وقوله عليه السلام قريباً أمله: امله فاعل قريب وكذا في البواقي. وأما الجار والمجرور في قوله عليه السلام قوة في دين متعلق بالظاهر وحزماً في لين متعلق ب(كائناً) المحذوف، وقوله عليه السلام: فمن علامة أحدهم انك ترى، من علامة: جار ومجرور خبر مقدم وجملة انك ترى مبتدأ مؤخر.

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٦٣٩.

الدرس الخامس

آيات العرفان

الْحَمْدُ للّه الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلا سَقِيماً، وَلا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوء، وَلا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي وَلا مَقْطُوعاً دَابِرِي[١]، وَلا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلا مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلا مُسْتَوْحِشاً[٢] مِنْ إيمَانِي وَلا مُلْتَبِساً[٣] عَقْلِي، وَلا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلا حُجَّةَ لِي. وَلا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلا أَتَّقِيَ إِلاّ مَا وَقَيْتَنِي.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ[٤] فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ[٥] وَالْأَمْرُ لَكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ[٦] تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا[٧] مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ[٨] بِنَا أَهْوَاؤنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ[١].

---

١. صبحي الصالح، خ٢١٥، ص٣٣٢.

[١] الدابر: بقيّة الرجل من ولده ونسله، وأصل الدابر: الظهر، وكـنى بقطعـه عـن الدواعي التي من شأنها قطع القوّة وأبادة النسل.

[٢] مستوحشاً: شاكاً، لأن من شكّ في عقيدته استوحش منها.

[٣] الالتباس: الاختلاط.

[٤] أُضامُ: مبني للمجهول، أُظلمُ.

[٥] اضطهد: من باب الافتعال وأصله ضهدتُ فلاناً فهو مضهود أي قهرته.

[٦] كريمة: كلّ جارحة شريفة كاليد والاذن والعين والعقل و...

[٧] ترتجعها: تستردها.

[٨] التتابع: ركوب الامر على خـلاف النـاس، أراد بـه هنـا الاسـراع إلى الشـر واللجاجة.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

دعائهعليه السلام الذي كان يدعو به اللّه كثيراً.

٢. شرح النص

يحمد الامامعليه السلام ربّ العباد على نعمه الكثيرة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، ذاكراً منها نعمة الحياة والسلامة، وعدم العقاب على ارتكاب الذنوب ولا مقطوع النسل والذريّة، وليس مرتداً في دينه، ولا جاحداً لربّ العباد، ولا شاكّاً في ايمانـه باللّـه،

وعدم ذهاب عقله وأخيراً عدم انتقام اللّه منه كما صنع بالامم الماضية من انـزال العذاب[1].

ومن جانب آخر يرى نفسه عبداً مملوكاً للّه سبحانه ظالمـاً لنفسـه بقصـور العمل له، ولا حجة له في ذلك، بل الحجة بيده، لأن اللّه كلّفه الحجّـة بعـد تمكنـه واقتداره، وانه لم يكلّف ما لا يُطاق، ثمّ يقول وليس لي من المنح إلاّ مـا أعطيـتني من النعم، ولا حول ولا قوّة لي إلاّ بك.

ثمّ انظر الابداع العرفاني في قوله عليه السلام: انّي أعوذ بـك أن أفتقـر في غنـاك... فماأعظم الفقر الى جنب أغنى الأغنياء، الا انّه هـو الخسـران المـبين، ومـا أشـدّ الضلالة إلى جنب الهداية الربانية.وما أقـبح الظلـم والفسـاد إلى جانـب السـلطة الجبارةلربّ العالمىن.وما أسوأ الذلّ والقهر والأمر مفوّض إلى اللّه الرحمن.

فهذه ضمانات المولى سبحانه لعباده جرت على لسان أميرالمؤمنين عليه السلام، فما أجملها من تعابير، وما أقدسها من معاني، علينا بالخضوع أمامها، فهي تعـدُّ بحـقّ من مواطن السجود عند الادباء.

ثمّ يُضحّي بنفسه الكريمة التي هي أغلى شيء لدى الانسان عنـد مـا يحـلُّ الموت عليه، لا بتقديم المال والمقام والأولاد، عاملاً بقوله تعـالى: لـن تنـالوا الـبرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبون (آل عمران، ٩٢)! فدعاء عظيمٌ عمل جسيم لن يقوم به إلاّ من جمعت بينه وبين اللّه أوآصر الايمان والتقوى، وكذلك يطلب من اللّه سـبحانه وتعالى أن يستردّ منه أفضل الودائع وعلى رأسها روحه الزكيّة، على خـلاف لمـا هو المعهود بين الناس من تقديم المال أو البنين او.....،

---

١. ومن عذابه تعالى: المسخ، الزلزلة، الخسف، الرمي بالحجارة و...

ويطالب الربّ بالتمسّك بأقواله سبحانه والعمل بها، وعدم الابتلاء في الدين، وعدم متابعة الهوى والعدول عن الهدى.

الأفكار: تحوم على المحاور التالية:

١. ذكر النعم: منها الحياة والسلامة، وعدم العقاب وعدم الارتداد وعدم الجحود، وعدم الايمان وانعدام العقل...

٢. الاعتراف بالذنب وعدم وجود الحجّة لديه والقصور في العمل.

٣. التسليم لربّ العباد كما هو واضح في قوله عليه السلام: ولا أستطيع أن آخذ إلاّ ما أعطيتني...

٤. طلبات: منها دفع الفقر والضلالة والظلم والاضطهاد، فهي تعدّ من عوامل الانحطاط والتدهور للفرد والمجتمع ومنها التطيب والتهيؤ للموت، ومنها الصيانة من الضلالة كما هو مشهود في الفقرة الأخيرة.

٣. العواطف

ما من كلام لاميرالمؤمنين عليه السلام إلاّ ومزدان بالأحاسيس، فما بالك لو دخلت في عالم الأدعية، وهذا الدعاء خاصّة، فانك لتجد ظلال العاطفة منتشرة في ربوع هذه الخطبة وسنشير إلى بعضها:

اولاً) اظهار الفرح والسرور عند الحمد في بداية الخطبة فهو مسرور لتوالي النعم عليه ومن بقاء حياته وسلامته في الجسم وعدم المجازاة، والايمان باللّه وسلامة العقل و...

ثانياً) التصاغر: فمن تواضع للّه عزّ، ومن تكبّر عليه ذلّ، فما أعظم حالة يكون العبد بها أمام ربّه من الذلّ، فهي حالة روحية تأباها النفس الأمّارة،

فالاعتراف بالقصور وعدم الحصول على الحجة، والتسليم بما قسّمه ربّ العالمين ما هي إلاّ تربية القرآن الكريم.

ثالثاً) الشعور بالحاجة وعدم الاستغناء عن عطايا ومنح البارئ، يُدخل العبد في رحاب الأمن والأمل والجدّ والمثابرة كما هو الظاهر في كلامه عليه السلام اللهمّ انّي أعوذ بك ان افتقر في غناك...

رابعاً) الخوف: فهو خائف من ذهاب الايمان عن قلبه وذهاب العقل والفكر عن جسمه، والعذاب من قبل الربّ و...

خامساً) الايثار والاخلاص، وهما يتجلّيان في الفقرتين الأخرتين ففي الاولى تقديم النفس إلى الربّ وفي الثانية طلب من اللّه في أن يوفق الانسان للعمل الصالح والسير على طريق الهدى.

٤. عنصر الخيال

وإن كانت طبيعة الدعاء ترتكز على سرد الحقائق فمع ذلك ترى عنصر الصورة تجلت على شكل الكناية في هذا الجو المليء بالعواطف التي ستزيد البيان جمالاً، وحسن التأثير في الاسماع، واشعال نار الحب للّه في قلوب المؤمنين، فمن ذلك قوله عليه السلام: ولا مقطوعاً دابري، حيث كنّى به بقطعه عن الدواعي التي من شأنها قطع القوّة وإبادة النسل، فهي كناية عن موصوف ويمكن أن يفسّر بمحو الأثر والاسم (العنوان) فلا تبقى له باقية[١].

---

١. إلى هذا أشار المعاصرون من النقاد انه يمتلك عنصر الرمز.

وقولهعليه السلام: ولا مضروباً على عروقي بسوء: كناية عن المرض الذي يصاب به الجسم، فانهعليه السلام عدل عن لفظة المرض الى الضرب على العرق، واختلف المفسرون في معناه على قولين: الاول: «يحتمل البرص، والعرب تكني على البرص بالسوء» والثاني: «يحتمل أنه يريد ولا مطعوناً في نسبي»[1]، وكذلك قولهعليه السلام: أول كريمة تنتزعها، فانتزاع الشيء كناية عن الموت وهي كناية عن موصوف، أو كلامهعليه السلام ولا أستطيع أن آخذ إلاّ ماأعطيتني، كنّى بهذا الكلام عن رزقه المقسوم له، أو النعم الالهيّة التي تتوالى على الانسان من فضله. وكذلك ترى عنصر الرمز في قولهعليه السلام: أو تتابع بنا أهواؤنا، فالتتابع ركوب الأمر على خلاف الناس، أراد به هنا الاسراع إلى الشرّ واللجاجة، فهو كناية عن صفة.

٥. الاسلوب

يرتكز على الفصاحة والبلاغة، خالٍ عن كلّ تعقيد لفظي أو معنوي وجاءت الكلمات في المكان المناسب لها من الخطبة، فلو غيّرنا لفظاً مكان آخر لزالت الفصاحة وانمحت البلاغة، فعلى سبيل المثال انظر إلى كلمة «مضروباً» في هذه العبارة «ولا مضروباً على عروقي»، لو أصبحت مثلاً ضارباً لأختل المعنى والمفهوم أولاً ثمّ الوزن ثانياً. هذا وان الاسلوب متأثر بالقرآن الكريم والكلام النبويّ الشريف؛ قولهعليه السلام أعوذ بك أن أفتقر في غناك، فأعوذ بك مقتبس من القرآن الكريم، قوله تعالى: قل أعوذ بربّ الناس (الناس، ١) والقسم الثاني من الكلام مقتبس من قول رسول اللّهصلى الله عليه وآله «اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تفقرني

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٣، ص٢٨.

بالاستغناء عنك»[١]، وقوله عليه السلام: ولا مقطوعاً دابري، مقتبس من قوله تعالى: أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين «الحجر، ٦٦)، وقوله عليه السلام: ولا معذّباً بعذاب الامم من قبلي، مشيراً إلى قوله تعالى: فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات (الاعراف، ١٣٣).

واستخدم اسلوب القصر في قوله عليه السلام: «ولا اتّقي إلاّ ما وقيتني، وقوله عليه السلام: لك الحجّة عليّ، وكذلك استعان باسلوب الانشاء الذي يرتكز على الحقائق من نداء في قوله عليه السلام: اللّهمّ... ومن ألتماس كما في قوله عليه السلام: اجعل نفسي...

ثمّ أتى بالسجع فاختار ما يناسب المقام من وزن، وتغير ذلك الوزن حسب الموقف كما ترى ذلك مشهوداً في قوله عليه السلام عروقي ـ عملي ـ دابري ـ ديني ـ لربّي ـ ايماني ـ عقلي ـ قبلي ـ لنفسي... ثمّ يتغيّر من الياء إلى الكاف في قوله عليه السلام غناك ـ هداك ـ سلطانك ـ الأمر لك.

وقفة مع المفردات:

من أجل الوقوف على المعاني التي تصبُ مفاهيم كثيرة في قوالب الألفاظ ، أتينا بنموذجين:

١. الفقر: «تستعمل على أربعة أوجه: الأول وجود الحاجة الضروريّة وذلك عامٌ للانسان مادام في دار الدنيا، بل عامٌ للموجودات كلّها، وعلى هذا قوله تعالى «يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى اللّه» (الفاطر، ١٥)،... والثاني: عدم المقتنيات وهو المذكور في قوله تعالى «للفقراء الذين أُحصروا، الى قوله: من التعفف» (البقرة، ٢٧٣)... الثالث: فقر النفس وهو الشره المعنيّ بقوله صلى الله عليه وآله: كاد الفقر أن يكون كفراً،... الرابع: الفقر إلى اللّه المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله: اللّهمّ أغنني بالافتقار إليك... الحديث مرّ

١. المفردات، ص٣٨٣.

من قبل، وايّاه عُني بقوله تعالى ربّ انّي لما أنزلت إليّ من خير فقير (القصص، ٢٤)، وبهذا ألمّ الشاعر فقال:

(ويعجبني فقري إليك ولم يكن ليعجبني لو لا محبّتك الفقر)[١]

فانني أرى أنه عليه السلام قصد هذه المعاني جميعاً، وأبرع النسج لما قال «افتقر» في قوله: اللّهمّ انّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك، فالانسان مازال يعيش في الدنيا فهو يفتقر إليه حوائجه وله متطلبات كثيرة، ونفسه تُشرف على الطمع دائماً إلاّ ما رحم ربّي، وما أطيب الفقر إلى جوار الربّ.

٢. الكرائم: فهي مشتقة من «ك ـ ر ـ م» فقد احتوت هذه الحروف على معاني جميلة، أشرنا من قبل إلى معناها التي تدلّ على كلّ جارحة شريفة لدى الانسان من اليد والعين والعقل...، وتستعمل أحياناً للمال فيقال كرام المال: أي نفائسها وخيارها، وكلمة «كرم» وما يشتق منها لها معاني كثيرة مثل العزة، العظمة، النزاهة، الشرف، الجود، الطيب و...

وكفاها فخراً انّها أصبحت من أسمائه الحسنى، وبعد هذا الوقوف القصير على هذه المحاسن نقول: ما أحلاها لما استخدمها الامام عليه السلام في قوله: اللهم اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي.

---

١. نفس المصدر، ص٣٨٣.

الدرس السادس

الصياد

ومن خُطبة له عجيبة:

الْحَمْدُ للّه الَّذِي عَلا بحَوْلِهِ.[١] وَدَنَا بطَوْلِـهِ.[٢] مَـانِحِ كُـلِّ غَنِيمَـةٍ وَفَضْلٍ. وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْل.[٣] أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ. وَسَوابغِ نعَمِهِ[٤]. وَأُومِنُ بهِ أَوَّلاً بَادِياً[٥]. وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً. وَأَسْـتَعِينُهُ قَـاهِراً قَادِراً. وَأَتوكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَآلِـهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَرْسَلَهُ لإنْفَاذِ أَمْرِهِ وَإِنْهَاء عُذْرِهِ[٦] وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ[٧].

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللّه بتَقْوَى اللّه الَّذِي ضَرَبَ الْأَمْثَالَ[٨] وَوَقَّـتَ لَكُـمُ الْآجَالَ[٩]. وَأَلْبَسكُمُ الرِّيَاشَ[١٠] وَأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ[١١]، وَأَحَـاطَ بكُـمُ الإِحْصَاءَ[١٢] وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجزَاءَ[١٣]. وَآثَرَكُمْ بـالنِّعَمِ السَّـوابغِ وَالرِّفَـدِ الرَّوَافِغِ[١٤]. وَأَنْذَرَكُمْ بالْحُجَجِ الْبَوالِغِ[١٥]. فَأَحْصَاكُمْ عدَداً. وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً[١٦] فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ[١٧] وَدَارِ عِبْرَةٍ. أَنْتُمْ مُخْتَبَـرُونَ فِيهَـا وَمُحَاسَـبُونَ عَلَيْهَا فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنقٌ[١٨] مَشْرَبُهَا رَدِغٌ[١٩] مَشْـرَعُهَا. يُونـقُ[٢٠] مَنْظَرُهَـا وَيُوبقُ[٢١] مَخْبَرُهَا. غُرُورٌ حَائِلٌ.[٢٢] وَضَوْءٌ آفِلٌ وَظِلٌّ زَائِلٌ. وَسِـنَادٌ[٢٣] مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا. وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَـا[٢٤] قَمَصَـتْ[٢٥] بأَرْجُلِهَـا.

وَقَنصَتْ بِأَحْبُلِهَا[٢٦]. وَأَقْصَدَتْ[٢٧] بِأَسْهُمِهَا. وَأَغْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ.[٢٨] قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ[٢٩] وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ. وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ[٣٠] وَثَوابِ الْعَمَلِ[٣١].

وَكَذَلِكَ الْخَلَفُ ىعَقْبِ السَّلَفِ[٣٢]. لا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً[٣٣] وَلا يَرْعَوِي الْبَاقُونَ[٣٤] اجْتِرَاماً[٣٥]. يَحْتَذُونَ مِثَالاً[٣٦] وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً[٣٧] إِلَى غَايَةِ الِانْتِهَاءِ. وَصَيُّورِ[٣٨] الْفَنَاءِ حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الأُمُورُ وَتَقَضَّتِ[٣٩] الدُّهُورُ وَأَزِفَ[٤٠] النُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ[٤١] الْقُبُورِ وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ. وَأَوْجِرَةِ[٤٢] السِّبَاعِ. وَمَطَارِحِ[٤٣] الْمَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ. مُهْطِعِينَ[٤٤] إِلَى مَعَادِهِ. رَعِيلاً صُمُوتاً[٤٥] قِيَاماً صُفُوفاً يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ[٤٦] وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي. عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الِاسْتِكَانَةِ[٤٧]. وَضَرَعُ[٤٨] الِاسْتِسْلامِ وَالذِّلَّةِ. قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ. وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ. وَهَوَتِ الْأَفْئِدَةُ[٤٩] كَاظِمَةً[٥٠] وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً[٥١]. وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ[٥٢]. وَعَظُمَ الشَّفَقُ[٥٣] وَأُرْعِدَتِ[٥٤] الْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي[٥٥] إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ[٥٦] وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ[٥٧]. وَنَكَالِ[٥٨] الْعِقَابِ. وَنَوَالِ الثَّوَابِ. عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً. وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً[٥٩]. وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً[٦٠]. وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً[٦١]. وَكَائِنُونَ رُفَاتاً[٦٢]. وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً. وَمَدِينُونَ[٦٣] جَزَاءً. وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً[٦٤].

قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ[٦٥]. وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ[٦٦]. وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ[٦٧] وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ[٦٨]. وَرَوِيَّةِ الِارْتِيَادِ[٦٩]. وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ[٧٠] فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ

وَمُضْطَرَب[٧١] الْمَهَل. فَيَالَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً[٧٢]. وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً. لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً. وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً. وَآرَاءً عَازِمَةً. وَأَلْبَاباً حَازِمَةً.

فَاتَّقُوا اللّه تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ. وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ وَوَجِلَ[٧٣] فَعَمِلَ. وَحَاذَرَ فَبَادَرَ[٧٤]. وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ. وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ[٧٥]. وَحُذِّرَ فَحَذِرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ[٧٦] وَأَجَابَ فَأَنَابَ[٧٧]. وَرَاجَعَ فَتَابَ. وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى[٧٨]. وَأُرِيَ فَرَأَى. فَأَسْرَعَ طَالِباً. وَنَجَا هَارِباً. فَأَفَادَ ذَخِيرَةً[٧٩] وَأَطَابَ سَرِيرَةً. وَعَمَّرَ مَعَاداً. وَاسْتَظْهَرَ زَاداً[٨٠] لِيَوْمِ رَحِيلِهِ. وَوَجْهِ سَبِيلِهِ[٨١]. وَحَالِ حَاجَتِهِ. وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ. وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ.

فَاتَّقُوا اللّه عِبَادَ اللّه جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ. وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ[٨٢] وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ[1].

فقه اللغة

[١]. علا بحوله: عزّوارتفع عن جميع ما سواه، لقوته المستعلية بسلطة الايجاد على كلّ قوّة.

[٢]. دنا بطوله: أي مع علوه دنا إلى خلقه بمنّه واحسانه إليهم.

[٣]. الأزل: الضيق والشدة والحبس.

[٤]. سوابغ النعم: أكمل النعم، من سبغ الظل: اذا عمّ وشمل.

[٥]. أوّلاً بادياً: سابقاً كلّ شيء من الوجود، ظاهراً بذاته مظهراً لغيره.

---

١. نفس المصدر، خ٨٣، ص١٠٧.

[٦]. انهاء عذره: ابلاغ.

[٧]. نذره: ج نذير، الأخبار الالهية المنذرة بالعقاب على سوء الأفعال.

[٨]. ضرب الأمثال: جاء بها في الملام، لايضاح الحجج وتقريرها في الأذهان.

[٩]. وقّت الاجال: جعلها في أوقات محدودة لا متقدم عنها ولا متأخر، وأقت ووقت بمعنى.

[١٠]. الرياش: ما ظهر من اللباس. وهو الريش واحد.

[١١]. أرفغ لكم المعاش: أي اوسع، يقال: رفغ عيشة رفاغةً: أي اتّسع فهو رافغ ورفيغ.

[١٢]. احاطكم بالاحصاء: أي جعل احصاء أعمالكم والعلم بها عملاً كالسور لا تنفذون منه ولا تتعدونه.

[١٣]. أرصد لكم الجزاء: أعدّه لكم فلا محيص عنه.

[١٤]. الرفد الرافغ: العطايا الواسعة.

[١٥]. الحجج البوالغ: الظاهرة البينة.

[١٦]. وظّف لكم مدداً: أي قدّر لكم، والمدد جمع مدّة، أي عيّن لكم أزمنة تحيون فيها.

[١٧]. في قراره خبرة: أي في دار ابتلاء واختبار، وهي دار الدنيا.

[١٨]. رنق: كفرح: كدرٌ. وهي صفة ل «عيش» المحذوفة.

[١٩]. ردغ: كثير الطين، والمشرع: مورد الشرب.

[٢٠]. يونق: يُعجب الناظر.

[٢١]. يوبق: يهلك من وبق يبق وبوقاً أي هلك.

[٢٢]. حائل: من «حال» اذا تحوّل وانتقل وزال، المتغير اللون، والغُرر: ما يغتر به من متاع الدنيا والغَرر (بالفتح) الشيطان.

[٢٣]. السناد: ما يُستند إليه، أو الدعامة للسقف.

[٢٤]. اطمأنّ ناكرها: ناكرها: اسم فاعل من نكر الشيء، من باب علم أي جهله فأنكره.

[٢٥]. قمص الفرس وغيره قمصاً وقماصاً أي استنّ: وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويعجن برجليه.

[٢٦]. قنصت بأحبلها: اصطادت بشباكها وحبالها.

[٢٧]. اقصدت: قتلت مكانها من غير تأخير، أصابت القصد.

[٢٨]. اعلقت... المنية: علقت به حبال الموت، ربطت، والاوهاق: جمع وهق: الحبل، فهي حبال في رأسها عصى معقوفة يستعملها السراق للتسلق وتسمى بالفارسية «كمند».

[٢٩]. ضنك المضجع: ضيق المرقد وهنا القبر.

[٣٠]. معاينة المحلّ: مشاهدة مكانه من النعيم والجحيم.

[٣١]. ثواب العمل: جزاؤه الأعم من شقاء وسعادة.

[٣٢]. الخلف: المتأخرون والسلف: المتقدمون، وعقب: أي بعد، قال ابن السكيت يقال: جئت عقب شهر اذا جئت بعد ما يمضي كلّه، وجئت في عقب اذا جئت وقد بقيت منه بقية.

[٣٣]. لا تقلع المنية اختراماً: أي لا تكفّ المنية عن استئصالها للأحياء.

[٣٤]. لا يرعوي الباقون: أي لا يرجعون ولا يكفون.

[٣٥]. الاجترام: افتعال من الجرم أي اقتراف السيئات.

[٣٦]. يحتذون مثالاً: أي يشاكلون بأعمالهم صور أعمال من سبقهم ويقتدون بهم، وأصله من حذوت النعل بالنعل، يقتدون.

[٣٧]. يمضون ارسالاً: جمع رسل: القطيع من الابل والغنم والخيل.

[٣٨]. صيّور الفناء: ما يؤول إليه، آخره، المصير.

[٣٩]. تقضت: انقضت وتصرمت وانقطعت.

[٤٠]. أزف النشور: قرب البعث.

[٤١]. الضرائح: جمع ضريح، الشق وسط القبر واللحد ما كان جانب القبر.

[٤٢]. الاوجرة: جمع: وجار، بيت السبع والضبع، والأوكار جمع وكر: عش الطائر ومثلها الوكن.

[٤٣]. مطارح: جمع مطرح: الموضع الذي يطرح إليه، المَفْرش.

[٤٤]. مهطعين: مسرعين إلى ميعاده الذي وعد به العباد.

[٤٥]. رعيلاً صموتاً: الرعيل: القطعة من الخيل، شبههم في تلاحق بعضهم ببعض برعيل الخيل.

[٤٦]. ينفذهم البصر: يجاوزهم، أي يأتي عليهم ويُحيط بهم، والمراد: لا يعزب واحد منهم عن بصر اللّه.

[٤٧]. لبوس الاستكانة: اللبوس ـ بالفتح ـ ما يلبس، والاستكانة: الخضوع.

[٤٨]. الضرع: الوهن، الضعف والخشوع.

[٤٩]. هوت الأفئدة: خلت من المسرّة والأمل من النجاة.

[٥٠]. كاظمة: ساكتة، كاتمة لما يزعجها من الفزع.

[٥١]. مهينمة: أي متخافية، والهينمة: الكلام الخفي.

[٥٢]. ألجم العرق: كثر حتى امتلأت به الأفواه لغزارته فمنعها من النطق، وكان كاللجام.

[٥٣]. الشفق: الخوف والحذر.

[٥٤]. ارعدت: عرتها الرعدة.

[٥٥]. زبرة الداعي: صوته وصيحته، ولا يقال زبرة إلاّ اذا كان فيها زجر وانتهار، فانّها واحدة الزبر أي الكلام الشديد.

[٥٦]. فصل الخطاب: بتّ الحكومة بين اللّه وبين عباده في الموقف.

[٥٧]. مقايضة الجزاء: المقايضة: المعاوضة، أي مبادلة الجزاء الخير بالخير والشر بالشر.

[٥٨]. النكال: العذاب، أو أشدّ أنواع العقاب.

[٥٩]. مربوبون: مملوكون، والاقتسار: الغلبة والقهر.

[٦٠]. الاحتضار: حضور الملائكة لقبض الروح.

[٦١]. الأجداث: جمع جدث: القبر، ومضمون الأجداث: مجعولون في ضمنها.

[٦٢]. الرفات: الحطام، ويقال رفته اى كسره ودقه، وفته بيده كما يُفت المدرُ والعظم البالي.

[٦٣]. مدينون: مجزيون، والدين: الجزاء.

[٦٤]. مميزون حساباً: كل يحساب على عمله منفصلاً عمّن سواه.

[٦٥]. المنهج: الطريقة الواضحة التي دلت عليها الشريعة المطهرة.

[٦٦]. وعمّروا مَهَل المستعيب: أي اوتوا من العمر مهلة من ينال الرضى لو أحسن العمل.

[٦٧]. سدف الريب: السدفة: الظلمة وقيل الضوء وهو من الأضداد، والريب جمع ريبة: وهي الشبهة والابهام في الأمر.

[٦٨]. خلوا المضمار الجياد: خُلوا: تركوا في مجال يتسابقون فيه الى الخيرات. والجياد من الخيل: كرامها، والمضمار: المكان الذي تضمر فيه الخيل، والمدة التي تضمر فيها أيضاً.

[٦٩]. روية الارتياد: اعمال الفكر في الأمر ليأتي على أسلم وجوهه والارتياد هنا طلب ما يراد.

[٧٠]. وأناة المقتبس المرتاد: الاناة: الانتظار والتؤدة، والمقتبس المرتـاد، أي الـذي أخذ بيده مصباحاً ليرتاد في ضوئه شيئاً غاب عنه، وهنا متعلّم العلم.

[٧١]. المضطرب: مدة الاضطراب أي: الحركة في العمل.

[٧٢]. صائبة: غير عادلة عن الصواب، وفي المثل مع الخواطي سهم صائب.

[٧٣]. اقترف: اكتسب، ووجل: خاف.

[٧٤]. بادر: أسرع.

[٧٥]. عُبّر فاعتبر: عُبّر مجهول، أي عرضت عليه العبر مراراً كثيرة، فاعتبر واتّعظ.

[٧٦]. ازدجر: امتنع عن الشيء وانتهى.

[٧٧]. أناب إلى اللّه: رجع، وتاب.

[٧٨]. احتذى: شاكل بين عمله وعمل مقتداه: أي أحسن القدوة.

[٧٩]. أفاد الذخيرة: استفادها واقتناها، وهو من الأضداد.

[٨٠]. استظهر زاداً: حمل زاداً حمّله ظهر راحلته الى الآخرة، واستظهر على فلان: غلبه، واستظهر القرآن: حفظه، واستظهر الزاد: أعدّه.

[٨١]. وجه السبيل: المقصد الذي يركب السبيل لأجله، وكنه ما حـذّركم، الكنـه الغاية والنهاية.

[٨٢]. تنجز الوعد: طلب وفائه على عجل، والناجز العاجل، وهو المواظبة علـى فعل الخير وترك الشرّ.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

لم أعثر على المناسبة التي اُلقيت من أجلها هذه الخطبة فيما راجعت من كتب وترجمات وشروح لنهج البلاغة الموجودة بين يدي، بل اكتفى اصحابها بذكر صفتها «الغراء» لما احتوت على معاني سامية وعجائب من البيان وبلاغة في الكلام، وشرح أحوال الانسان في النشأتين، حيث قال الرضي: انّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت لها العيون، ورجفت القلوب. وذلك لما تحتوي على عناصر الأدب الخالدة من مشاعر وأحاسيس انسانية، وصور بيانية من الخيال الرائع باسلوب مترقي في الصناعة البلاغية ومن فصاحة وبيان و... و...

٢. شرح النص

لقد تصدّرت الخطبة كالمعتاد بذكر الحمد الذي هو بجميع أصنافه خاص لذاته المقدس، فهو القادر على كلّ شيء، فهوذو القدرة فوق ما لا قدرة له، الداني بفضله وكرمه للناس، فالانسان المحسن لأخيه قريب إليه حسيّاً، وانّ اللّه عزّوجلّ قريب له معنوياً، صاحب الجود والكرم، كاشف الضرّ والألم، فالحمد لعطفه على الشعوب بآلائه وبافضال نعماته، من اعطاء نعمة الوجود والقدرة والادراك و... و... وآمن باللّه وحده والظاهر للعباد بقدرته، طالباً من قربه إليّ الهداية منه، وأستعين به وحده لاذلال الصعاب واحقاق الحقّ ومفوضاً أمري إليه، أليس اللّه بكاف عبده، وهو الناصر لمن انتصر به!او مصلّياً على رسولهﷺ الذي قلّده نوط العبودية، منفّذاً لأوامره، رادّاً للحجج والمعاذير البشرية، ومنذراً بالعذاب الأليم، موصياً الجماهير الالتزام بالتقوى، لأنها خير زاد، ثم محذّراً الشعوب مما مضى على

الامم السالفة من نزول البلاء والمحن، وهو الذي جعل لكم أعماراً مقدرة، وألبسكم الملابس الجميلة، وأسبغ عليكم الأرزاق، احصى النفوس عدداً وهو الذي أعدّ لكم الثواب وخصّكم بنعمه التي لا تحصى، سواءاً للمؤمن أو للكافر، وحذّرنا من مخالفته بالأدلّة الدامغة، فهو العالم بعددكم ونفوسكم، والممهد لأعماركم في الحياة الدنيا للبلاء وللاختبار، وهي دار اعتبار واتّعاظ للتمييز بين المؤمن والكافر، ويحاسبكم على الحلال والحرام. ثمّ يعرّج لوصف الدنيا التي ماءها كدر (همومها كثيرة)، مشاربها ملوثة بالطين (مصائبها جمّة) في ظاهرها الرحمة (لها مشاهد جميلة) وفي باطنها العذاب (محن وهجران)، غرورها زائل، وضوئها كالبرق الخاطف، لا يبقى نعيمها، ضعيف السناد لميلانه، ويطمئن الانسان إليها بعد جهد وتعب، فعندها ترفع الدنيا أرجلها وتطرح براكبها أرضاً (كالفرس الجموح) وتصيده بشبكتها، وتجعله مرمى لسهامها، فتُوقع الانسان في شرك الموت وتقوده الى القبر الضيق وإلى عالم الوحشة والانفراد، للوقوف ليوم الحساب ليرى الانسان نتيجة أعماله إمّا على جنّة وإمّا على نار، وهذا القانون سار المفعول من الآباء الى الأبناء، فالموت ماضٍ بأهله لاستئصال الشعوب، ولا يكف الحاضرون عن ما حلّ بالماضين من عذاب، وهم في الذنوب سائرون، وبالآباء مقتدون، مطابقة النعل بالنعل، ناهجون طريق الآثام كالأنعام والأغنام تسير بعضها أثر بعض، إلى الهلاك هدفاً وإلى الفناء وصولاً. حتى تحين القيامة، وتمضي السنوات وتقترب ساعة الحساب، وأخرجت الأرض مَن في القبور أو المناطق البعيدة كالجبال والصحاري وسوح القتال و من بطون الطير والوحوش باذن ربّها ، مسرعين للحضور في القيامة، جماعات مائلة الأعناق لا يتكلّمون، قائمين وقوفاً، خائفين، مصنّفين أقساماً، واللّه يحيط بهم علماً، والجميع يسمع نداء البعث للحساب، تحت السيطرة

الربانية، متسمين بالذل والمهانة والتسليم، حيث تاهة الأفكار وانفصم الرجاء إلاّ من ربّ العباد، فالأفئدة فارغة والأصوات خفية، كما يوضع اللجام على الأفواه والعرق متصبب (من شدّة الهول) والخوف عظيم، فترتعد الاذن لصوت الداعي الزاجر لقيام الحساب وأخذ الجزاء من ثواب أو عقاب.

فالناس مخلوقون بقدرته، ومملوكون بقهره وغلبته، وأرواحهم بقبضته ساكنين القبور (فيا لها من وحشة)، مصبحين عظاماً وتراباً، يوم القيامة يأتون أفراداً (بلا أهل ولا عشيرة)، مثابون على أعمالهم ان خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، كما يقول المثل: كما تدين تدان، ويفرد لكل انسان حساب حتى يتميز الخبيث من الطيب.

حيث فتح لهم في الدنيا باب المتاب، وهداهم سبيل الرشاد، وعمّرهم وقتاً طويلاً حتّى يتقرّبوا إليه، وأزاح الشبهة عن طريقهم، وفسح لهم المجال لاستباق الخيرات كما تعطى الفرصة لأضمار الخيل استعداد للسباق، ويبتغون الخلاص من العذاب بتأن لا عجلة فيه ولا اضطراب، فما أعظمها من أمثلة ناصعة، ونصائحه كافية، اذا لاقت قلوباً طاهرة واذناً واعية وآراء نافذة، وعقولاً ثاقبة.

فالخوف من اللّه والخشية منه وحده، فمن اكتسب ذنباً ندم، ومن خاف الآخرة عمل وأسرع، وأيقن بالحق وأحسن العمل، واعتبر بالحكم وازدجر بالمواعظ واستسلم للّه، وتاب إليه، وأحسن الاقتداء (برسولهﷺ والقرآن الكريم)، ورأى الحقائق فأسرع في الخيرات، وفرّ من الهلكات، فادّخر الأعمال الصالحة واقتدى بالصالحين من الأئمّة الهادين وسار على نهج خطاهم وحسن باطنه، وعمّر آخرته.

وحمل زاده لآخرته، حيث مقصده النهائي، وموطن حاجته، وقدّم العمل لدار بقائه.

أيها الناس اتقوا ربّكم واعبدوه حقّ عبادته، والحذر عمّا نهاكم عنه، واطلبوا منه الثواب بانجاز الأعمال الصالحة لأنّ القيامة ميزان الأعمال.

٣. الأفكار

اعتمد الامام علي عليه السلام في بيان أفكاره على الوصف الحسّي الدقيق كما هو دأبه في الخطب، وإليك رصد لأهم الأفكار، فمنها الحمد للّه، وبيان صفاته تعالى، والوصية بالتقوى، ووصف الدنيا والآخرة، وبيان صفات الجمهور، وذكر أمثال حكمية عن طريق الوعظ والارشاد، والاعتبار بالموت، والتحذير من الشيطان والعبرة بالماضين من الامم، والخلاصة ان الخطبة تدور على تعريف الدنيا وموقفنا العبادي منها.

٤. الاستهلال

خلافاً للشعر السائد آنئذٍ الذي كان يستهل مقدمته بذكر الاطلال والدمن، تجد خطبه عليه السلام تجعل السامع أمام حضور عبادي من ذكر التوحيد والايمان بالرسول صلى الله عليه وآله وبالقيامة و...

٥. العواطف

قال الرضي: لما خطب الامام علي عليه السلام هذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت لها العيون ورجفت القلوب، وما هذه الامارات إلاّ علائم الخوف الشديد،

فالرعدة تصيب الانسان عند الخوف، والبكاء وسيلان الدموع تجري لمّا يشتد الحزن في باطن الانسان، وشدّة الاضطراب تصل الى القلب وتكاد تنفصل أوتاده لّما يرى الأهوال عظيمة. فلنر هذه المشاهد عن كتب:

اولاً) مشهد الحمد: قال الامام الخوئي(ره)، «ثم ان الثناء على الفعل الجميل قد يكون ناشئاً عن ادراك الحامد حسن ذات الفاعل وصفاته من دون نظر الى انعامه، أو الرغبة فيه، أو الرهبة منه، وقد يكون ناشئاً عن النظر إلى أحد هذه الامور الثلاثة»[١]. فمنذ المبادرة الاولى كان الخطيب (الامام علي عليه السلام) متأثراً بعنصر العاطفة، وأظنّ أنّ الأسباب الثلاثة المذكورة آنفاً تجلت في كلامه عليه السلام.

ثانياً) مشهد الفرح: ثم انظر إلى كلامه عليه السلام علا... ودنا، مانح... وكاشف...، فالشعور بالقرب الالهي والاحساس بالعلو الرباني وادراك المنح ودرأ السوء من عند اللّه يزيد النفس فرحاً وسروراً، وبالتالي يشعر الانسان بطاقة عظيمة فوق طاقته التي تسانده، وبقدرة لا تقهر أبداً، وكفى باللّه نصيراً، ثم يستمر في اظهار هذا الفرح المنحدر من شلال العاطفة لآلآئه المتواصلة، وهدايته الدائمة و... و...

ثالثاً) انّ أساس التقوى هوالخوف، فهو البنيان الرصين، ولابدّ للخطيب أن يكون متمسكاً به ولولا ذلك لما أثّر في نفوس الجماهير، ومن جهة أُخرى ان المستحق للخوف هو الذي بيده كلّ شيء والقادر على كلّ شيء و... و...

رابعاً) الحذر من الدنيا فالعمل بالاحتياط ناشئ عن الخوف، فانظر الى النفس الأمّارة التي تتعامل مع الدنيا أخذاً وعطاءاً، عالمة بزوالها ومصائبها وغرورها و... و...، فعند ما تركن النفس إليها، تقع في شراكها وتطرحه أرضاً

---

١. البيان، ص٤٨٧.

جثة بلا روح، فانك لتلمس عنصر العاطفة هنا تجلى في التحذير(الخوف) من الدنيا.

خامساً) التعامي، فهي حالّة نفسيّة تنشأ من الطغيان والغرور ومن عدم المبالاة وعدم الاتّعاظ بالعبر الماضية، ويتجلى ذلك في قولهعليه السلام وكذلك الخلف يعقب السلف إلى قولهعليه السلام ولا يرعوي الباقون و...

سادساً) من مشاهد الأهوال يوم المحشر، الخروج من القبور، وبطون الوحوش، بسرعة فائقة، في حالة الذلة والمسكنة، جماعات مجتمعة، والخوف يتبعهم في كلّ جارحة، والآمال منقطعة، والأفئدة فازعة، والأصوات خافية، والعرق متصبب، فواللّه لترى في كلّ مشهد منها الموت والمرارة، ولكن لا سبيل إلى النجاة. فأين المفرّ؟

سابعاً) اغتنام الفرص، فالذكي هو الذي ينتهز فرص الخير طول العمر حتّى يستبق الخيرات ويتّعظ بالعبر والنصائح، وهكذا تستمر العاطفة كالنار الملتهبة في ايثارة النفوس طاقة وقدرة.

والعاطفة احياناً تتصاعد خلال الخطبة حسب الموقف النفسي، فالتصاعد مثلاً قولهعليه السلام: فاتّقوا تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبّر فاعتبر، وحُذّر فازدجر، وأجاب فأناب، احتفظت به قرارين متصلين مثل «سمع فخشع» «اقترف فاعترف» وأهمية التنوع في الايقاع يساهم في التصعيد بالموقف العاطفي مع توالي التحذيرات.

٦. الخيال

أولاً) دار الحرب، يقول البستاني: فلو وقفنا على هذه الصورة: (قمصت بأرجلها وقنصت بأحبلها) لوجدنا جملة من الأسرار الفنية في صياغتها، وفي تجانسها الصوتي، وفي تجانسها مع فكرة النص، فقد صيغت (من حيث الصوت) متجانسة «قمصت، قنصت، بأرجلها، بأحبلها» وصيغت (من حيث التركيب) متجانسة مع هدف الخطبة، فقمص الأرجل هو «رفعها وطرحها» وقنص الأحبل هو «الاصطياد بحبائل الدنيا» حيث تستهدف الصورتان ما يلي: «ان الموت هو نهاية هذه الحياة» لكن كيف تمّ ذلك؟ هناك عنصران: «المباغتة» و«المخادعة»، يقترنان مع الحياة، فالمباغتة هي رفع الأرجل ووضعها حيث ينتهي معها كلّ شيء، والمخادعة هي اصطياد الانسان بشباكها، وهذان العنصران من أبرز مظاهر «الحرب» وأنجح وسائلها في احراز النصر، فالدنيا هي الطرف الأوّل من المعركة، والانسان هو طرفها الآخر، والدنيا تمارس هاتين الوسيلتين في حربها مع الانسان، انها تستخدم عنصر المباغتة (قمصت بأرجلها) ثمّ تستخدم عنصر المخادعة (قنصت بأحبلها)[1].

ثانياً) الصور البيانية: منها «مراعات النظير»[2] الذي يقول فيه ابن أبي الحديد: «ومن ألطف ما يستخدمه أرباب البلاغة، انه عليه السلام جعل قريباً هادياً مع قوله «استهديه» لأن الدليل القريب منك أجدر بأن يهديك من البعيد النازح، ولم يجعله مع قوله «واستعينه»، وجعل مع الاستعانة قاهراً قادراً لأن القادر يليق أن يستعان ويستنجد به ولم يجعله قادراً قاهراً مع التوكل عليه وجعل مع التوكل كافياً

---

١. البستاني، تاريخ الأدب العربي، ص٢٢٠.

٢. هي الجمع بين أمرين أو أمور متناسبة، لا على جهة التضاد...

ناصراً لأن الكافي الناصر أهل لأن يتوكل عليه، وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التي فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء»[1]. وكذا الكلام في قوله عليه السلام: ام هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار نطفة دهاقاً وعلقة... إلى قوله عليه السلام ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً، الذي أعرضنا عنها من الخطبة.

ومنها الكناية، حيث استخدمها الامام عليه السلام في كلامه كثيراً فانظر إلى قوله «فان الدنيا رنق مشربها» كنّى بها عن آلام الدنيا وهمومها، فهي مثل الماء الكدر الذي لا يهنأ شاربه. وثم انظر إلى قوله «وأوكار الطيور وأوجرة السباع» حيث كنّى عن الأوكار والاوجرة عن بطون الطيور والحيوانات المفترسة، وأخيراً انظر إلى كلامه «عليهم لبوس الاستكانة» وهذه كناية عن انّهم خاضعون كلّ الخضوع حتى كأنّهم لابسون لباس الخضوع من رأسهم حتى أقدامهم وكذلك القول في «انهاء عذره» {فانّها كناية عن الحجج العقلية والنقلية التي اقيمت ببعثه النبي صلى الله عليه وآله}[2].

ومنها الاستعارة ففي قوله عليه السلام: قمصت بأرجلها وقنصت بأحبلها، استعارتان مكنيتان، وكذلك القول في باقي الكلام من أقصدت بأسهمها و... إلى آخره. وهكذا نجد هذه الاستعارة قائمة في قوله عليه السلام قد ضلت الحيل، فهي استعارة مكنية، لأن الضلال من لوازم الانسان فجعله للحيل على طريقة الاستعارة المكنية، وكذاالكلام في انقطاع الأمل وهوت... و...

ومنها التشبيه البلىغ يتجلى في قوله عليه السلام: غرور حائل، وضوء آفل، وظلّ زائل، وسناد مائل، على تقدير الكاف فيها. وكذلك قوله عليه السلام: رعيلاً صموتاً وقياماً

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٨٦.

٢. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص٥٨٨.

صفوفاً، وفي كلامه «استظهر زاداً فيه تمثيل»[1]. وأخيراً ذكر ابن أبي الحديد في شرحه (ج٢، ص٨٧)، ان «البسكم... وآثركم...» من المجاز، ولكن يظهر لي انّه من باب الاستعارة المكنية.

ثالثاً) الفن البديعي: من أجل أن يتمّ التوازن والتجانس والتوازي بين الأصوات التي لها أثر سحريّ كبير على النفس فقد وظّف الامامعليه السلام الصناعات البديعية في هذه الخطبة فمنها التشطير[2] في قولهعليه السلام:

١. ... الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كلّ غنيمة وفضل، وكاشف كلّ عظيمة وازل. احمده على عواطف كرمه، وسوابع نعمه، واومن به أوّلاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً... فالسجع في كل من «بحوله وبطوله» (الهاء) يختلف عن «كل غنيمة وفضل، كل عظيمة وازل» (اللام)، وهكذا في البواقي.

٢. قولهعليه السلام: الذي ضرب لكم الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وألبسكم الرياش وأرفغ لكم المعاش،... فالسجع في الأمثال والآجال هو اللام ولكن في الفقرة الآخرى تتبدل الى «الشين» وهكذا الأمر جاري في انحاء الخطبة.

ومنها: المقابلة، يقول ابن أبي الحديد في قولهعليه السلام: الذي علا بحوله ودنا بطوله، «ان دنا في مقابلة علا لفظاً ومعنى، وكذلك حوله وطوله... فانهما يتناسبان لفظاً وليسا متقابلين معنى، لأنهما ليسا ضدين كما في العلو والدنو، قلت: بل فيهما معنى التضاد، لأن الحول هو القوة وهي مشعرة بالسطوة والقهر، ومنه منشأ

---

١. نفس المصدر، ص٥٩٢.

٢. هو أن يقسم الشاعر بيته شطرين ثم يُصرّع كلّ شطر من الشطرين، ولكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر، نهاية الأرب، ج٧، ص،١٤٧ ومن الممكن أن يطبّق هذا التعريف على النثر وخاصة في هذه الخطبة(٨٣).

الانتقام، والطول والافضال والتكرم وهو نقيض الانتقام والبطش»[1] ومنها الجناس، ففي قوله عليه السلام: ووظّف لكم مدداً في قرار خبرة، ودار عبرة، فالخاء في خبره، والعين في عبرة من الحروف الحلقية وهو من الجناس المذيل، وكذلك في قوله عليه السلام: عباد مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً، فالدال من اقتدار، والسين من اقتسارهما من الحروف الذولقية وهو أيضاً من الجناس المذيل، وكذلك في قوله عليه السلام: فظل سادراً وبات ساهراً، وقوله عليه السلام لا تقلع المنية اختراماً ولا يرعوي الباقون اجتراماً، فكل من الدال والهاء (في سادر وساهر) والخاء والجيم (من اختراماً واجتراماً) جناس لاحق لاختلف الحرفين من حيث المخرج. وفي قوله عليه السلام: يونق منظرها ويوبق مخبرها، جناس مصحّف. وفي قوله عليه السلام الحمد للّه الذي علا بحوله ودنا بطوله، جناس تقارب. ومنها ردالعجز على الصدر في قوله عليه السلام استهديه قريباً هادياً.

وقفة مع الكلمات

لا ينكر أحد من أصحاب الفن مسؤولية الكلمة في أداء المعنى، وبعبارة أُخرى ان بعض الكلمات لها قدرة تحمّل عظيمة وطاقة كبيرة، لأداء وظيفتها اتجاه المعاني، فبناءاً على هذا نلفت انتباه القراء الى دور الألفاظ وبخاصة في هذه الخطبة الغراء فنقول:

١. قوله عليه السلام: الحمد للّه الذي... ف«الحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمها لأنك تحمد الانسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته. وانما كان الحمد رأس الشكر كما جاء في الحديث النبويّ (الحمد رأس الشكر، ما

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٨٦.

شكر اللّه عبد إلاّ بحمده)، لأنه فيه اظهار النعمة والاشارة بها ولأنه أعم منه، فهو شكر وزيادة.

والحمد يدل على كرم الحامد، وانه القائم بما عليه من اظهار ما أسدى إليه المحمود، وممّن يقدّره بما يوجب الزلفى لديه... والحمد تعظيم المحمود بما يليق به»[1]. وكذلك «الحمد ضد اللؤم، وهو لا يكون الاّ على الفعل الاختياري الحسن، سواء أكان احساناً للحامد أم لم يكن...»[2].

فانظر الى سمو هذه الكلمة التي احتوت على معاني العموم ورأس الشكر واظهار النعمة وكرم الحامد وعظم المحمود وانها ضد اللؤم ولا تستخدم إلاّ في الأفعال الحسنة الاختيارية.

ويقول السيد الخوئي(ره): «إنّ طبيعة الحمد وجنسه تختصّ به تعالى وذلك أولاً: انّ حسن الفعل وكماله ينشأ من حسن الفاعل وكماله، واللّه سبحانه هو الكامل المطلق الذي لا نقص فيه من جهة أبداً... ثانياً: ان الفعل الحسن الصادر من اللّه تعالى لا يرجع نفعه إليه، لأنه الكامل المطلق الذي يستحيل عليه الاستكمال، وفعله انما هو احسان محض يرجع نفعه الى المخلوقين... فالاحسان المحض انما هو فعل اللّه تعالى لا غير فهو المستحق للحمد دون غيره»[3].

ثم انه عليه السلام استعان بالجملتين الاسمية (الحمد للّه...) والتي تحمل في طياتها حالة الثبوت والاستمرار، والفعلية (أحمده على عواطف كرمه...) التي تحمل معها

---

١. الأمثال والحكم، ص١٢٥.

٢. البيان: ص٤٨٣.

٣. نفس المصدر ص:٤٨٥.

حالة التجدد والاستمرار، فبذلك اتمّ البيان وأكمل الخطاب وقطع كلّ شكّ وارتياب، فما أبدعها من صورة وجمال.

٢. قوله عليه السلام: كاشف كل عظيمة، يعني مكروه، وذلك تشبيهاً للمكاره بالغاشية التي تغشى الناس فاذا ازيلت فقد كشفت.

٣. قوله عليه السلام: واحاطكم بالاحصاء، اعلم ان الاحاطة أعمّ من الاحصاء لأنها تشمل الموجود والمعدوم، ولا يكون الاحصاء الاّ في الموجود.

٤. قوله عليه السلام: أخرجهم من ضرائح القبور، ضرائح جمع ضريح هو الشق وسط القبر، وأصله من ضرحه بمعنى دفعه، وسمي بذلك لعلاقة الحال والمحل فان الميت مدفوع إلى هناك.

٥. قوله عليه السلام: ومقبضون احتضاراً، هذا التعبير والتعابير الماضية ما هي الاّ من روائع الفنّ الأدبي بحق، فانظر إلى معنى الموت الذي يقع بحسب أنواع الحياة، «ما هو بازاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات كقوله تعالى: ويحيي الأرض بعد موتها (الروم، ٥٠)، ومنها زوال القوة الحسية، كقوله تعالى: يا ليتني متُ قبل هذا (مريم، ٢٣)، ومنها زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله تعالى: أو من كان ميتاً فأحييناه (الأنعام، ١٢٢)، وانّك لا تسمع الموتى (النمل، ٨٠)، ومنها الحزن والخوف المكدّر للحياة، كقوله تعالى: ويأتيه الموت من كلّ مكان وما هو بميت (ابراهيم، ١٧)، وقد يستعار للأحوال الشاقة، كالفقر والذل والسؤال والهدم...»[١].

٦. قوله عليه السلام: وأناة المقتبس المرتاد، «قال الشيخ محمد عبده، المقتبس المرتاد أي الذي أخذ بيده مصباحاً ليرتاد على ضوئها شيئاً غاب عنه، ومثل هذا يتأنى

---

١. مجمع البحرين، ص١٤٣.

في حركته خوف ان يطفأ مصباحه وخشية ان يفوته في بعض خطواته ما يفتش عليه لو أسرع، فلذا ضرب المثل به»[1].

٧. قولهعليه السلام: وعبّر فاعتبر: أي أرى العبر مراراً كثيرة، لأنّ التشديد هنا يدل على التكثير.

العجب العجاب

ونختم كلامنا هنا بقول ابن أبي الحديد: «واعلم أنّنا لا يتخالجنا الشك في انهعليه السلام، أفصح من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين، إلا من كلام اللّه سبحانه وكلام رسول اللّهصلى الله عليه وآله، وذلك لأن فضيلة الخطيب والكاتب في خطابته وكتابته تعتمد على أمرين هما مفردات الألفاظ ومركباتها:

اما المفردات: فان تكون سهلة سلسة غير وحشية ولا معقدة وألفاظهعليه السلام كلّها كذلك.

فأمّا المركبات: فحسن المعنى وسرعة وصوله إلى الافهام واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض وتلك الصفات هي الصناعة التي سماها المتأخرون البديع من المقابلة والمطابقة وحسن التقسم وردّ آخر الكلام على صدره والترصيع والتسهيم والتوشيح والمماثلة والاستعارة ولطافة استعمال المجاز والموازنة والتكافؤ والتسميط والمشاكلة. ولا شبهة ان هذه الصفات كلّها موجودة في خطبه وكتبه، مبثوثة متفرقة في فرش كلامهعليه السلام وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره. فان كان قد تعملها وأفكر فيها واعمل رويته في رصفها ونثرها فلقد أتى بالعجب العجاب، ووجب أن يكون امام الناس كلّهم في

---

١. في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص٣٩٢.

ذلك، لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله، وان كان اقتضها ابتداءاً وفاضت على لسانه مرتجلة وجاش بها طبعه بديهة من غير رؤية ولا اعتمال، فاعجب واعجب، وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلياً، والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره ويحقّ ما قاله معاوية[1] لمحقن الضبيّ لما قال له: جئتك من عند أعيا الناس! فقال: يا ابن اللخناء[2]، ألِعليّ تقول هذا، وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره.

واعلم ان تكلّف الاستدلال على ان الشمس مضيئة، يتعب وصاحبه منسوب إلى السفه، وليس جاحد الامور المعلومة علماً ضرورياً بأشدّ سفهاً ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها»[3].

٧. الاقتباس

قلنا من قبل انّ نهج البلاغة للامام عليعليه السلام وليد القرآن الكريم، فهو الابن البارّ الذي عاش مع القرآن حياته، ومضى في ظله، وما تأسس كلامه إلاّ على الآيات العظيمة، ذلك هو النبع العظيم والمصدر القويم لخطبه الأدبية، فانظر إلى كلماته والآيات القرآنية فيما يلي:

١. قولهعليه السلام: ألبسكم الرياش، مقتبس من قوله تعالى: يواري سواتكم وريشاً (الأعراف، ٢٦).

٢. قولهعليه السلام: وأنذرتكم بالحجج البوالغ، مقتبس من قوله تعالى: فلله الحجة البالغة (الأنعام، ١٤٩).

---

١. والفضل ما شهدت به الأعداء.

٢. اللخناء: الرجل الذي يتكلّم بقبح، ولخن بمعنى انتن.

٣. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٩٩.

٣. قولهعليه السلام: ووقّت لكم الآجال، مقتبس من قوله تعالى: فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (الأعراف، ٣٤).

٤. قولهعليه السلام: وآثركم بالنعم السوابغ، مقتبس من قوله تعالى: واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (لقمان، ٢٠).

٥. قولهعليه السلام: ويوبق مخبرها، مقتبس من قوله تعالى: وجعلنا بينهم موبقاً (الكهف، ٥٢).

٦. قولهعليه السلام: ووحشة المرجع، مقتبس من قوله تعالى: ثمّ إليّ مرجعكم (آل عمران، ٥٥).

٧. قولهعليه السلام: وارفّ النشور، مقتبس من قوله تعالى: أزفت الآزفة (النجم، ٥٧).

٨. قولهعليه السلام: عليهم لبوس الاستكانة، مقتبس من قوله تعالى: وعلمناه صنعة لبوس لكم (الأنبياء، ٨٠).

٩. قولهعليه السلام: أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطاح المهالك، المعنى مقتبس من قوله تعالى: وهو على جمعهم اذا يشاء قدير (الشورى، ٢٩).

١٠. قولهعليه السلام: سراعاً إلى أمره، مقتبس من قوله تعالى: يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً (ق، ٤٤).

التحليل الاعرابي

الذي: اسم موصول مبني صفة لـ«اللّه» محلاً مجرور، وأوّلاً: امّا حال وامّا منصوب على الظرفية، والأول أولى، وأصله أوأل على أفعل، مهموز الوسط قلبت

الهمزة واواً وأدغم، يدل على ذلك قولهم هذا أول منك، والاتيان بحرف جر دليل على انه أفعل. والاحصاء: اما مفعول به وأما مطلق مثل قعدت جلوساً. قولهعليه السلام أنتم مختبرون فيها ومحاسبون عليها، فالضمير في «فيها، وعليها» ليس واحد، فانه في فيها يرجع إلى الدار وفي عليها يرجع إلى النعم والرفد، ويجوز أن يكون الضمير في عليها عائد إلى الدار على حذف المضاف أي على سكانها، والثاني أقرب للصواب. والآجال والرياش والمعاش، مفعولات به، وعدداً: مفعول مطلق، وقيل تمييز محول عن مفعول، والأصل أُحصى عددكم ومثله وفجّرنا الأرض عيوناً، وفي جملة «انّ الدنيا رنق مشربها»، فجملة رنق مشربها مؤلفة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة خبر لأن واسمها الدنيا، وحائل صفة لغرور، وقائدة: حال للمنية، واختراماً: منصوب بنزع الخافض أي عن اخترام، ومثله اجترام، ومثالاً: حال او مفعول مطلق، وعليهم: خبر للبؤس. وعبادٌ مخلوقون، خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنتم، اقتداراً واقتساراً: منصوبان على التمييز وقيل مفعول مطلق، احتضاراً: حال ويحتمل أن يكون مفعولاً مطلقاً، واجداثاً مفعول فيه، ورفاتاً: منصوب بكائنون، وافراداً: حال، وجزاءاً: مفعول مطلق لأن «مدينون» بمعنى مجازين. وحساباً: قيل مفعول مطلق وقيل منصوب بنزع الخافض، وقال محمد جواد مغنيه والصحيح انه مفعول لأجله اي أنتم مميزون غداً من أجل الحساب. ويا لها: الياء حرف نداء، والمنادى محذوف أي يا قوم، واللام في لها للتعجب وقيل للاستغاثة. وامثالاً: تمييز مبين لضمير (لها) وطالباً: حال، ومثله هارباً، وجهة ظرف متعلق بمحذوف حالاً من واو اتقوا أي متوجهين إلى الجهة التي خلقتم، وقيل منصوب بفعل مقدر تقديره واقصدوا، والباء: في بالتنجز متعلقة باستحقوا، والحذر: مجرور بالعطف على التنجز لا على الصدق لأنه لا معنى له.

الدرس السابع

الوثيقة الاسلامية الكبرى

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللّه عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤمِنينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ[1] فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلاّهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بلادِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللّه وَ إِيْثَار طَاعَتِهِ، وَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَ سُنَنهِ الَّتِي لا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاّ باتِّبَاعِهَا، وَ لا يَشْقَى إِلاّ مَعَ جُحُودِهَا وَ إِضَاعَتِهَا، وَ أَنْ يَنْصُرَ اللّه سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَ يَدِهِ وَ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصرِ مَنْ نَصَرَهُ وَ إِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَ يَزَعَهَا[١] عِنْدَ الْجَمَحَاتِ[٢]، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ مَا رَحِمَ اللّه.

---

١. مالك الأشتر في سطور: أصله من اليمن، وهو من زعماء العرب وفرسانهم وأكياسهم، ومن رؤوس الشيعة الموالين لأهل البيتعليهم السلام، وكان الامام يعتمد عليه ويدخره للمهمات، وقال فيه: ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، الرسالة ١٣، وقال أيضاً فيه :كان لنا ناصحاً، وعلى عدونا شديداً، الرسالة ٣٤، وأخيراً نذكر قوله٧ فيه :كان لي، كما كنت لرسول(ص)، وسمّي بالأشتر لخرق جفنه الأسفل في بعض الحروب.وهذه الرسالة ٥٣،من صبحي الصالح ص:٤٢٦.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بلادٍ قَـدْ جَـرَتْ عَلَيْهَـا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ. وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَـا كُنْـتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاةِ قَبْلَكَ، وَ يَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ. وَ إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللّه لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَ شُحَّ[٣] بِنَفْسِكَ عَمَّا لا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّـتْ أَوْ كَرِهَـتْ. وَ أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَ الْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَ اللُّطْفَ بِهِمْ. وَ لا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَ إِمَّا نَظِيـرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ يَفْرُطُ[٤] مِنْهُمُ الزَّلَلُ[٥]، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ وَ يُؤتَى عَلَـى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَ الْخَطَأَ فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَ صَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَ تَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللّه مِنْ عَفْوِهِ وَ صَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِـي الْـأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَ اللّه فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ. وَ قَدِ اسْتَكْفَاكَ[٦] أَمْـرَهُمْ وَ ابْـتَلاكَ بِهِمْ. وَ لا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللّه[٧] فَإِنَّهُ لا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ[٨]، وَ لا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَ رَحْمَتِهِ. وَ لا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَ لا تَبْجَحَنَّ[٩] بِعُقُوبَةٍ، وَ لا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ[١٠] وَجَدْتَ مِنْهَـا مَنْدُوحَـةً[١١]، وَ لا تَقُـولَنَّ إِنِّـي مُؤَمَّرٌ[١٢] آمُرُ فَأُطَاعُ فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ[١٣] فِي الْقَلْبِ، وَ مَنْهَكَةٌ[١٤] لِلدِّينِ، وَ تَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ[١٥]. وَ إِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً[١٦] أَوْ مَخِيلَةً[١٧] فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللّه فَوْقَكَ وَ قُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَـى مَـا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ[١٨] إِلَيْـكَ مِـنْ طِمَاحِـكَ[١٩] وَ يَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ[٢٠]، وَ يَفِيءُ[٢١] إِلَيْكَ بِمَا عَـزَبَ[٢٢] عَنْـكَ مِـنْ عَقْلِكَ.

إِيَّاكَ وَ مُسَامَاةَ[٢٣] اللّه فِي عَظَمَتِهِ وَ التَّشبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللّه يُذِلُّ كُلَّ جَبَّار وَ يُهِينُ كُلَّ مُخْتَال.

أَنْصِفِ اللّه وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَ مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَ مَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى[٢٤] مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلاّ تَفعَلْ تَظْلِمْ، وَ مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللّه كَانَ اللّه خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَ مَنْ خَاصَمَهُ اللّه أَدْحَضَ[٢٥] حُجَّتَهُ وَ كَانَ للّه حَرْباً[٢٦] حَتَّى يَنْزِعَ[٢٧] أَوْ يَتُوبَ. وَ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللّه وَ تَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللّه سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَ هُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَ لْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَ أَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَ أَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ[٢٨] بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَ إِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَ أَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاءِ، وَ أَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَ أَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ[٢٩]، وَ أَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَ أَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَ أَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَ إِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَ جِمَاعُ[٣٠] الْمُسْلِمِينَ وَ الْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ[٣١] لَهُمْ وَ مَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَ أَشْنَأَهُمْ[٣٢] عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ[٣٣] لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا. فَلا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَ اللّه يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ. فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللّه مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ ،أَطْلِقْ[٣٤] عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ،وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ[٣٥]، وَ

تَغابَ[٣٦] عَنْ كُلِّ مَا لا يَضِحُ[٣٧] لَكَ، وَلا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ[٣٨] غَاشٌّ وَ إِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَ لا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ[٣٩] وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ[٤٠]، وَ لا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَ لا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ[٤١] بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَ الْجُبْنَ وَ الْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى[٤٢] يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللّه. إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَ مَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ فَلا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً[٤٣] فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ[٤٤] وَ إِخْوَانُ الظَّلَمَةِ[٤٥]، وَ أَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَ نَفَاذِهِمْ، وَ لَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ[٤٦] وَ أَوْزَارِهِمْ[٤٧] وَ آثَامِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَ لا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ. أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَئُونَةً، وَ أَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَ أَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَ أَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً[٤٨]. فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَ حَفَلاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَ أَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللّه لِأَوْلِيَائِهِ وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَ الْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَ الصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ[٤٩] عَلَى أَلاّ يُطْرُوكَ وَ لا يَبْجَحُوكَ[٥٠] بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ[٥١] وَ تُدْنِي[٥٢] مِنَ الْعِزَّةِ.

وَ لا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَ الْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَ تَدْرِيباً لِأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ وَ أَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَ تَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَ تَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ[٥٣] فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ

حُسْنُ الظَّنِّ برعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً[٥٤] طَويلاً ،وإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاؤكَ عِنْدَهُ، وَ إِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاؤكَ عِنْدَهُ[٥٥].

وَ لا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَ اجْتَمَعَتْ بهَا الأُلْفَةُ، وَ صَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَ لا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَ الْوِزْرُ عَلَيْكَ بمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

وَ أَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَ مُنَافَثَةَ[٥٦] الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بلادِكَ وَ إِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَ اعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاّ ببَعْضٍ، وَ لا غِنَى ببَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللّه، وَ مِنْهَا كُتَّابُ[٥٧] الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ، وَ مِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَ مِنْهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَ الرِّفْقِ، وَ مِنْهَا أَهْلُ الْجزْيَةِ وَ الْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَ مُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَ مِنْهَا التُّجَّارُ وَ أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَ مِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ ،وَ كُلٌّ قَدْ سَمَّى اللّه لَهُ سَهْمَهُ[٥٨]، وَ وَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابهِ أَوْ سُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ بإِذْنِ اللّه حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَ زَيْنُ الْوُلاةِ، وَ عِزُّ الدِّين، وَ سُبُلُ الْأَمْنِ، وَ لَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاّ بهِمْ، ثُمَّ لا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاّ بمَا يُخْرِجُ اللّه لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بهِ عَلَى جهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَ يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ[٥٩]، ثُمَّ لا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاّ بالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَ الْعُمَّالِ وَ الْكُتَّاب لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ

الْمَعَاقِدِ[٦٠]، وَ يَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَ يُؤتَمنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَ عَوَامِّهَا.

وَلا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إلاّ بالتُّجَّار وَ ذَوِي الصِّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ[٦١]، وَ يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَ يَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّق[٦٢] بأَيْدِيهِمْ مَا لا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ[٦٣] وَ مَعُونَتُهُمْ.

وَ فِي اللّه لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَ لِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَ لَيْس يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللّه مِنْ ذَلِكَ إلاّ بالاِهْتِمَامِ وَ الاِسْتِعَانَةِ باللّه، وَ تَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَ الصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ. فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للّه وَ لِرَسُولِهِ وَ لإِمَامِكَ، وَ أَنْقَاهُمْ جَيْباً[٦٤]، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً[٦٥] مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَب، وَ يَسْتَرِيحُ إلَى الْعُذْر، وَ يَرْأَفُ بالضُّعَفَاء وَ يَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاء[٦٦] وَ مِمَّنْ لا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ وَ لا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَ الْأَحْسَاب وَ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَ السَّوَابقِ الْحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَ الشَّجَاعَةِ وَ السَّخَاء وَ السَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ[٦٧] مِنَ الْكَرَمِ، وَ شُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ[٦٨]، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَ لا يَتَفَاقَمَنَّ[٦٩] فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بهِ، وَ لا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً[٧٠] تَعَاهَدْتَهُمْ بهِ وَ إنْ قَلَّ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وَ حُسْنِ الظَّنِّ بكَ. وَ لا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَ لِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَ لْيَكُنْ آثَرُ[٧١] رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدكَ مَنْ وَاسَاهُمْ[٧٢] فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ[٧٣] عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ[٧٤] بِمَا يَسَعُهُمْ وَ يَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ[٧٥] أَهْلِيهِمْ حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلادِ وَ ظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ و إِنَّهُ لا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاّ بِسَلامَةِ صُدُورِهِمْ، وَ لا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاّ بِحِيطَتِهِمْ[٧٦] عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ، وَ قِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَ تَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَ وَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَ تَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاءِ[٧٧] مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ[٧٨] وَ تُحَرِّضُ النَّاكِلَ[٧٩] إِنْ شَاءَ اللّه، ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَ لا تَضُمَّنَّ بَلاءَ امْرِئٍ[٨٠] إِلَى غَيْرِهِ، وَ لا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلائِهِ، وَلا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَ لا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً.

وَارْدُدْ إِلَى اللّه وَ رَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ[٨١] مِنَ الْخُطُوبِ وَ يَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللّه تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّه وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّه وَ الرَّسُول» فَالرَّدُّ إِلَى اللّه الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ[٨٢] كِتَابِهِ، وَ الرَّدُّ إِلَى الرَّسُول الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لا تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَ لا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ[٨٣]، وَ لا يَتَمَادَى[٨٤] فِي الزَّلَّةِ[٨٥]، وَ لا يَحْصَرُ[٨٦] مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَ لا تُشْرِفُ[٨٧] نَفْسُهُ عَلَى

طَمَعٍ، وَ لا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ[٨٨]، وَ أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ[٨٩]، وَ آخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَ أَقَلَّهُمْ تبَرُّماً[٩٠] بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَ أَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَ أَصْرَمَهُمْ[٩١] عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ[٩٢] وَ لا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ،وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ[٩٣] قَضَائِهِ، وَ افْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ[٩٤] مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَ تَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ،وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَاالدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَ تُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

فقه اللغة

[١] يزعها: يكفها عن مطامعها، وهي مشتقة من وزع.

[٢] الجمحات: منازعات النفس إلى شهواتها ومآربها، من جمح الفرس بصاحبه اذا تمرّد عليه.

[٣] شحّ بنفسك: ابخل بنفسك عن الوقوع في غير الحل، فليس الحرص على النفس ايفاءها كل ما تحب، بل من الحرص أن تحمل على ما تكره.

[٤] يفرط: يسبق.

[٥] الزلل: الخطأ.

[٦] استكفاك: طلب منك أن تصلح شؤونهم بأمره.

[٧] حرب اللّه: أراد مخالفة شريعته بالظلم والجور.

[٨] لا يدّ لك بنقمته: أي ليس لك طاقة أن تدفع نقمته.

[٩] تبجّج بـ: فرح وسُرّ.

[١٠] البادرة: ما تبدو من امارات الغضب في القول أو الفعل.

[١١] المندوحة: المتسع، الفسحة.

[١٢] مؤمّر: مسلّط.

[١٣] الادغال: الفساد في الأمر.

[١٤] منهكة: مضعفة، من النهك أي الضعف.

[١٥] الغير: حوادث الدهر بتبدل الدول.

[١٦] الابهّة: الكبرياء والعظمة.

[١٧] المخيّلة: العجب.

[١٨] يطامن الشيء: يخفض منه، يسكن.

[١٩] الطماح: النشوز والجماح.

[٢٠] الغرب: الحدة.

[٢١] يفيء: يرجع.

[٢٢] عزب: غاب.

[٢٣] مساماة: المباراة في السمو والعلو والارتفاع.

[٢٤] من لك فيه هوى: أي الذي تميل إليه خاصّة.

[٢٥] أدحض: أبطل.

[٢٦] حرباً: محارباً.

[٢٧] ينزع: يرجع ويقطع عن ظلمه.

[٢٨] يجحف: يذهب برضى الخاصة النقص الفاحش.

[٢٩] الالحاف: الالحاح والشدة في السؤال.

[٣٠] جماع الشيء: جمعه وضمّه.

[٣١] صغرك: ميلك وعطفك.

[٣٢] اشنأهم: أبغضهم.

[٣٣] أطلبهم للمعائب: الأشدّ طلباً لها.

[٣٤] أطلق عقدة كلّ حقد: أحلل عقد الأحقاد عن قلوب الناس بحسن السيرة معهم.

[٣٥] الوتر: العداوة، الحقد.

[٣٦] تغاب: تغافل، تجاهل.

[٣٧] يضح: يظهر وماضيه وضح.

[٣٨] الساعي: هو النمام بمعائب الناس.

[٣٩] الفضل هنا: الاحسان بالبذل، النوال.

[٤٠] يعدك الفقر: يخوفك منه لو بذلت المال.

[٤١] الشره: أشد الحرص.

[٤٢] غرائز: ج غريزة: طبيعة سجية.

[٤٣] بطانةالرجل: خاصةالانسان،القرب إليه.

[٤٤] الأثمة: ج آثم: المذنب.

[٤٥] الظلمة: ج ظالم.

[٤٦] الآصار: ج إصر وهو الذنب والاثم.

[٤٧] الاوزار: ج وزر، وهو الذنب.

[٤٨] إلفاً: محبة.

[٤٩] رضهم: عودهم على أن لا يمدحوك بباطل لم تفعله.

[٥٠] لا يبجحوك: يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن تفعله.

[٥١] الزهو: العجب.

{٥٢} تدنى: تقرب، والعزة هنا: الكبر.

[٥٣] قبلهم: عندهم.

[٥٤] النصب: التعب.

[٥٥] ساءبلاؤك عنده: البلاء هنا الصنع مطلقاً حسناً أو سيئاً.

[٥٦] المنافثة: المحادثة والمجادلة.

[٥٧] كتّاب: ج كاتب وهم أصحاب سجل أو ديوان.

[٥٨] سهمه: نصيبه من الحق، حصته.

[٥٩] يكون من وراء حاجتهم: يكون محيطاً بجميع حاجاتهم دافعاً لها.

[٦٠] المعاقد: العقود في البيع والشراء وما شابههما مما هو شأن القضاة.

[٦١] المرافق: أي المنافع التي يجتمعون لأجلها.

[٦٢] الترفق: التكسب بأيديهم ما لا يبلغه كسب غيرهم من سائر الطبقات.

[٦٣] رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

[٦٤] جيب القميص: طوقه، وهو كناية عن الطاهرة.

[٦٥] الحلم: العقل هنا.

[٦٦] ينبو على الأقوياء: يتجافى عنهم ويبعد.

[٦٧] جماع من الكرم: مجموع منه، جامع.

[٦٨] العرف: المعروف.

[٦٩] تفاقم الأمر: عظم.

[٧٠] لا تحقرن لطفاً: أي لا تعد شيئاًمن تلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته بل كل تلطف ـ وان قلّ ـ فله موقع من قلوبهم.

[٧١] آثر: أي أفضل وأحسن وأعلى منزلة.

[٧٢] واساهم: ساعدهم بمعونته لهم.

[٧٣] أفضل عليهم: أفاض عليهم.

[٧٤] الجدة: الغنى والفضل.

[٧٥] خلوف أهليهم: ج خلف وهو من يبقى في الحيّ من النساء والعجزة بعد سفر الرجال.

[٧٦] حيطة: من «حاطه» بمعنى حفظه وصانه.

[٧٧] ذووالبلاء: أصحاب الأعمال الكبيرة والعظيمة.

[٧٨] تهزّ الشجاع: تشوقه للأقدام.

[٧٩] يحرض الناكل: يحث المتأخر القاعد.

[٨٠] بلاءامرئ: صنيعه الذي أبلاه.

[٨١] يضلعك: ضلع فلاناً كمنع، ضربه في ضلعه،أي ما يثقلك ويكاد يميلك عن الامور الجسام.

[٨٢] محكم الكتاب: نصه الصريح، لا المتشابه.

[٨٣] تمحكه الخصوم: تجعله ماحقاً لجوجاً. يقال: محك الرجل ـ كمنع ـ اذا لجّ في الخصومة، وأصرّعلى رأيه، لا تغضبه.

[٨٤] يتمادى: يستمر ويسترسل.

[٨٥] الزلة: السقطة في الخطأ.

[٨٦] لا يحصل: لا يعيا في المنطق، وقيل لا يظيق صدره من الرجوع إلى الحق.

[٨٧] لا تشرف نفسه: لا تطلع والاشراف على الشيء: الاطلاع عليه من فوق.

[٨٨] أدنى فهم وأقصاه: أقربه وأبعده.

[٨٩] الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه بالنص، وفيها ينبغي الوقوف على القضاء حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح.

[٩٠] التبرم: الملل والضجر.

[٩١] أصرمهم: أقطعهم للخصومة وأمضاهم.

[٩٢] لا يزدهيه إطراء: لا يستخفه زيادة الثناء عليه.

[٩٣] تعاهده: تتبعه بالاستكشاف زيادة الثناء عليه.

[٩٤] أفسح له في البذل: أي أوسع له في العطاء بما يكفيه.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

كتبه عليه السلام للأشتر النخعي لمّا ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمّد بن أبي بكر.

٢. شرح النص

مسؤوليات الوالي: وهي أربعة، الأول: جباية الأموال، وهي الضرائب الاسلامية من خمس وزكاة وخراج وجزية، والثاني:الحرب مع الأعداء، ولمصر عدوان داخلي وهو معاوية وخارجي وهم الروم، والثالث: استصلاح حال المواطنين اقتصادياً وأمنياً وثقافياً وصحياً و... والرابع: عمارة البلاد من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية وبناء الطرق والجسور وانشاء المدارس و...

أمران لبناءالذات: الأول مع اللّه، فالخوف منه فرض عليك، وقدّم طاعته على سائر الامور، وأتمر بشرايعه وأحكامه التي تسعد البشرية، وبالأعراض

عنها لم يحصد إلا الشقاء، ولم يتمّ النصر للّه سبحانه وتعالى إلاّ عن طريق اليد (الجهاد بالسيف والقلم) أو القلب (بالعزم والارادة)،أواللسان، قيل المراد منه قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن أرى الفصاحة والبلاغة والبيان في الكلام أولى، لما قال تعالى «ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني... (طه، ٢٧)» وقوله تعالى «هو أفصح منّي لساناً (القصص، ٣٤)»، لأن الله العزيز ضمن النصر لمن انتصر له وأعزّ من اعتزّ به. الثاني: مع النفس، ان يزجر النفس الامارة بالسوء عن طغيان الشهوات، ويمنعها حين الاشراف على المطامع، لأن النفس البشرية تأمر صاحبها بارتكاب السوء إلاّ ما رحم اللّه.

تحذير: ثم اعلم يا مالك انّي باعثك إلى بلاد مضت عليها دول وحكومات جائرة بعضها وعادلة أُخرى، وستنظر الجماهير ناقدة لأعمالك وأفعالك، كما كنت تنقد الحكام من قبل، فكن على حذر من أن تعاب أو تلام أو تذمّ على أفعالك.

حبّ الذخائر: واعلم ان أفضل ذخيرة لك هو العمل الصالح لا جمع الأموال والجواهر.

تحذير: فكن أميراً على نفسك ومانعاً لها عمّا لا يجوز لك، فان فعلت ذلك لقد انصفتها فيما أحبّت أوكرهت.

بين الايجاب والسلب: عليك أن تدخل الشفقة في قلبك رحمة للرعية وحبّاً لهم ومودّة بهم، ومن ناحية أُخرى أبعد عنهم الشراسة والسبعية، (وقت الهجوم عليهم)، ولا تنتهز الفرص لتأكل حقوقهم، فالمواطنون قسمان فمنهم من يحمل صفة الاخوة الدينية لك، ومنهم من يُشبهك خلقاً، تسبقهم الأخطاء في الأفعال، فتزل أقدامهم، وأُخرى يسؤون العمل، ويرتكبون الأخطاء عمداًأو خطأً.

العفو: فامنحهم عفوك عن سيئاتهم كما تحبّ اللّه أن يصفح عنك يوم القيامة، لأنّك الحاكم وبيدك القدرة، والخليفة (يعني نفسه الشريفةعليه السلام أعلى منك رتبة وان اللّه سبحانه وتعالى صاحب القدرة المطلقة ، ويطلب منك أن تكفي امور الناس بانجاز مصالحهم، وبهم يختبرك اختباراً.

تحذيرات: ولا تحارب اللّه في معاصيه أبداً، لأنّك لا تدفع عن نفسك انتقامه ولا تستغني أبداً عن عطاياه وغفرانه، ولا تندم على عفو منحته للناس، ولا تفرح بعقوبتهم، ولا تستعجل عند الغضب اذا وجدت مفراًمنها حتى يهدأ غضبك، ولا تقول انّي الأمير الآمر الناهي، فأمري مطاع، لأن العمل هذا يسبب لک الفساد في القلب ويضعف الدين القويم، والاغترار بالسلطة.

رياضة النفس: واذا نزل بك كبراً وخيلاءً ممّا أنت فيه من القدرة، فانظر إلى عظمة البارئ فوقک وماله من القدرة عليك، ولا يمكنك التصدي لها ولا الدفاع عن نفسك (مثل الموت والمرض و...) فالنظرة هذه تخفض من طماحك وتمنعك عن الكبرياء، وترجع إليك ما فات عنك من عقلك.

تحذير: لا تتعاظم مع اللّه تعالى في علو مقامه وسمو ارتفاعه، حتى تكون جباراً علياً مثله في جبروته، لأنه تعالى يُحقّر الجبابرة ويُهين المغرورين.

المنهاج في العمل: وانصاف اللّه هو العمل بأوامره ونواهيه، وانصاف الناس هو اعطاء حقوقهم، وكذلك بالنسبة إلى الأهل والأقرباء والأصدقاء والحاشية، وان أعرضت عن ذلك ظلمت نفسك وأهلك وحاشيتك، والذي يظلم عباد اللّه كان اللّه له خصماً يوم القيامة، ومن كان اللّه له خصماً، أبطل معاذيره، وكان محارباً للّه حتى يرجع منقطعا عن الظلم أو يتوب إليه.

تحذير: ولا تجد سبباً أكثر تغييراً لنعم اللّه وانتقامه من البقاء على الظلم، لأنه يسمع دعاء المظلومين وهو للمعتدين بالمرصاد.

قانون الامارة: فاحبب الامور المتزنة في الحق والتي تشمل الناس جميعاً وتستوجب رضا أكثرهم، لأنّ غضب الجماهير يذهب برضى الخواص، وان غضب الخواص يغتفر إلى جانب رضى الجماهير.

بين النظام الطبقي والديمقراطي: وليس أحدٌ من الجماهير أكثر ثقلاً وحملاً على الوالي من حيث القوت وقت الراحة، وأقلّ عوناً له في المصاعب والشدة، وأكثر كرهاً للعدل، و اكثرسؤلاً بالطلب، وأقلّ شكراً عند العطاء، ولا يقبل العذر إلاّ متأخراً متأنياً لّما يُمنع من العطاء، ولا يمكنه الصبر عند مصائب الدهر من الخواص والحاشية، وذلك لما يرون باطلاً بمنظار حقوقهم.

الأكثرية: قال الشيخ مغنية في معرض تفسير لقولهعليه السلام: انّما عماد الدين...، «لو انحصر الدين بالفئة المترفة لجعلوه تبعاً لأهوائهم (ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ) (المؤمنون، ٧١)، والتربة الخصبة للاسلام هي الفئة المستضعفة التي لا تستطيع الحياة إلاّ في ظل الحق والعدل والمساواة، ومن هنا كانت هذه المبادئ مُثُلها العليا وأُمنيتها القصوى... وهذه الفئة هي الأكثر الأغلب في كل شعب، وبهذا نجد تفسير قول الامامعليه السلام: ان العامة من الامة هي عماد الدين وجماع المسلمين»[1]، فهم الذين يقومون بأمر الدين والقوة ضد المعتدين، فيجب أن يكون استماعك إليهم وعطفك وحنانك لهم.

ستر العيوب: يجب عليك أن تُبعد وتُبغض الذين يطلبون بشدّة لعيوب الناس، لأنّ العيوب راسخة في الناس (والعصمة للّه تعالى ولرسولهصلى الله عليه وآله وللأئمّة

---

١. في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٥٥.

الطاهرين)، «وقيل لبذرجمهر هل من أحد لا عيب فيه، فقال: الذي لا عيب فيه لا يموت». فالوالي أحقّ من الآخرين في سترها، فلا تحقّق عمّا غاب عنك من معايب الناس، وعليك باجراء الأحكام على الظاهر، واللّه سيحكم عليهم عما غاب عنك يوم القيامة. فاجعل الستار على الأعمال السيئة مهما استطعت، سيستر اللّه عليك ما تحبّ اخفاءه عن الجماهير.

سعة الصدر: اترك كل ما يُسبب لك الأحقاد عند النـاس، وأبعـد عـن نفسك أسباب كلّ نقمة، وأعرض جانباً عمّا لا يصح لك، ولا تستعجل في تأييـد الساعي لأنه يغش الآخرين وان تظاهر بالصالحين.

عدم الاستشارة: ولا تستشر بخيلاً لأنه يجور بك عن طريـق الفضـل والاحسان والكرم، ويهددك الفقر والفاقة، ولا خائفاً لأنه يجعلك ضعيفاً في الامور والمشاكل، ولا طمّاعاً لأنه يحبب لك الطمع عن طريق الظلم والجشع.

حكمة بالغة: لأن هذه الصفات (البخل والجبن والحـرص) تُعـدُّ غرائـز مختلفة ولكنها تدور على محور واحد ألا وهو سوء الظن باللّه تعالى.

الوزراء الأشرار: فلا توظف الأشرار من الوزراء الـذين تعـاملوا مـع الظالمين من قبل، وكذا الذين كانوا شركاء معهم في اجتراح الذنوب، فـلا تجعلـهم وزراء لك، لأنّهم آثمين ظالمين مذنبين، وستجد أفضل منهم بين الجمهور الذين لهم آراء نافذة لا تقل عنهم، وليس لهم من الذنوب والآثام ما عليهم، ولم ىكونوا من أعوان الظلمة، فهؤلاء أخفّ ثقلاً عليك من غيرهم، وهم من أحسن الأعوان لـك وأكثرهم حبّاً عليك ولا يألفون غيرك، فاجعل هؤلاء من الخاصىن لک لمجالسك الاستشاريّة (الخاصّة) ومجالس الأفراح والأعياد (العامة).

صفات الوزير الأمثل: فليكن أفضل الوزراء لديك من يأمرك بمرّ[1] الحقّ، ولم يكن لك معيناً في الامور التي تغضب اللّه سبحانه ومكروهة عنده، وإن كان ذلك المكروه أشدّ رغبة في نفسك، ثمّ يا مالك اقترب من الذين يخافون اللّه، وعوّدهم على عدم مدحك (كما يفعل الانتهازيون) ولا يفرحونك بشيء لم تعمله، لأن المدح الكثير يبعث الفخر والكبر في النفس وتدني الممدوح إلى كلّ رذيلة فيما بعد. فرّق بين المحسن من الناس في الأعمال وبين المسيء منهم، وان لم تفعل ذلك فستزيد النفرة لدى أصحاب الاحسان في احسانهم، وستزداد السيئات لدى أصحاب السوء، واجعل لكل صنف منهم حدّاً خاصّاً به.

الاحسان الى الرعية: واعلم انه لا شيء أفضل عند الحاكم من اكتساب حسن ظنّ الجماهير عن طريق الاحسان إليهم، لأنّه يعدّ من أشدّ الاوآصر احكاماً للحبّ، وان تخفف عليهم الصعوبات (من ضرائب وقوانين جائرة و...) وترك أسباب الاكراه في النفوس، فلتجد النفوس فيما ذكرت لك من الامور تجتمع لك الامة عن طريق حسن الظن، فان هذاالأمر يبعد عنك التعب زمناً طويلاً، وكن واثقاً بالذي اختبرته في الأعمال الصالحة، وكن حذراً ممّن لم ينجح في الامتحان لديك.

نصائح: ولا تعرض عن التقاليد والعادات الحسنة بين الجمهور والتي أصبحت عادة لديهم، وأصلحت شؤونهم، ولا تخترع سنناً جديدة تضرّ بالسنن الحسنة المألوفة عندهم، فسيكون الثواب لمن شرعا والعقاب لمن أخلّ بها، ثمّ باحث العلماء لأجل اكتساب الحياة الفضلى واصلاح العبادوالبلاد، حتى يستقرّ

---

١. يوصف الحق بالمرارة لأنّ الباطل حلو.

أمرك في الحكومة، ولتكون على علم بما استقامت بها الحكومات مع شعوبها من قبل.

الطبقات الاجتماعية: واعلم يا مالك انّ الجماهير تنقسم بحسب أعمالها ووظائفها الاجتماعيّة إلى طبقات مختلفة، ولا يتمّ اصلاحهم إلاّ معاً ولا تستغني طبقة عن اُخرى، ومن تلك الطبقات الجنود هم الذين يحافظون على البلاد من تجاوز الأعداء، ومنهم كُتّاب العامة الذين يكتبون للناس جميعاً كالخراج والمظالم و... و... ومنهم كُتّاب الخاصة للوالي القائمين بأمره وسرّه، ومنهم أصحاب القضاء بالعدل بين الجمهور، ومنهم الشرطة الذين يعاملون الناس باللطف والشفقة ومنهم من يدفع ضريبة الجزية كاليهود والنصارى والمجوس، ومنهم الذين يدفعون ضريبة الخراج (ايجار الأراضي المفتوحة عنوة) من الذين استسلموا ودخلوا في طاعة الدولة، ومنهم التجار، ومنهم أرباب الصناعة كالنجارةوالحدادة و... و... ومنهم الطبقة الشعبية من الفقراء وأصحاب الحاجة والمسكنة (الايتام والأرامل و... و...).وقد جعل اللّه لكلّ طبقة سهماً معيناً على حدّه واجباً له وعليه، في القرآن الكريم أوفي سنة الرسول العظيمﷺ وهو موجود محفوظ عندنا.

اعمال كل طبقة: فالجيش لحماية الوطن ولزينةالحكام، بهم يعتزّ الدين تأمن الطرقات، ولا استقامة للجماهير إلاّ بهم.

تلاحم الطبقات: والخراج يصرف على الجند للتسليح ضد أعداءالدين وبما يصلح امور ذويهم وحاجاتهم، ثم لااستقامة للجند وأهل الخراج إلاّ بالقضاة الذين ينظرون في المشاكل والمظالم و... و... وكذلك الجباةالذين يجمعون الضرائب، والكتّاب الذين يحكمون العقود والمواثيق في البيع والشراء والمعاملات، وهم الذين يجمعون المنافع للدولة، وهم بمثابة الامناء لشؤونها في الامور العامة والخاصة ولا

تستقيم الامور جميعاً إلاّ مع التجار وأصحاب الصناعات (هم الذين يجلبون الأموال والثروة خلافاً للأصناف الاخرى المستهلكين لها) فيما يقدمونه من الحوائج في الأسواق التجارية للناس وأرباب الصنعة، بدلاً أن يحصلوا عليها بأيديهم بالجهد والمثابرة لأن الآخرين ليسوا من أرباب الفن، ثمّ الطبقة الأدنى الذين هم من الفقراء والمساكىن يستحقون الرفد والمساعدة، وجعل اللّه سبحانه وتعالى لكلّ طبقة سعة، وللجميع على الوالي حقّ أن يصلح أمرهم ،ولا يحقّ للوالي الخروج عمّا ألزمه اللّه عليه، من الاهتمام والاستعانة به (جلّ ذكره) ويهيّأ نفسه على لزوم الحقّ والصبر عليه سواء كان خفيفاً أو ثقيلاً.

قائد الجيش: فليكن ممّن تطمئن به نفسك، مطيعاً للّه (علاماً بالكتاب) وللرسولﷺ (عاملاً بالسنة) ولوليّ الأمر (نفسه الكريمةعليه السلام)، ثمّ ليكن أميناً عفيفاً حليماً قابلاً للاعتذار، وترتاح نفسه إليه، ويرحم الضعفاء ويرفق بهم، ويشدد على الأقوياء ولا يهيجه غضباً، ولا يعجز في الامور، ثم تقرّب في اختيار الجند إلى ذوي الأحساب من العشائر الصالحة الذين لهم مواقف حسنة وأعمال حميدة، ويعدّون من أصحاب الاعانة(النجدة) في الشدة، ويتصفون بمكارم الأخلاق من شجاعة وسماحة وجود، فانّهم مجموعة من الكرم وشعب من المعروف (من عدل وعفة وصداقة و...) ثمّ أسهر عليهم متفقداً أمورهم (الجند) كما يتفقد الوالدان الأبناء، ولا تُعظم أمراً ما قوّيتهم به، ولا تستصغر شيئاً ما تعاهدوه منك، بل لكلّ لطيف تقوم به لهم، له موقعه الخاص في نفوسهم بحيث يبذل لك النصيحة وحسن الخدمة، والاعتماد عليك، ولا ترتكز على الامور الكبيرة. وأفضل الجند من كان مواسياً لهم وأجاد عليهم من غناه بمقدار ما يكفيهم مؤونتهم ومؤنة عوائلهم من النساء والأطفال، بحيث لا يفكر الجندي في ساحة القتال إلاّ جهاد الأعداء.

فان حنانك وعطفك عليهم يجعلهم أكثر ولاءاً لك، وأفضل ما يسرُّ عيون الحكام هو اقامة العدل في البلاد، واعلان الحبّ للدولة من قبلهم ولا يمكن للجند أن ينصحوا الولاة إلاّ عن طريق الاحاطة على الأعمال، ولا يرون الثقل في حكومتهم، ويُعرضوا صفحاً عن زوالها، فليسرحوا في آمالهم، واستمر في الثناء والمدح على أعمالهم، واذكر الكثير من صنائعهم الحميدة، فان الذكر (والنشر) هذا تهزّ الضمائر عند الشجعان وتشوق المتكاسل باذن اللّه، ثم اعلم يا مالك لكلّ منهم بلاء (امتحان) خاص به، فلا تنسبنَّ شجاعة رجل لغيره، ولا تقصرنّ في عطائه، ولا تُعظم الأمر لرجل شريف لأجل شرفه ولا تحقرنّه لضعة شرفه.

وراجع الكتاب والسنة فيما أشكل عليك من الامور، لقد قال اللّه سبحانه وتعالى لقوم أحبّ نصيحتهم: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه (العمل بالكتاب) وأطيعوا الرسول (العمل بالسنة) واولي الأمر منكم (الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام)، فان اختلفتم في أمر فتمسكوا بمحكم الكتاب (لا متشابهاته)، والأخذ بسنته ﷺ الرجوع إلى سنته الجامعة لا المفرقة؟

القضاة: ثم انتخب لأمر القضاء أفضل الناس عند نفسك (تطمئن إليه) ولا ينضجر اذا ظهر الحقّ، ولم يكن لجوجاً عند المتخاصمين ولا يركب رأسه، ولا يُطلّ على طمع (رشوة وما سواها) ولا يكتفي بأقل علم بل يحقق ويتأمل في الموضوع، وأكثر الناس وقوفاً عند ما تداهمه الشبهة، وكثيراً ما يعتني بالأدلة والبراهين، وقلّما ينضجر عند مراجعة الخصم، ويصبر طويلاً حتى تنكشف له الامور كما هي، وأكثرهم صرامة لما يتجلى الحكم، فلا يطربه المدح والثناء ولا يستميله الاغراء من الماديات، فقلّما تجد هذه الصفات في رجل، ثم اشترك في قاعة قضائه لتنظر في أحكامه، وزد عليه من احسانك وكرمك حتى يقضي

حوائجه، ويستغني عن الناس حاجته، وامنحه منزلة عظيمة لديك حتى لا يطمع فيها أحد من خاصتك، ويكون في أمن من وشاية الآخرين فدقق النظر في هذا الأمر بكلّ دقة، لأن هذاالدين كان أسيراً في أيدي الأشرار، ويُعمل به عن طريق الهوى لا العقل، ويطلب به الدنيا لاالآخرة.

نقف هنا عن هذا الشرح لهذه الرسالة العظيمة، خوف الاطالة.

٣. من خصائص الرسالة

لابدّ لدارس النقد التحليلي للأدب أن يقف شيئاً ما على المحاور التالية:

١. الرسالة: تعابير فنية عادة تحمّل الشخص مسؤولية اجتماعية وتكتب للقضاة والأمراء و... و... وتحتوي على بيان امور خاصة موجّه لأحد المسؤولين، والمسؤوليّة تكون اتجاه اللّه (التقوى) وتكون امام الجماهير...

٢. الرسائل نوعان، طويلة وقصيرة، والنموذج أعلاه يعدّ من الرسائل الطويلة التي شغلت أفكار الخاصة من أهل الفكر والقلم، فهي من حيث الصياغة الفنية تتسم بالوضوح وتوازن العبارات وتقابل الايقاعات طولاً وقصراً و...

٣. ومن أهداف الرسالة الوفاء للدولة في مجالات شتى سياسية واقصادية واجتماعية و... و...، ويبدو انّ هذه المهمة الملقاة على عاتق الرسالة أدّت واجبها بأحسن ما يمكن خلال القرون الماضية.

٤. ولها قيمة فنية كبيرة لما تحتوي على الصور والأخيلة التي تثير الوجدان وتوقظ الضمير.

٥. ومن السمات الغالبة عليها السجع، الذي لا يؤدي إلى التكليف المذموم.

٦. وهذه الرسالة بدأت بالتوصية بالعمل الصالح، وشددت على تملك الهوى من جانب وعلى الرحمة للرعية من جانب آخر... وهذاالتمهيد هو الذي سيحوم

عليه كلّ موضوعات الرسالة من تملك الهوى (التعامل مع الآخرين والتوجه إلى خارج الذات).

٤. الأفكار

احتوى هذا النص من الرسالة على أفكار مميزة وتخصّ المجتمع وادارة شؤونه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية و...

والمحور الأصلي من الادارة تقع على عاتق المحافظ (الوالي)، لأنه يمثل الخليفة حقيقةً، فمن واجبات المحافظ أن يقوم ببناء شخصيّته الذاتيّة من العمل بالتقوى والحذر من الهوى، وادخار الأعمال الصالحة، لاالأموال الطائلة، ويشفق على الامة، ويعفو عن سيئاتهم و... و... وأن لا يحارب اللّه في عظمته ويجاهد النفس الأمّارة بالسوء، وبيّن له خطة العمل، والفرق بين النظام الطبقي والديمقراطي، ويجب عليه أن يلتزم بسعة الصدر والصفات الحميدة، وأن يختار من الناس أفضلهم للمناصب المهمّة في الدولة ثمّ ينصحه بعض النصائح، ويقسم المجتمع البشري إلى طبقات متفاوتة من جند وقضاة و... و... وبيّن لكل طبقة مالها وما عليها من الواجبات، وكيف تتمّ عمليّة اختيار المسؤولين والتعامل معهم.

٥. العواطف

عند ما نخوض في هذه الرسالة العظيمة سنواجه منذ البداية كلمات الرحمة والمحبّة واللطف و... وما هذه الامور الاّ مصدر للعاطفة الجياشة المطلة على جميع نواحي هذه الرسالة والتي تمسّ صميم قلب المحافظ الذي يريد أن يتعامل مع أفراد الشعب.

فانظر إلى قوله عليه السلام: واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، فالرحمة مشتقة من الرحم، رحم المرأة، ومنه استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحد، «والرحمة عادة رقة تقتضي الاحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة واخرى في الاحسان المجرد عن الرقة، وإن كانت من اللّه فهو الانعام والافضال، وإن كان من الناس فهو رقة وتعطف»[1]، وتعني الرحمة أيضاً المودّة كما قال تعالى «وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة» (الحديد، ٢٧)، يعني مودّةً فانظر إلى تدرج الرحمة في القلب من الرقة ثمّ الاحسان، فلا تتأتي الرقة والاحسان إلاّ عن طريق المودّة، فاذا كان قلب الوالي مفعماً بهكذا حبّ فلا زوال لحكومته أبداً.

وأمّا المحبّة: فهي ارادة ما تراه أو تظنه خيراً، وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة كمحبة الرجل المرأة... ومحبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به... ومحبة للفل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض... «وللمحبة طرفان محبة اللّه تعالى للعبد وانعامه عليه، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه»[2]، فبمجرد الارادة تتمثل المحبة الخيرة امام الانظار بكلّ سهولة وبساطة، فالمجتمع الذي يبني صرحه على أساس الحبّ المتبادل بين الوالي والشعب من جهة وبين اللّه والعبد من جهة أُخرى، فهل تزحزحه الرياح العاصفة؟ كلا والف كلا، واما اللطف الذي «يعبر عنه باللطافة فهي الحركة الخفيفة عن تعاطى الامور الدقيقة... وقد يُعبر عن التحف المتوصّل بها إلى المودّة باللطف، ولهذا قال: تهادوا تحابّوا»[3]، فانظر عزيزي القارئ كيف

---

١. المفردات، ص١٩١.

٢. نفس المصدر، ص١٠٥.

٣. نفس المصدر، ص٤٥٠.

يضمّ الامام عليه السلام عناصر عملية العاطفة بعضها إلى بعض ويتسلسل بها حتى يصل إلى الامور الدقيقة، فالذي شيمته الرحمة وعادته المحبة واللطف فلا يمكن له أن يكون سبعاً ضارياً على الناس.

وكما قلنا قبل قليل ان ارجاء هذه الرسالة طافحة بالعاطفة، فانظر إلى قوله عليه السلام في وصف قائد الجيش حيث يقول: ممن يبطئ عن الغضب ويستريح الى العذر، ويرأف بالضعفاء، فالمعروف اليوم ان قادة الجيش عادة يكونون من أصحاب العنف والشدة وهذاالأمر يظهر جلياً من كلام الامام عليه السلام، فالايصاء بعدم العنف والارتياح للعذر والرحمة بالضعفاء، والشدة أمام الأقوياء... ما هي إلاّ مشاعر صادقة تنبع من القلب الطاهر لتسيل على القلوب العطشى لترويهم حبّاً وحناناً وعطفاً، فهذا هو الذي يليق بالقائد السويّ لا العنف والغضب و... و... وهكذا تجري العاطفة في هذه الرسالة مجرى الدم في الجسم، ولو أردنا أن نخوض في الحديث سنرى المزيد من أمثال هذا الكلام.

٦. عنصر الخيال

فمن أجل ان تكتمل الصورة الفنية (لدى القارئ أو المستمع) التي ابدعها الامام عليه السلام في هذه الرسالة حيث القينا قبل قليل ضوءاً عابراً على عنصر العاطفة، فالآن ننظر إلى الصورة الفنية من زاوية الخيال، فلنَر المجاز اولاً في قوله عليه السلام: فانّ الجنود باذن اللّه حصون الرعية وزين الولاة وعزّ الدين، فاطلاق العزّ على الجنود من باب اطلاق اللازم على الملزوم، لأن عزة الدين تستلزم وجود الجند. ثم للنظر إلى الكناية المستخدمة في هذه الرسالة فقوله عليه السلام: لا يد لك بنقمته، يعني ليس لك طاقة وقدرة لتدفع عن نفسك انتقامه تعالى، فهي كناية عن موصوف (القوة)، أو

قوله‌عليه‌السلام: انقاهم جيباً، يعني أطهرهم وأكثرهم اخلاصاً، فهي كناية عن صفة الاخلاص، وكذك قوله‌عليه‌السلام: تهزّ الشجاع، يعني تسرّه وهي كناية عن صفة الفرح، وأمثال هذا الكلام كثيرة وقد قيل انّ الكناية أبلغ من التصريح، فبهذا الكلام وأمثاله تزداد النفس ارتياحاً وتستسلم للمخاطب بلا قيد ولا شرط. وأخيراً للنظر إلى تعالي البيان في الاستعارة وذلك في قوله‌عليه‌السلام: بذل النصيحة، فالبذل لا تكون إلاّ في المال عن طريق الجود والكرم، ولكنه‌عليه‌السلام استعارها للنصيحة، فهذاالكلام من ابداعاته‌عليه‌السلام، وانظر إلى قوله‌عليه‌السلام: فافسح في آمالهم، فالفسحة عادة تكون في المساحات والأمكنة لا في الآمال، فجعل الأمل كالمكان الواسع، فما أجمله من بيان، وكذا قوله‌عليه‌السلام: لا تشرف نفسه، فالاشراف تستعمل للمكان المرتفع، فجعل النفس البشرية عالية المكانة تشرف على امور منها الطمع، فالسيطرة هذه لا تأتي الاّ من وراء الاستعارة، وكذا الأمر في قوله‌عليه‌السلام: مرّ الحقّ.

٧. الاسلوب

يرتكز الكلام على الوضوح الكامل والفصاحة العربية بمعنى الكلمة ممّا يجعل القارئ أن لا يملّ الكلام أو الخطاب، وان طال البيان، فالعبارات سهلة مفهومة المعاني، بعيدة عن التكلّف والتظاهر، بل هي نابعة من تجاربه الخاصّة التي مارسها في حياته، ثمّ انه‌عليه‌السلام استخدم اسلوب النفي والاثبات (الأمر والنهي) كما في قوله‌عليه‌السلام: اشعر قلبك الرحمة... لا تكوننّ عليهم سبعاً، فالتياران الايجابي والسلبي تنير الدرب في هذه الرسالة بلا انقطاع ولا ملل، وأمثالها كثيرة، وقد حاول‌عليه‌السلام بقدر الامكان الاستعانة بالطباق لازاحة الضجر احياناً كما جاء في قوله‌عليه‌السلام: أدنى فهم دون أقصاه، فالدنو ضد البعد، وحاول‌عليه‌السلام أيضاً أن يستعين

بالحصر لاهتمام السامع بالموضوع كما في قولهعليه السلام: «وانّما يستدل على الصالحين بما يجري لهم على ألسن عباده، حيث تمتاز كلمة «إنّما» في القصر باثبات الشيء والنفي عن غيره دفعة واحدة، وكذلك تمتاز أنّها تأتي لأمر من شأنه الا يجهله المخاطب ولا ينكره، وإنّما يراد التنبيه عليه فقط، فهو من قصر الصفة على الموصوف، وقد استعانعليه السلام في اسلوبه البياني بالفصل والوصل للجمل، ففي قولهعليه السلام: فان الشحّ بالنفس الانصاف منها، فجملة الانصاف منها جاءت جواباً لسؤال مطروح في الجملة الاولى تقديره: كيف يكون الشحّ بالنفس؟ قيل الانصاف منها، وتجد الأمر كذلك واضحاً في قولهعليه السلام: فانّهم صنفان اما أخ لك في الدين واما نظير لك في الخلق، فجملة اما أخ لك... واما نظير... بدل جزء وتعد الجملة الثانية بمثابة كمال الاتصال.

وقفة مع الكلمات

من خلال هذه الرسالة نجد بعض الكلمات تحمل في طياتها حملاً ثقيلاً لم تكن في غيرها، وبعبارة اخرى لو صحّ التعبير انّ لبعض الكلمات مسؤوليّة أكبر اتجاه المعاني كما نرى في قولهعليه السلام: اشعر قلبك الرحمة، «قيل أي اجعلها كالشعار له وهو الثوب الملاصق للجسد»[1]، واشعر هي من باب الافعال بمعنى ادخال الرحمة في القلب، وبناءاً على هذا تجب أن تكون الرحمة داخلة وملاصقة في قلب الحاكم لرعيته، لا تنفك عنه، فيترشح من هذا الاتحاد المحبة ثم تتناثر التحف والهدايا على رؤوس الامة وما أبدع ما يصنعه الامام اميرالمؤمنينعليه السلام في بياناته.

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص١٢١.

ثم للنظر إلى قوله عليه السلام: أمره أن يكسر نفسه من الشهوات، مراده ان يصرفها عن اللذائذ، ولكن لو أمعنا النظر في كلمة الكسر والكاسر، فانّها تستعمل للعقاب الذي يكسر جناحه حين يريد الوقوع، فيقال كسر الطائر يكسر كسراً، اذا ضم جناحيه، وكذلك يقال الكسر للعود وكل صلب، وكسر العسكر: هزمهم، فبالنظر لهذه المعاني المختلفة من استخدامها للعقاب الجارح وللأشياء الصلبة وانهزام الجيش كلها تدخل جملة واحدة في ظل كلامه عليه السلام لما قال لمالك: أمره أن يكسره نفسه... فما أبدع هذا الابتكار الذي ليس له مثيل في عالم الأدب.

ثمّ للنظر في قوله عليه السلام: فليكن صغوك لهم وميلك معهم، فالميل هو العدول عن حدّ الوسط إلى أحد الجانبين، فيقال ملتُ إلى فلان اذا عاونته وعطفت عليه، فرجحان الامة على الخواص ما جاءت إلاّ من الميل التي تحمل معها الحبّ للشعب.

وأخيراً للنظر إلى عملية الدخول والاستتار والتدرج الى الظهور في كلامه عليه السلام: فاستر العورة ما استطعت يستر اللّه...، اطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كلّ وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، فمن أجل أن لا تشيع الفاحشة ولا ينتشر الفساد في الأرض والضلال في المجتمع، وحتى يقف المنكر عند حدّه، وحتى تكبح القبائح و... و... لابدّ من الاستتار احياناً وعدم الفضيحة اُخرى، والتكتم بشدّة ثالثاً، فان عملية الاستتار والتغطة على معايب الامة ثم تتلوها عملية الاظهار والافصاح والانطلاق من القيود والاحقاد التي تتبلور في ضمائر الشعب، ولولاها لأدت إلى تجمع الأحقاد والضغائن في النفوس، وبين هاتين العملتين (الاستتار والاظهار) لابدّ من القطع والفصل احياناً حتى تصطفى الامور، ولأجل الوصول إلى الصفاء والشفافية للمجتمع لابدّ من عملية

الاغماض، فبها تتم عملية التطهير للامة، وتستقيم الامور للوالي. فاكرم بهذا البيان من معاني عظيمة، وارشاد ثمين للولاة.

ثم انظر إلى عجيب قولهعليه السلام: أمره بتقوى اللّه... وأمره أن يكسر... فمن المعلوم انّ بناء الشخصيّة الاسلاميّة ترتكز بالدرجة الاولى على الروابط بين الفرد والربّ، فكلما كانت الأواصر موثقة بينهما حصل الانسان على القرب الربانيّ والعكس صحيح، وهذه الأواصر دعامتها التقوى، والايثار في طاعة اللّه، واجراء أوامره والانتصار لدينه، ثمّ تأتي المرحلة الثانية لتوثيق الأواصر بين الانسان ونفسه الجامحة، فاذا سيطرت على الانسان النفس جعلته عبداً له كما قال البارئ تعالى: وما ابرئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي (يوسف، ٥٣)، وسيطرة النفس على الانسان تؤول به إلى الفشل في الحياة، فما عليه إلاّ أن يكتسب الوصال والصعود إلى النفس المطمئنة، فما أعظمها من تحليل فكري اسلامي للامامعليه السلام.

الاستشهاد بالقرآن الكريم

انّي كلّما خضت في نهج البلاغة فما وجدت من كلمة ولا من عبارة إلاّ ارتوت من معين القرآن الكريم، وجالت في ربوعه العظيمة بل لم نكن مبالغين لو قلنا ان القرآن العظيم أصاب بظله على النهج القويم لبلاغة الامامعليه السلام وعلى سلوكه وأخلاقه وسيرته و...

فعلى سبيل المثال نقول انّ في قولهعليه السلام: وقد تكفل اللّه بنصرة من نصره، مقتبس من قوله تعالى: ان تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم (محمد، ٧).

وقوله عليه السلام: فانّهم صنفان اما أخ لك في الدين، مقتبس من قوله تعالى: انّما المؤمنون اخوة(الحجرات، ١٠)، وقوله عليه السلام: ولا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، مقتبس من قوله تعالى: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء واللّه يعدكم مغفرة منه وفضلاً (البقرة، ٢٦٨)، ولو دققنا النظر لوجدنا الكثير الكثير من أمثالها.

التحليل الاعرابي

لا شك انّ أميرالمؤمنين عليه السلام هو من أفصح الناس لساناً من بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فيا حبّذا لو سنحت الفرصة لحفاظ القرآن الكريم أن يحفظوا نهج البلاغة ويستعنوا به لأجل كشف المعاني والتعرف على البلاغة كما قام به الأديب البارع ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة وإليك اعراب بعض الكمات:

قوله عليه السلام: ولاه مصر جباية خراجها، فجباية بدل اشتمال من مصر.

قوله عليه السلام: وان ينصر اللّه، بتأويل مصدر مجرور بالباء المقدرة، أي بنصر اللّه سبحانه.

قوله عليه السلام: وأمره أن يكسر نفسه، نفسه منصوب بنزع الخافض والتقدير عن نفسه.

قوله عليه السلام: واذاأحدث لك ما أنت فيه، ما فاعل أحدث، وأنت فيه مبتدأ وخبر، والجملة صلة ما.

قوله عليه السلام: من سلطانك ابهّة: ابهّةً مفعول به.

قوله عليه السلام: ايّاك ومساماة اللّه، ايّاك منصوب على التحذير.

قوله عليه السلام: فأعطهم من عفوك وصفحك، من بمعنى التبعيض هنا.

قوله عليه السلام: وليس أحد... اثقل... مؤونةً، مؤونة: تمييز ومثلها معونة، وشكراً وعذراً وصبراً.

قوله عليه السلام: من أهل الخاصة: متعلق باثقل.

قوله عليه السلام: العامة، خبر عمادالدين.

قوله عليه السلام: يُؤتى: مبني للمجهول نائب فاعله على أيديهم، وأصله تأتي السيئات على أيديهم.

قوله عليه السلام: وتغاب عن، فعل أمر مبني على حذف حرف العلة.

قوله عليه السلام: يستر اللّه: فعل مضارع مجزوم في جواب الطلب.

قوله عليه السلام: أنت واجد منهم خير الخلف، فخير مفعول به لواجد.

قوله عليه السلام: واقعاً ذلك...، واقعاً حال ممّا كره.

قوله عليه السلام: وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه: ما في محل نصب بنزع الخافض.

قوله عليه السلام: بأدعى، الباء زائدة في خبر ليس.

قوله عليه السلام: يقطع عنك نصباً، نصباً مفعول يقطع.

الدرس الثامن

الوصف الجميل للطاووس[1]

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس:

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ[١]، وَ سَاكِنٍ وَ ذِي حَرَكَاتٍ. فَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ وَ مَسَلِّمَةً لَهُ. وَ نَعَقَتْ[٢] فِي أَسْمَاعِنَا دَلائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَ مَا ذَرَأَ[٣] مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ[٤] الْأَرْضِ وَ خُرُوقَ فِجَاجِهَا[٥]، وَ رَوَاسِيَ أَعْلامِهَا[٦]. مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَ هَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ وَ مُرَفْرِفَةٍ[٧] بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ[٨] الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ وَ الْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ وَ رَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ[٩] مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ[١٠].

وَ مَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ[١١] خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ[١٢] فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً[١٣]، وَ جَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً[١٤]. وَ نَسَقَهَا[١٥] عَلَى اخْتِلافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ[١٦] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ وَ دَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ[١٧] لَوْنٍ لا يَشُوبُهُ

---

١. نهج البلاغة ، صبحي الصالح، ١٦٥، وطاووس على وزن فاعول كالكابوس، طائر حسن الشكل حادّ الصوت، مهده الأصلي المنطقة الهندية ـ الاليزيّة، له عنق طويل ورأس صغير كُزينه قنبرة.

غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ. وَ مِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ[١٨] بِخِلافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

وَ مِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَ نَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ[١٩]، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ[٢٠]، وَ ذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ[٢١] إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَ سَمَا[٢٢] بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ[٢٣] كَأَنَّهُ قِلْعُ[٢٤] دارِيٍّ[٢٥] عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ. يَخْتَالُ[٢٦] بِأَلْوانِهِ، وَ يَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ[٢٧]. يُفْضِي[٢٨] كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَ يَؤُرُّ بِمَلاقِحِهِ[٢٩] أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ[٣٠] في الضِّرَابِ[٣١]. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ[٣٢]، لا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَ لَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا[٣٣] مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ[٣٤] جُفُونِهِ وَ أَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ[٣٥] ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لا مِنْ لِقَاحِ[٣٦] فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ[٣٧] لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ[٣٨]. تَخَالُ قَصَبَهُ[٣٩] مَدَارِيَ[٤٠] مِنْ فِضَّةٍ وَ مَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ[٤١] وَ شُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ[٤٢] وَ فِلَذَ[٤٣] الزَّبَرْجَدِ فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنًى[٤٤] جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ. وَ إِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ[٤٥] الْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ[٤٦] الْيَمَنِ. وَ إِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ[٤٧] الْمُكَلَّلِ.

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ[٤٨] وَ يَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَ جَنَاحَيْهِ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ[٤٩] وَ أَصَابِيغِ وِشَاحِهِ[٥٠] فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ[٥١] زَقَا مُعْوِلاً[٥٢] بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَ يَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ[٥٣] كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلاسِيَّةِ[٥٤] وَ قَدْ

نَجمَتْ[٥٥] مِنْ ظُنْبُوب سَاقِهِ[٥٦] صِيصِيَةٌ[٥٧] خَفِيَّةٌ. وَ لَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ[٥٨] خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ[٥٩]. وَ مَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ وَ مَغْرِزُهَا[٦٠] إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ[٦١] الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ[٦٢] وَ كَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ[٦٣]. إلاّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَ شِدَّةِ بَرِيقِهِ أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ. وَ مَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الأُقْحُوَانِ[٦٤] أَبْيَضُ يَقَقٌ[٦٥]. فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ[٦٦]. وَ قَلَّ صِبْغٌ إِلاّ وَ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ[٦٧]، وَ عَلاهُ[٦٨] بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَ بَرِيقِهِ وَ بَصِيصِ[٦٩] دِيبَاجِهِ وَ رَوْنَقِهِ[٧٠]. فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ[٧١] لَمْ تُرَبِّهَا[٧٢] أَمْطَارُ رَبِيعٍ وَ لا شُمُوسُ قَيْظٍ[٧٣]. وَ قَدْ يَنْحَسِرُ[٧٤] مِنْ رِيشِهِ، وَ يَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى[٧٥]، وَ يَنْبُتُ تِبَاعاً فَيَنْحَتُّ[٧٦] مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ. لا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَ لا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ. وَ إِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَ تَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً وَ أَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً[٧٧]. فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ[٧٨] الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ. وَ أَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَ الْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ[٧٩] الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ[٨٠] لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَ مُؤَلَّفاً مُلَوَّناً. وَ أَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَ قَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ. وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ[٨١] قَوَائِمَ الذَّرَّةِ[٨٢] وَ الْهَمَجَةِ[٨٣] إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَ الْفِيَلَةِ. وَ وَأَى[٨٤] عَلَى نَفْسِهِ أَلاّ

يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ إِلاّ وَ جَعَلَ الْحِمَامَ[٨٥]مَوْعِدَهُ وَ الْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

فقه اللغة

[١] الموات: بالفتح، ما لا حياة فيه.

[٢] نعقت: من نعق بغنمه ـ صاح.

[٣] ذرأ: خلق.

[٤] الأخاديد: ج أُخدود، الشقّ في الأرض.

[٥] الخروق: ج خرق: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح، والفجاج: ج فجّ: الطريق الواسع بين الجبلين.

[٦] الاعلام: جم عَلَم بالتحريك: الجبل.

[٧] مرفرفة: من رفرف الطائر: بسط جناحيه.

[٨] مخارق: ج مخرق: الفلاة والصحراء.

[٩] الحقاق: ج حق :مجتمع المفصلين كالركبة.

[١٠] احتجاب المفاصل: استتارها باللحم والجلد.

[١١] العبالة: الفخامة وامتلاء الجسد.

[١٢] يسمو: يرتفع ويعلو.

[١٣] خفوفاً: سرعة وخفة في الحركة.

[١٤] دفيف الطائر: مروره فويق الأرض.

[١٥] نسقها: رتبها.

[١٦] الأصابيغ: ج أصباغ (بفتح الهمزة) ج صِبغ بالكسر، وهو اللون أو ما يُصبغ به.

[١٧] القالب: مثال تفرغ فيه الجواهر لتأتي على قدره. والطائر ذو اللون الواحد كأنّما أفرغ في قالب من اللون.

[١٨] طوّق: أي ان جمع بدنه بلون واحد إلاّ لون عنقه فانه يخالف سائر بده، كأنه طوقٌ صيغ لحليته.

[١٩] التنضيد: النظم والترتيب.

[٢٠] أشرح قصبه: أي داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر. والقصب: عروق الجناح.

[٢١] درج إليه: مشى إليه.

[٢٢] سما به: أي ارتفع، أي رفعه.

[٢٣] مطلاً على رأسه: مشرفاً عليه كأنه يظله.

[٢٤] القلع: بكسر وسكون: شراع السفينة وجمعه قلاع.

[٢٥] داريّ: جالب العطر من دارين وهي فرضة بالبحرين فيها سوق يحمل إليها المسك من الهند.

[٢٦] عنجه: جذبه فرفعه، من عنجت البعير اذا جذبته بخطامه فرددته على رجليه، والنوتيّ: البحّار والملاح، ويختال: يعجب.

[٢٧] يميس: يتبختر بزيفان ذنبه، وأصل الزيفان التبختر أيضاً، ويريد به هنا حركة ذنب الطاووس يميناً وشمالاً.

[٢٨] يُفضي: أي يذهب إلى أنثاه ويسفد كما تذهب الديكة، وهي جمع ديك.

[٢٩] يؤرّ: يسفد، وملاقحة: أدوات اللقاح وأعضاؤه، وهي آلات التناسل.

[٣٠] أرّ الفحول المغتلمة: أي مثل الفحول الغلمة والشهوة والشبق.

[٣١] الضراب: لقاح الفحل لانثاه.

[٣٢] على معاينة: أي اذهب وعاين صدق ما أقول.

[٣٣] تسفحها: ترسلها أوعية الدمع.

[٣٤] ضفة الجفن: استارة من ضفتي النهر بمعنى جانبيه.

[٣٥] تطعم ذلك: أي تذوقه كأنّها تترشّفه.

[٣٦] لقاح الفحل: ماء التناسل يلقح به الانثى.

[٣٧] المنبجس: النابع من العين.

[٣٨] مطامعة الغراب: تلقيحه لأنثاه، وقالوا: ان مطاعمة الغراب بانتقال جزء من الماء المستقر في قانصة الذكر إلى الانثى تتناوله من منقاره.

[٣٩] القصب: ج قصة، هي عمود الريش، عظام أجنحته.

[٤٠] المداري: ج مدرى يشبه المشط وأطول منه مصنوع من الحديد أو الخشب، يسرح به الشعر المتلبد ويستعمله من لا مشط له.

[٤١] الدارات: هالات القمر.

[٤٢] العقيان: الذهب الخالص أو ما ينمو منه في معدنه.

[٤٣] فلذ – كعنب ـ ج فلذة، بمعنى القطعة.

[٤٤] جنى: أي مجنى جميع كلّ زهر، لأنه جمع كلّ لون، ومنه قوله تعالى (وجنى الجنتين دان).

[٤٥] الموشي: المنقوش المنمنم على صيغة اسم الفاعل، ماديح بالوشي وهوالأرقم الملون.

[٤٦] العصب: بالفتح، ضرب من البرود منقوش.

[٤٧] جعل اللجين ـ وهو الفضة ـ منطقة لها. والمكلل: المـزين بـالجواهر. فكمـا تمنطقت الفصوص باللجين كذلك زين اللجين بها.

[٤٨] المرح المختال: المعجب الزاهي بحسنه.

[٤٩] السربال: اللباس مطلقاً وهو الدرع خاصة.

[٥٠] الوشاح: نظامان من لؤلؤ وجوهر يخالف بينهما ويعطف أحدهما على الآخر بعد عقد طرفه به حتى يكون كدائرتين أحدهما داخل الاخرى كـل جـزء من الواحدة يقابل جزاءاً من قرينتها ثم تلبسـه المـرأة علـى هيئـة حمالـة السيف.

[٥١] زفا يزفو: صاح.

[٥٢] معولاً: من اعول، رفع صوته بالبكاء.

[٥٣] حمش: ج أحمش: أي دقيق.

[٥٤] الديك الخلاسيّ (بكسر الخاء): هو المتولد بين دجاجتين هندية وفارسية.

[٥٥] وقد نجمت: أي نبتت وظهرت.

[٥٦] ظنبوب ساقه: حرف عطفه الأسفل، وهو العظم اليابس.

[٥٧] صيصية: شوكة تكون في رجل الديك.

[٥٨] القنزعة: جمعها القنازع، وهي الشعر حوالي الرأس، تترك على رأس الصبي.

[٥٩] موشاة: منقوشه، ذات وشي.

[٦٠] مغرزها: الموضع الذي غرز فيه العنق منتهياً إلى مكان البطن.

[٦١] الوسمة: هي نبات يخضب به.

[٦٢] صقال: الجلاء.

[٦٣] بمعجر أسحم: ثوب تعتجر به المرأة فتضع طرفه على رأسها ثمّ تمر الطرف الآخر من تحت ذقنها حتى ترده الى الطرف الأول فيغطي رأسها وعنقها وعاتقها وبعض صدرها، وهو معنى التلفع هاهنا، والأسحم: الأسود.

[٦٤] الأقحوان: البابونج الأبيض وجمعه أقاح.

[٦٥] اليَقِق: (محركا) شديد البياض وخالصه.

[٦٦] يأتلق: يلمع.

[٦٧] قسط: نصيب.

[٦٨] علاه: أي فاق اللون الذي أخذ نصيباً منه بكثرة جلاله.

[٦٩] البصيص: اللمعان والبريق.

[٧٠] الرونق: الحسن الجميل.

[٧١] الازاهير المبثوثة: ج أزهار وج زهر، فهي جمع الجمع، والمبثوثة المنثورة.

[٧٢] لم تربّها: فعل من التربية.

[٧٣] القيظ: الحرّ الشديد.

[٧٤] ينحسر: هو من حسره أي كشفه، أي وقد ينكشف من ريشه فيسقط.

[٧٥] تترى: أي شيئاً فشيئاً وبينهما فترة.

[٧٦] ينحت: يسقط وينقشر ويتناثر.

[٧٧] عسجدية: ذهبية.

[٧٨] عمائق: ج عميق، البعيد القعر.

[٧٩] بهر العقول: قهرها فردّها.

[٨٠] جلاه: كشفه وأظهره.

[٨١] أدمج قوائمها: أودع أرجلها فيها، أحكمها.

[٨٢] الذرة: واحدة الذر: صغار النمل.

[٨٣] الهمجة (محركة) واحدة الهمج، ذباب صغير يشبه البعوض يسقط على وجوه الغنم.

[٨٤] وأى: وعد.

[٨٥] الحِمام: الموت.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

لم أجد ذكراً لها في بطون الكتب، الاّ ان ابن أبي الحديد قال في معرض حديثه عن الطاووس «فان قلت من أين للمدينة طواويس؟ وأين العرب من هذا الطائر؟ حتى يقول أميرالمؤمنين عليه السلام أحيلك من ذلك على معاينة، لاسيّما وهو يعني السفاد ورؤية ذلك لمن تكثر الطواويس في داره، ويطول مكثها عنده نادرة، قلت لم يشاهد أميرالمؤمنين عليه السلام الطواويس بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذٍ تجبى إليها ثمرات كلّ شيء، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق ورؤىةالمسافدةمع وجود الذكر والانثى غير مستبعدة»[١]، ويبدو لي من هذا الكلام انّ هذه الخطبة كانت في الكوفة أيام خلافته عليه السلام، وكان الهدف منها بيان قدرة اللّه وعظمته في الخلق والانشاء وقد قيل انّ اللّه تعالى يؤلف وعلي عليه السلام يخرج.

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص٤٦٤.

٢. شرح النص

اثبات الصانع: ابدع سبحانه وتعالى في مخلوقاته عجباً، سواءاً كان حيّاً أو ميتاً (بلا روح)، أو ساكناً (كالجبال) أو متحركاً (كالانسان والحيوان)، فأدلى بالشهادة عليه دقّة الصناعة في الخلق التي تحتاج إلى قدرة فائقة. فالعقول تعترف به وتستسلم خاضعة له، وأطرقت الدلائل أسماعنا على انّه لا إله إلاّ هو، الذي خلق أنواع الطيور، الساكنة في شقوق الأرض والطرقات وأعالي الجبال. لها أجنحة مختلفة واشكال متفاوتة وهيئات غير متشابهة، تطير مسخرة كما شاء لها اللّه سبحانه، باسطة أجنحتها، طائرة في الفضاء الواسع، خلقها من العدم في منظر أنيق جميل تسرّ الناظرين، وجعل لها مفاصل مخفية عن العيون، ومنع بعضها من الطيران بسرعة في السماء لثقل جسمها وضخامتها، بل جعلها تطير فويق الأرض قليلاً خلافاً للبعض الذي يبسط جناحيه في الجو. ونظمها على اختلاف ألوانها بدقة فائقة وقدرة ماهرة، ممّا جعل الأنظار تلتفت إليها.

أنواع الطيور: فجعل منها ذا اللون الواحد، لا تختلط به الألوان الاخرى، كالغراب الأسود، ومنها ما صبغ لها طوق بلون لا يشبه بدنه، كالحمام المطوق.

مشاهد فنية: ومن أعجب الطيور خلقاً الطاووس، حيث جعل فيه الاستقامة في جمال جسمه ولونه، فهو منظّم وفي أحسن الألوان، وجعل له جناحاً متداخل الأجزاء، وله ذنب طويل يسحبه على الأرض خيلاءاً، وينشره ويطويه إذا اتّجه نحو أنثاه، ويجعله مشرفاً على رأسه كالمضلة، وكأنّه الشراع المصنوع في دارين فيرفعه كما يرفع الملاح الشراع.

الطاووس والجنس: ويباهى الطاووس بألوانه الزاهية، ويتكبر بذنبه لما يُحرّكه يميناً وشمالاً، ويقترب لانثاه لقضاء الحاجة كما تصنع الديكة، ويُقبل على الانثى لأجل افراز المادة المنوية عنده كما تفعل الفحول في لقاحها ،اذا ما غلبت عليها الشهوة والغلمة.

الرد على الخرفات: وذلك عند ما يقول عليه السلام واحيلك إلى ما تراه العين لا ما تسمعه الاذن باسناد ضعيف ولو كان الأمر كما يزعم الداعي انّ اللقاح يتم بواسطة صبّ الدمعة في أحد جانبي غلاف العين فتشرب الانثى منه ثمّ تبيض (وتنشأ الافراخ) بلا عملية السفاد، بل انها تتم عن طريق الدمعة المنفجرة، فلم يكن الأمر غريباً بالنسبة للذي يدعي بعدم وجود السفاد عند الغراب، بل يتم اللقاح عن طريق المطاعمة (الشرب)، فانّهما باطلان.

الألوان جميعاً في الطاووس: يظن الناظر إلى عمود الريش (القصب) وكأنّه مشط مصنوع من فضةٍ، وذلك لبريق القصب وبياضها، وكذا يظن بالنسبة للريش النابت عليها. ومن عجيب ذلك استدارته كالشمس التي لها خطوط ذهبية خالصة وقطع من الزبرجد الأخضر، فان أردت أن تشبه الريش بالأعشاب، قلت بأنّها تشبه أزهار الربيع المختطفة تواً، لألوانها السارة، وان تشبهه بالملابس فهو يشبه النقوش على الثياب الجميلة والبرود اليمانية، وان تشبهه بالحلي والجواهر (المزينة للمرأة) فهو يعد كالفصوص الملونة من زبرجد واللماس ودرّ، قد أحاطت بها الفضة المزدانة بالجواهر.

يمشي معجباً بنفسه، متكبراً في جريه، يتفقد ذنبه وجناحيه بدقة، يضحك مبتسماً لجمال ثيابه وألوانه المختلفة من الرأس إلى الخاصرة. فاذا نظر الطاووس إلى رجليه صاح بدهشة وبكى بكاءاً شديداً، وتكلّم بكلام يكاد أن يكون

فصيحاً، يستغيث من قبح رجليه، وصدق صوته وحزنه يشهدان على صدق نيته، لأن قوائمه دقيقة تشبه أرجل الديك الخلاسية (المتولدة بين هندية وفارسية) فانّها تكون أقبح من الديك العادية، وقد ظهر في ساق الطاووس عظماً قصيراً لا يمسّ الأرض، وترى له رقبة، لها عرف فيها خصل من الشعر خضراء اللون منقوشة الجوانب،ولعنقة شكل هيئة الابريق، وكأنه داخل في جسمه، ويشبه بطنه بلون النيلج التي تصبغ بها الملابس اليمانية أو (العنق) كالحريرة السوداء بالمرآة الصقيلة، وكأنّه ملتحف برداء أسود على رأسه وكتفيه، وكأن اللون الأسود من شدة لمعانه يُخيل ان اللون الأخضر الطري الزاهي ممتزج بالأسود. والى جانب الشق عند اذنه ترى خطاً أبيض اللون كالبابونج وكأنه رسم بقلم دقيق، شديد البياض إلى جانب اللون الأسود، اللامع المحاط بالعنق، وقلّ ما تجد لوناً لم يأخذ نصيبه منه، وعلته جميع الأصباغ الزاهية بجلائها وبريقها، وضياء ريشه الحريري يكسبه جمالاً رائعاً. فلون الريش يشبه أزهار الربيع المنتشرة في الصحراء التي لم تُسق بمياه الأمطار الربيعة، ولاتسمها شمس الصيف القائظ (الحار)، (لأن العاملين المذكورين تصقل الأزهار بهاءاً وجمالاً، وليس الطاووس هكذا). وقد يسقط جميع ريش الطاووس الجميل من بدنه شيئاً فشيئاً، ويتعرى من ثوبه، ويعود الانبات متتابعاً، فيتساقط الريش من قصه (عموده)، كما تتساقط أوراق الشجر من الأغصان، ثم ينمو الريش بتلاحق في مكانه الساقط ويعود إليه كما كان عليه (بلا زيادة ولا نقصان)، ولا تختلف ألوانه عما كانت عليه في الماضي، فلا يختلف لونه الجديد عما كان عليه سابقاً.

واذا نظرت بدقة إلى شعرة من شعرات قصبه (عموده) النابت على جسده لتجد لون الشعرة حمراء كالوردة، وأُخرى خضراء كالزبرجد في الصفاء، وتارة

صفراء كالذهب، فهل تتمكن الأفكار الدقيقة الوصول إلى ماهيته هذا الطائر الجميل؟ وهل ستبلغ إليه العقول الحاذقة؟ وهل يمكن أن يصفه الواصفون في كلامهم؟ لأن أصغر أجزاء هذا الطائر أعجز الأفكار عن الاحاطة به، وكذا الألسن عاجزة عن توصيفه. فسبحان اللّه الذي قهر العقول عن وصف مخلوق كشفه للعيون، فأبصرته محدّداً بحدود ومخلوقاً مؤلفاً من أجزاء ذات ألوان، حيث عجزت الألسن عن تلخيص وصفه، ولا يمكنها أداء وصف هذا المخلوق.

وصف النمل والفيل: فسبحان اللّه الذي خلق النملة والذباب الصغير تسير على أرجل متصلة بأبدانها، ثمّ انظر إلى عظيم الخلق من حيتان البحر والفيلة التي تسكن الغابات، حيث ألزم سبحانه وتعالى نفسه على أن لا يحرّك جسماً من الأجسام التي أدخل فيها الروح إلاّ وجعل لها وقتاً معلوماً (مماتاً) في الحياة، وغايته في النهاية إلى الفناء.

الطاووس في السطور[1].

١. الطاووس على زنة فاعول، وتصغيره بعد حذف الزائد طويس.

٢. يعيش الطاووس خمساً وعشرين عاماً.

٣. يبيض في السنة الثالثة من عمره عند ما ينتقش لونه.

٤. يبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيّام، ويحضنها ثلاثين يوماً.

٥. يتساقط ريشه مع تساقط الأوراق ويُنبت مع براعم الأشجار.

---

١. نقل بتصرف عن ابن أبي الحديد، ج٢، ص٤٦٧.

٣. الافكار

اشتملت الخطبة على بيان عظمة اللّه سبحانه في انشاء الخلق، ومنها خلق الطاووس وذكر عجائب الطيور، والردّ على الجهلاء، وذكر شيئاً من علم النفس الحيواني، وذكر العجائب من الألوان والأصباغ لدى الطاووس، وعجز الانسان عن ادراكها، ثمّ أخيراً يقارن بين أصغر خلق اللّه وأكبره.

٤. العواطف

يرى صاحب العمدة[١]: انّ مصدر العاطفة هي الرغبة والرهبة والطرب والغضب، ويراها الاخرون في اثارة الجمال، لقد جمع الامام عليه السلام هذين القولين (الرغبة و... اثارة الجمال) في كلامه هنا، فلولا انفعاله بجمال الطاووس لم يندفع إلى القاء هذه الخطبة وإلى عبارات فيها صدق النية، فهو يبعد كل البعد عن التظاهر والاصطناع بل يصف ما تراه عيناه ويشعر به قلبه عليه السلام، بأحاسيس مرهفة ومعاني قوية تظل أثرها السحري مستمرة في قلوب سامعيها، فهو يسير على خط مستقيم في عاطفته ليس فيها صعود ولا نزول، وعلى منوال واحد في الحركة.

فأمّا الجمال فهو المحور الأصلي للبيان، بل قل انّ الجمال ألقى بظله على أرجاءالخطبة فما من جملة إلاّ واصطفت الكلمات البديعة بعضها إلى جنب بعض كقوله عليه السلام: فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه، فلو جعلنا الضحك (حالة سرور النفس عند الطرب) إلى جانب الألوان المختلفة، ستجد النفس ارتياحاً لدى المستمع أو القارئ. ثم انظر إلى كلامه عليه السلام: لون الأقحوان أبيض... في

---

١. العمدة، ج١، ص١٢٠.

سواد، لقد اختار من الألوان ما هو ضد (الأسود والأبيض)، فانّها لتثير الاحساس بالجمال كما قيل ان الحسن يظهره الضد. ومن جهة اخرى له رغبة شديدة بألوان الطاووس الزاهية المتناسقة (من أسود وأبيض وأخضر وأصفر وأحمر و...) فلم يأتي هذا الكلام إلاّ بعد ما أحبت النفس هذه الألوان، وهو معجب أيضاً بذنبه الذي يشبه المضلّة على رأس الطاووس، فشعوره عليه السلام بجمال الذنب يجعله أن يفكر بما في التشبيه له من شراع السفينة. فانظر إلى ما اختاره الامام عليه السلام من الكلمات المثيرة للمشاعر من الأصباغ والألوان والاختيال والسمو و... و...

ثمّ للنظر إلى عامل الرغبة والرهبة لقد أخذا قسطاً من كلامه عليه السلام في قوله: وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعاً، فالسقوط والعريان من اللباس فيها شعور بالحزن، والانبات ثانية فيها شعور بالشوق، هذه الأحاسيس فرضت نفسها على الامام عليه السلام وكذلك على نفس المستمع، فهما بين الأخذ والعطاء، فتارة يعلو الحزن على الوجوه واخرى السرور، مشاهد جميلة.

وأخيراً يظهر اعجابه في هذا المخلوق قائلاً: فسحان الذي بهر العقول عن وصف خلق...، فالتعجب هذا ناشيء من الشوق إلى هذا الطائر، وكذا اظهار العجز في توصيفه بالألسن. ثم ان قوله سبحانه الذي، بمنزلة النداء، وهي حالة نفسية صورها الامام عليه السلام حين الرهبة لما رأى عظمة الخالق سبحانه.

٥. عنصر الخيال

الخطبة مبنية على الوصف، والوصف هنا يعتمد على الحس الدقيق وعلى الرؤية والمشاهد بالعين، وكذلك يعتمد الوصف هنا على ما اكتسبه الامام عليه السلام من التجارب، فلا نظريات ولا فرضيات، ولا اقتراحات، ولا أفكار متشتّة بل كل ما

في الأمر ان الحواس والتجربة ساهمت في بناء هذا الكلام مرتكـزةً علـى عنصـر التشبيه بالدرجة الاولى، «وقيل ان من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم»[1].

فالتشبيهات التي عمّت الخطبة تجسد مظهر الحسّ وهي أقرب وسيلة لدرك المفاهيم والعلوم التجربية، فهذه التشبيهات تكفي لابداع صور فنية مختلفة بعضـها عن بعض ولها جوانب متعددة. واعلم ان «مدح المشبه وتحسين حاله، ترغيباً فيـه وتعظيماً له بتصويره بصورة تهيج في النفس قوى الاستحسان بأن يعمـد المـتكلم إلى ذكر مشبه به مُعجب، قـد اسـتقر في الـنفس حسـنه وحبّـه فيصـور المشـبه بصورته»[2]. «وأما فائدة التشبيه من الكلام، فهي انّك اذا مثلـت الشـيء بالشـيء فانّما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلـك أوكـد في طرفي الترغيب... ألا ترى انّك اذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها»[3]، وأخيراً للنظـر إلى كـلام الامام عليه السلام كيف نحت الطاووس جمالاً في خطبته هذه، فنقول:

١. صورة المظلة: قوله عليه السلام: وسما به (الذنب) مطلاً علـى رأسـه كأنـه قلْـع داري، فالشراع قوة محركة للسفينة، وكذلك الحال بالنسبة لذنب الطاووس، بل لن تكون فقط القوة المحركة له إلى الجهات المختلفة والاتجاه المناسب بـل سـيظل بـه على رأسه كأنّه الملك في مشيه.

---

١. المثل السائر، ج١، ص٣٧٩.

٢. جواهر البلاغة، ص٢٧٣.

٣. المثل السائر، ج١، ص٣٧٨.

٢. صورة متكاملة للريش: قوله عليه السلام: تخال قصبه مداري مـن فضـة، ومـا أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان، وفلذ الزبرجـد فـانظر الى هذه الصورة المركبة من مشاهد مختلفة فالمداري أبيض اللون كالفضة، ومـا ظهـر عليه من الشعر تشبه هالات القمر، واستدارة الشمس، وألوانه الزاهية من الذهب (الأصفر) والزبرجد (الأخضر)، فما أروعه من تشبيه في التمثيـل، واظهـار جمـال المشبه يُعدّ من أسمى أهداف التشبيه.

٣. صورة السفاد، قوله عليه السلام: يفضي كافضاءالديكة، ويؤرّ بملاقحه ارّ الفحول المغتلمة في الضراب، حيث يشبه الامام عليه السلام الطاووس بالديك حالة اللقاح، حيـث يأتي نحو الانثى بكل شهوة وشبق.

٤. باقة الربيع، قوله عليه السلام: فان شبهته بما أنبتـت الأرض... جـنيّ جـني مـن زهرة كلّ ربيع، فالألوان مختلفة وجميلة ومتناسقة كتناسق أزهـار الربيـع المنظمـة بعضها إلى بعض، وكأنّك تحيي الربيع بما فيه من أزهار ورياحين، وأمطار وريـاح وأرض وسماء...

٥. الملابس المحلاة، قوله عليه السلام: وان ضاهيته بالملابس فهو كموشـيّ الحلـل... كما ان الحلل والملابس اليمانية مزخرفـة ومنقوشـة بالـديباج والحلـل، فـريش الطاووس كذلك، فما أعظمه من جمال ينظم إلى جمال.

٦. الحلل والجواهر، قوله عليه السلام: وان شاكلته بالحليّ فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين... صورة مركبة أُخرى تظهر جمال ألوان الطاووس، فهو يشـبه الفصوص في الخاتم (ألوان متنوعة) ثم انّها رُكّبت على فضة (اللون الأبيض)، فهـو ىعد من التشبيه الجميل.

٧. صورة العنق، قوله عليه السلام: ومخرج عنقه كالابريق، ففيه من الاناقة والرفعة والطول والدقة كما هو الحال في الابريق، بل قل ان الابريق اتّخذ جماله هذا من عنق الطاووس.

٨. صورة للبطن: وهي أيضاً مركبة من مشاهد مختلفة فقوله عليه السلام: بطنه كصبغ الوسمة اليمانية (من حيث ثبوت اللون)، وهذا هو المشهد الاول، وقوله عليه السلام: كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال (من حيث اللمعان والبريق) وهذا هو المشهد الثاني، وقوله عليه السلام: وكأنه متلفع بمعجر أسحم، وهذا هو المشهد الثالث، حيث يشبهه عليه السلام كالمرأة التي تضع طرف ثوبها على رأسها والآخر على ذقنها، وهذا الكلام يعدّ من أروع مشاهد البيان.

٩. صورة الاذن، قوله عليه السلام: ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الاقحوان... فالى جانب اذنه خط أبيض دقيق، كما رسمه الجليل، واضافة هذا البياض إلى السواد ما هو الا أن تتم الصورة المركبة الجميلة للاذن.

١٠. اللون البهي، قوله عليه السلام: فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربها أمطار الربيع ولا شموس قيظ، فان ألوان الطاووس لم تكن كأزهار الربيع التي تسقيها الأمطار ولا التي تشرق عليها شمس الصيف بل هي أعلى منزلة وأجمل منها، لأنها مصدر الجمال.

فهذه مشاهد مختلفة رسمها الامام عليه السلام من جهات متنوعة، حتى تكتمل الصورة في جمالها الطبيعي الحسي، فالجمال لا يصدر الا من الجميل فما أعظمك يا ربّي جمالاً.

والآن لننظر إلى عنصر الاستعارة التي جاءت في قوله عليه السلام: بصيص ديباجه، يعني ضياء ريشه، فقد استعير البصيص (وهو أول النور الذي يبتدأ ضئيلاً) لبريقه،

واستعير الديباج (الحرير) لريشه، فالاستعارة تصريحية، وأما قولهعليه السلام: فتقف في ضفتي جفونه، فالضفة عادة تستعمل للنهر ولكنه استعارة للعين على سبيل الاستعارة المكنية.

وأما الكناية: فقولهعليه السلام: نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته، فهي كناية عن وضوح الأدلة على الوحدانية (كناية عن صفة).

وقولهعليه السلام: وقلّ صبغ الاّ وقد أخذ منه بقسط، كناية عن أن جميع الألوان قد اشتركت في اصباغه، فهو كناية عن موصوف.

ثمّ انهعليه السلام استعان بالفرضية لبيان الصورة بوضوح أكثر كما جاء في قولهعليه السلام: ولو كان كزعم من يزعم انه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه... فالاستعانة بـ«لو» تدل على المحال، ولأجل أن تتكامل الصورة استدل على اثبات مدعاه بقولهعليه السلام: ثم تبيض لا من لقاح فحل... لما كان ذلك من مطاعمة الغراب.

٦. الاسلوب

كما انّ الطاووس جميل بألوانه الزاهية، فاسلوبهعليه السلام أجمل من الطاووس، حيث احتوى على الفنون التالية:

١. التقسيم[١]: هو من أحد طرق التعريف كما ذكره المناطقة، وبه يتم تعين الحدود وتحصيل الفوائد والفوارق بين الامور، وله أنواع مختلفة من طبيعية ومنطقية، واساليب ثنائية وتفصيلية، ومن أراد البسط في البيان فعليه بكتب

---

١. هو من أحد الفنون البلاغية وهو عبارة عن أن يستوفي أقسام الشيء نحو قوله تعالى: له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (طه،٦).

المنطق. ولقد اشغل التقسيم البلاغي ـ المنطقي، مساحة واسعة من هذه الخطبة فمنها:

١. انواع المخلوقات، ففي قوله عليه السلام: ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات وساكن وذي حركات، حيث قسم المخلوقات إلى الاحياء والأموات، وساكنة بلا حركة كالأشجار ومتحركة كالأنعام.

٢. أنواع السكن، ففي قوله عليه السلام: أسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها ورواسي أعلامها، فيه اشارة إلى اتّخاذ الطيور أعشاشها في شقوق الأرض والاخرى في سفوح الجبل والأخيرة على قلل الأجبال.

٣. أنواع الأجنحة، في قوله عليه السلام: ذات أجنحة مختلفة، وهيئات متباينة، مصروفة في زمام التسخير ومرفوفة بأجنحتها في مخارق الجو...، فالأجنحة مختلفة الأنواع ولها أشكال متغايرة بعضها عن الآخر، كما هوالحال.

٤. أنواع الأجسام، في قوله عليه السلام: ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في السماء خفوفاً، وجعله يدفّ دفيفاً... فالطيور اما تطير في جو السماء واما تسير على الأرض لضخامة جسمها.

٥. أقسام الألوان للطيور، في قوله عليه السلام: فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غُمس فيه، ومنها فغموس في لون صبغ قد طوّق بخلاف ما صُبغ به، ومن أعجبها خلقاً الطاووس... فبهذه التقسيمات المتوالية يتم التعرّف على ألوان الطيور وأنواعها، من دون الخوض في المسائل العلمية، فيدركها العوام والخواص بأدنى فهم وشعور، وهو الهدف الاسمي للأدب والأديب.

٢. السجع: فلو نظرنا إلى هذه الفقرات من قول عليه السلام:

الف: الذي أقامه في أحكم تعديل، ونضّد ألوانه في أحسن تنضيد،

باء: بجناحٍ اَشرح قصبه، وذنبٍ أطال مسحبه،

جيم:اذادرج الى الانثى، نشره من طيّه،

وسما به مُطلاً على رأسه،

دال: كأنّه قلع داري عنجه نوتيّه،

يختال بألوانه، ويميس بزيفانه.

هاء: يفضى كافضاء الديكة،

ويؤرّ بملاقحة أرّ الفحول المغتلمة.

فالملاحظ في أكثر الفصول انها جاءت متساوية الأوزان ومتجانسة الأصوات مما تزيد التأثير في النفوس لوقعها الموسيقي الجميل، ويعدّ السجع هنا من النوع القصير، وعادة يكون من أوعر المسالك للفنان، وهي طوع يد الامام عليعليه السلام، وأكثر أسجاعه على هذا المنوال، ثم تختلف التفعلية حسب متطلبات السياق.

٣. لزوم ما لا يلزم: وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً وأبعدها مسلكاً، وهو «ان يلتزم المؤلف ما لا يلزمه، ففي السجع اللازم تساوى أجزاء الفواصل في الكلام المنثور في قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً»[١].

والأمر واضح كما هو المشهود في الفقرة باء في السجع.

٤. مراعات النظير: وهي الجمع بين أمرين أو امور متناسبة لا على جهة التضاد، فانّنا نجد هذا العنصر قد تجلى في كلامهعليه السلام في الفقرة ألف من البند الثاني (السجع) بين كلمتي اقامه ونضّد، فالاستواء والنظام يكمل أحدهما الآخر، وكذا

---

١. المثل السائر، ج١، ص٢٦٢.

الحال في الفقرة باء لقد جمع بين جناح وذنب، وهكذا الأمر في الفقرة دال جمع بين كلمتي يختال ويميس، وبذلك تم النحت الكامل للصورة المطلوبة.

٥. الطباق: وهو التضاد بين الكلمات من حيث المعنى، فانّنا نجد هذا المعنى في قوله عليه السلام: لطيف صنعته وعظيم قدرته، وكذلك في قوله عليه السلام نشره وطيّه، وكذلك في أبيض وأسود، فان هذه الأمور تزيد جمالاً في النص.

٦. الاقتباس: ممّا لا شك فيه انّ كلام الأمير عليه السلام هومولودالقرآن الكريم، فما من كلام له عليه السلام الاّ وتضمن من القرآن آيات، واحياناً يكون الاقتباس كلياً وأُخرى جزئياً كما هوالحال في هذه الخطبة وعلى سبيل المثال نشير إلى بعضها:

١. قوله عليه السلام: أسكنها أخاديد الأرض، فانها مقتبسة من قوله تعالى: قُتل أصحاب الاخدود (البروج، ٤).

٢. قوله عليه السلام: جَنيّ جُني من زهرة كل ربيع، فانّها مقتبسة من قوله تعالى: وجنى الجنتين دان(الرحمن، ٥٤).

٣. قوله عليه السلام:وان ضاهيته بالملابس، فانّها مقتبسة من قوله تعالى: يضاهؤون قول الذين كفروا (التوبة، ٣٠).

٤. فيسقط تترى، فانّها مقتبسة من قوله تعالى: ثم أرسلنا رسلنا تترى (المؤمنون، ٤٤).

وقفة مع الكلمات

«لابد للأديب أن يختار من الكلمات أدقها في أداء المعنى الذي يجول في خاطره فقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدل على احساس ومشاعر الأديب من الاخرى، فالأديب الموفق هو الذي يهتدي إلى الكلمة التي

تكون شديدة الانابة عما يريد، لأن التمييز بين الألفاظ صعب جداً»[1]. فبناءاً على ما تقدم نشير إلى بعض الفروق بين الكلمات المستخدمة في هذه الخطبة:

١. قوله عليه السلام: ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات وساكن وذي حركات، «فالفرق بين السكون والحركة، ان السكون يوجد في الجوهر في كل وقت ولا يجوز خلوه منه، وليس كذلك الحركة، لان الجسم يخلو منها الى السكون»[2].

٢. قوله عليه السلام: وما ذرأ من مختلف صور الأطيار... «فالذرء اظهار اللّه تعالى ما أبداه، فيقال ذرأ اللّه الخلق أي أوجد أشخاصهم، قال تعالى: ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والانس (الاعراف، ١٧٩)»[3]، فهو يختلف في المعنى عن الخلق الذي «أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولااقتداء قال تعالى: وهو الذي خلق السموات والأرض بالحقّ (الانعام، ٧٣)... وليس الخلق الذي هوالابداع إلاّ للّه تعالى»[4].

فالملاحظ يرى مدى الاختلاف بين الكلمتين «الذرء ـ الخلق» من ظهور إلى الابداع الخاص بالذات المقدس، فالخلق أعظم من الذرء، حيث استخدمها البارئ تعالى لأعظم موجود خلقه ألا وهو البشر الذي يقول في شأنه: خلق الانسان علّمه البيان (الرحمن، ٣)، وكذا استخدمها في بناء السموات والأرض لعظمتها، والجنّ والنفس والدابّة و... لما فيها جميعاً عنصر العظمة والابتكار الخاص به جلّ اسمه.

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٤٥٢.

٢. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص١٢٠.

٣. المفردات، ص١٧٨.

٤. نفس المصدر، ص١٥٧.

٣. قوله‌عليه‌السلام: ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته، فطرق الاسماع عادة يكون قبل رؤية الأبصار، وقد قدّم القرآن الكريم السمع على البصر في أكثر الاحيان، حيث عبر عن ذاته المقدس مقدماً السمع على البصر في قوله: ويولج النهار في الليل، وان اللّه سميع بصير (الحج، ٦١) وكذلك في الانسان حيث يقول: قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة (الملك، ٢٣). ومن السنن المعروفة لدى المسلمين من تلاوةالاذان والاقامة في أُذني الطفل المولود تواً، وتلقين الميت قبل لحده، وهذا يعني انّ السمع أطول عمراً وأشدّ ادراكاً من بقية الحواس، وان حاسة السمع من المدركات المعنوية بعيدة المدى، بخلاف المدركات الاخرى، فمثلاً يمكن للانسان أن يسمع صوتاً دون أن تراه العين، لذلك نجد الاذن اذا أدركت صوتاً توجهت العين اليه، وربما تحدد في الحال كنه ذلك الصوت بحسب المعرفة ومصدره من انسان أو حيوان أو جماد، بعيداً كان أو قريباً، مجهولاً كان أو معروفاً، رقيقاً كان أوغليظاً، أليفاً كان أو مخيفاً، حسناً كان أوغير حسن وهكذا. وإلى هذا المعنى أشار بشارابن برد في قصيدة:

يا قوم اذني لبعض الحيّ عاشقة والاذن تعشق قبل العين احياناً

فالشاعر يشير بصراحة إلى أن السمع تعشق قبل العين. فانظر إلى البراعة التي استخدمها الامام‌عليه‌السلام في أدبه هذا فلنتخذه اسوة في أدبنا المعاصر.

٤. قوله‌عليه‌السلام: وان شاكلته بالحُلي... «فان الشكل هو الذي يشبه الشيء في أكثر صفاته حتى يشكل الفرق بينهما... ولهذا لا يستعمل الشكل إلاّ في الصور

فيقال هذا الطائر شكل هذا الطائر»[1]. فان الانتقاء الجميل لأداء المعاني الدقيقة جاءت متجلية في هذه الخطبة.

٥. قولهعليه السلام: فان شبهته بما أنبتت الأرض وان ضاهية بالملابس... وان شاكلته بالحلي... اعلم ان المضاهاة قريبة المعنى من المشاكلة والمشابهة فهي تحتوي على المعنيين في آن واحد ولكنّ المشابهة والمشاكلة ان اقتربتا معنى ولكن مع فارق بينهما، فالمشاكلة تأتي في الهيئة والصورة، والمشابهة انّما تأتي في الكيقية، حسب ما جاءت في كتب اللغة فانظر إلى هذه الدقة في التعبير بمعنى انهعليه السلام جاء بكلام يحتوي على الكم (الهيئة) من جهة وعلى الكيف من جهة أُخرى، فبذلك أعطى الكلام حقّه.

مع المعربات

من احدى مميزات اللغات الحيّة في العالم ان تستعين باللغات الاخرى للافصاح عن مآربها، فهنا تأتي عملية الاستقراض اللغوي، فلأجل ان تبقى لغة القرآن حية دخلت فيها بعض المعربات من مثل سجيل واباريق... من الفارسية، وقسطاس وقرطاس... من اليونانية و... و... وعادة الاستقراض هذا لا ىتجاوز أصابع اليد، وهذاأميرالمؤمنين عليعليه السلام يستعين بها في هذه الخطبة:

١. قولهعليه السلام: فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله، «السربال: لباس، وهو معروف معرب شروال، وأصله سربال مركب من سرأي فوق ومن بال أي القامة، وفيه

١. الفروق اللغوية، ص١٢٧.

بالعربية لغات: سروال وسرويل وسراوين وسراويل وشراول. وبنوا منه أفعالاً منها سرول، وتسرول وسربل وتسربل»[1].

٢. قوله عليه السلام: ومخرج عنقه كالابريق، «والابريق: اناء من خزف أو معدن له عروة، وفم وبلبلة، معرب آبريز، ومعناه يصب الماء، وهو يُطلق بالفارسية على الدلو أيضاً، وكأس الحمام والسطل وغير ذلك مما يضارعها. ومنه السرياني... والفرنسي... والايطالي... والتركيّ والكردي ابريق ويقربه الجرماني krug والفرنسيّ Cruche»[2].

وقد استخدمها القرآن العظيم في قوله تعالى: يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين(الواقعة، ١٨).

التحليل الاعرابي

لقد اخترنا الكلمات التالية لبيان موقعها من الاعراب:

١. قوله عليه السلام: ابتدعهم خلقاً: فالخلق مفعول مطلق.

٢. قوله عليه السلام: ماانقادت: «ما» مفعول به لأقام.

٣. قوله عليه السلام: العقول معترفة: فمعترفة حال.

٤. قوله عليه السلام: أن يسمو في الهواء خفوفاً: خفوفاً حال من الضمير من يسمو.

٥. قوله عليه السلام: من أعجبها خلقاً الطاووس: خبر مقدم والطاووس مبتدأ مؤخر وخلقاً تمييز.

٦. قوله عليه السلام: سما به مُطلاً: مطلاً حال.

---

١. الألفاظ الفارسية المعربة، ص٨٨.

٢. نفس المصدر، ص٦.

٧. قوله عليه السلام: فيقهقه ضاحكاً: ضاحكاً حال مؤكد ومثله معولاً.

٨. قوله عليه السلام: كحرير ملبسة مرأة: مرأة مفعول ملبسة.

٩. قوله عليه السلام: فادركته محدوداً: محدوداً حال من الهاء في ادركته.

الدرس التاسع

عصر الرسول صلى الله عليه وآله

ومن خُطبة له[1] بعد انصرافه من صفّين[2]:

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنعْمَتِهِ،وَ اسْتِسْلاماً لِعزَّتِهِ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِـيَتِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ إِنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَ لا يَئِلُ[١] مَنْ عَادَاهُ وَ لا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَ أَفْضَلُ مَا خُزِنَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّـه وَحْـدَهُ لا شَـرِيكَ لَـهُ، شَـهَادَةً مُمْتَحَنـاً إِخْلاصُهَا، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا[٢]، نَتَمَسَّكُ بِهَـا أَبَـداً مَـا أَبْقَانَـا، وَ نَـدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَـةُ الإِيمَـانِ، وَ فَاتِحَـةُ الإِحْسَـانِ وَ مَرْضَـاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ[٣]، وَ أَشْهَدُأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُـولُهُ أَرْسَـلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ[٤] وَ الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَ النُّورِ السَّاطِعِ، وَ الضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَ الْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجـاً بِالْبَيِّنَـاتِ،وَ

---

١. نهج البلاغة، خ٢، صبحي الصالح، ص٤٦.

٢. صفّين اسم الأرض التي كانت فيها الحرب، والنون فيها أصلية، ذكر ذلك صاحب الصحاح، فوزنها على هذا فعيل كفسّيق وخمّير وصرّيع... فان قيل فاشتقاقه مماذا يكون، قيل لو كان اسماً لحيوان لأمكن أن يكون من صفن الفرس اذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر، يصفن بالكسر صفوناً... شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص٤٣. وهو اسم مكان بين الفرات ودجلة أو من توابع سوريا قرب حلب.

تَحْذِيراً بالآيَاتِ، وَ تَخْويفاً بالْمَثُلاتِ[٥]وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ[٦] فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَ تَزَعْزَعَتْ سَوَارِي[٧] الْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ[٨]وَ تَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَ عَمِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهُدَى خَامِلٌ[٩]، وَالْعَمَى شَامِلٌ عُصِيَ الرَّحْمَنُ، وَ نُصِرَالشَّيْطَانُ، وَ خُذِلَ الإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَ تَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ[١٠]،وَ دَرَسَتْ[١١] سُبُلُهُ،وَعَفَتْ شُرُكُهُ[١٢]، أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَ وَرَدُوا مَنَاهِلَهُ[١٣]، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ، وَ قَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا[١٤]، وَ وَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِهَا[١٥]وَ قَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا[١٦]، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ[١٧]وَ شَرِّ جِيرَانٍ. نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَ كُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَ جَاهِلُهَا مُكْرَمٌ.

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَ لَجَأُ[١٨]أَمْرِهِ وَ عَيْبَةُ[١٩] عِلْمِهِ وَ مَوْئِلُ[٢٠] حُكْمِهِ وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ وَ جِبَالُ دِينِهِ. بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ وَ أَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ[٢١].

وَ مِنْهَا يَعْنِي قَوْماً آخَرِينَ:

زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَ سَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَ حَصَدُوا الثُّبُورَ[٢٢]، لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ص مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ وَ لا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَ عِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ[٢٣] الْغَالِي[٢٤]، وَ بِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي وَ لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلايَةِ، وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَ الْوِرَاثَةُ، الآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَ نُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ[٢٥].

[١] وأل يئلُ، مثل وعد يعد: نجا ينجو، والموئل: الملجأ.

[٢] مُصاص كلّ شيء: خالصة من كل شائبة.

[٣] مدحرة الشيطان: أي انها تبعده وتطرده.

[٤] المأثور: المنقول، يقال حديث مأثور ينقله خلف عن سلف، وأيضاً بمعنى المختار والمقدم على غيره، ويجوز انه عنى به القرآن الكريم.

[٥] المَثُلات: بفتح وضم: العقوبات، جمع مَثُلة.

[٦] انجدم: انقطع.

[٧] السواري: جمع سارية وهي العمود والدعامة يدعم بها السقف.

[٨] النجر: الأصل، أي اختلفت الاصول فكل يرجع لأصل يخاله حقاً، وماهو من الحقّ في شيء.

[٩] الخامل: الساقط، ومن لاذكر له ولا أحد ينتبه إليه.

[١٠] المعالم: ج مَعْلَم: مظنة الشيء وما يستدل به عليه، علامة، أثر؛ وتنكرت معالمه: تغيرت آثاره.

[١١] درست: انطمست وانمحت.

[١٢] الشرك: جمع شراك ككتاب وهي الطريق.

[١٣] المناهل: جمع منهل، وهو مورد النهر والشرب.

[١٤] الأخفاف: جمع خفّ، وهو للبعير كالقدم للانسان.

[١٥] الاظلاف: جمع ظلف بالكسر، للبقر والشاء وشبههما، كالخفّ للبعير والقدم للانسان.

[١٦] السنابك: ج سُنبك كقنفذ: وهو طرف الحافر.

[١٧] خيردار: مكة المكرمة، وشرّ جيران عبدةالأوثان والأصنام من قريش.

[١٨] اللجأ: (محركة)الملاذ والملجأ والمعتصم.

[١٩] العيبة: وعاء لحفظ ما يودع فيه.

[٢٠] الموئل: المرجع،أي ان حكمه وشرعهﷺ يعود إليهم أهل البيت حفظة كتبه يحوونها كما تحوي الكهوف ما فيها.

[٢١] الفرائص: ج فريصة، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف لا تزال تُرعد من الدابّة.

[٢٢] الثبور: الهلاك والعطب.

[٢٣] يفيء: يرجع.

[٢٤] الغالي: المبالغ الذي يُجاوزالحد بالافراط.

[٢٥] المنتقل: (بفتح القاف) مصدر بمعنى الانتقال.

التحليل الأدبي

١. المناسبة

قيلت هذه الخطبة بعدانصرافه من معركة صفين إلى الكوفة.

٢. شرح النص

فلسفةالحمد وعناصره: بدأ بحمد اللّه تعالى على جميع آلائه ومنها الزيادة في النعم حيث يقول عزّ من قائل ولئن شكرتم لأزيدنكم، ثم الانقياد لربّ العزة والعظمة، طالباً منه العصمة من الذنوب، وكذلك يطلب المساعدة منه، حتى لا يحتاج إلى أحدالاّإليه سبحانه، وأنّه(اللّه تعالى) لا يضل أحداً طلب منه الهداية،

ولا ينجو الذي يعاديه، ولا يحسُّ بالفقر الذي أغناه اللّه تعالى، وأن الحمد والثناء من أحسن الأعمال في الميزان، ومن أحسن الذخائر ليوم الجزاء.

كلمة الاخلاص: واشهد أن لاإله إلاّ اللّه، فهي كلمة التوحيد والاخلاص والتنزيه، وهي أصل الاصول في الشريعة المحمدية، وبها تمتاز عن سائر الأديان، يعتقد بها المسلم قولاً وعملاً فلا يشرك بعبادة ربّه أحداً، وتعدّ خالصة من بعد الامتحان والاختبار، وعارية عن شوائب الشرك،ولا نعدل عنها مهما طال بناالزمان، وهي ذخيرتنا ممّا نواجه المخاوف في الدنيا والآخرة، لأنّها ارادة الايمان (ومن دونها ليس للايمان معنى)،وهي بادرةالاحسان وموجبة لرضى الربّ ومطردة للشيطان.

الشهادة بنبوّة محمّدصلى الله عليه وآله: واشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، علماً أن كلمة التوحيد عظيمة الشأن جداً ولكن لا تتم معناها إلاّ بالاعتراف بنبوّة محمّدصلى الله عليه وآله، ولا يكتمل الايمان بهما إلاّ بالاعتراف بالقيامة، بعثه اللّه مع الدين المشهور، والظاهر الذي لاخفاء فيه، والعلامة المختارة.

القرآن الكريم: والقرآن العظيم الذي هو النورالمشرق والضوءاللامع (لسدّ فجوةالعمى)والكاشف للحقّ.

صفات المبشر: لأجل التمييز بين الحقّ والباطل بالأدلة والبراهين الواضحة وانذارهم من عذاب اللّه ونكاله للظالمين، وتحذيرهم من العقوبات التي حلت بالامم السالفة.

عصرالرسولصلى الله عليه وآله: وان الناس غرقوا في البلايا والفتن، وانفصمت عروةالدين وتزلزت أعمدة اليقين (باللّه والقيامة)، فلا اصول انسانية ولا اجتماعية ولا عقائدية ولا... فكلّ يسير طبقاً لسلوكه الخاص، ولا يعرف الانسان كيف

يخرج من الاهواء لضيق المخرج، وأصبح المصدر مجهولاً فلا هادي لديهم، فالهدى ليس بظاهر،والجهل متفشٍ بين الامة، فالناس عصاة مردة لأمر اللّه تعالى،والشيطان مطاع منصور من قبل أعوانه،والايمان متروك وليس له ناصر، فتساقطت أعمدته وتغيرت آثاره، وانطمست طرقه وانمحى طريق الهدى، فالناس أطاعواالشيطان وسلكوا مناهجه ووردوا مشاربه، وبأعلام الشيطان اهتدى الناس، وبضلالة الناس تمكن الشيطان من إقامة اعلامه وبيارقه، حيث الفتن سحقتهم تحت أقدامها، وتارة تحت أظلافها، وسيطرت الفتنة بجوافرها على الناس والهدى، فالناس ضالون متحيرون جاهلون للحقّ، استهوتهم الضلالة في أفضل بقعة من الأرض ألاوهي مكة المكرمة، حيث جاورها أشرار الخلق من عبدة الأوثان والأصنام من قريش، فهم لا ينامون بل يسهرون لشدة الخوف الحاكم على المجتمع المضطرب، وكأنّ الدمعة كحلهم الملازم لهم (البكاء من شدةالبلايا) في منطقة من الأرض ليس للعالم فيها منزلة والجاهل مكرّم عند الناس.

فضائل العترة الطاهرة: فهم عليهم السلام محل علم اللّه سبحانه(والسر ما لا يصلح اظهاره من الآجال والأرزاق و...) وهم مصدرأوآمره(كماان الاشراف ملجأ للناس) وهم وعاء علمه، لأنّه يفضيه عليهم، وهم مرجع حكمه تعالى، وانّهم الكهوف الواسعة صدراً لكتبه السماوية من القرآن والتوراة والانجيل و... و... وهم كالجبال الراسية على الأرض لا يزحزحهم شيء، وبآل محمدﷺ أقام اللّه سبحانه دينه، (من قبل أن يدخله الضعف)، وبهم أبعد اللّه الرعدة والخوف عن الدين.

الفجّار: زرعوا الفجور[1] (أي ارتكبوا القبائح) وسقوها بغرورهم الدنيوي، واقتطفوا ثمرتها من الهلاك والدمار.

منزلة آل البيت: لا يساوي أحد من رجال هذه الامة بآل محمد من حيث الفضل والفضيلة والتقوى والنبل والشرف و... و... لأنّهم مطهرون من الذنوب، ولا يعادلهم أحد، لأنّهم أولياء النعمة على الناس لهدايتهم إلى الاسلام، ولأنّ المتفضل لا يعادل بمن تفضل عليه، فأهل البيت عليهم السلام أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يرجع المغالي في دينه والمقصر في عقيدته، ولآل محمد خصائص الولاية والسلطة، وفيهم جاءت وصية الخلافة من قبل الرسول صلى الله عليه وآله، فهم الوارثون حقّاً، والآن اذ ذهب الغاصبون عاد الحقّ الى أهله بعد ماانتقلت عنهم ظلماً وعدواناً.

وأرى من المناسب هنا أن أذكر شيئاً من الأشعار التي قيلت في الامام علي عليه السلام وصيّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

١- «قال عبداللّه بن أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب:

ومنا عليّ ذاك صاحب خيبر وصاحب بدر يوم سالت كتائبه

وصيّ النبيّ المصطفى وابن عمه فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

٢- وقال عبدالرحمن بن جعيل:

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظة على الدين معروف العفاف موفّقا

---

١. ذكر ابن أبي الحديد كلاماً يناسب هذا المقام فاحببت أن أذكره حيث يقول واشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضي رحمه الله تعالى، وإنّما هي اشارة إلى من تغلب عليه وجحد حقّه كمعاوية وغيره، ولعلّ الرضي رحمه الله تعالى عرف ذلك وكنّى عنه ،نفس المصدر، ج١، ص٤٦.

عليّاً وصيّ المصطفى وابن عمه وأول من صلّى أخا الدين والتقى

٣- وقال أبو الهيثم بن التيهان وكان بدرياً:

قل للزبير وقل للطلحة انّنا نحن الذين شعارنا الأنصار

نحن الذين رأت قريش فعلنا يوم القليب[١] اولئك الكفار

كنا شعار نبيّنا ودثاره[٢] يفديه من الروح والأبصار

ان الوصيّ امامنا وولينا برح الخفاء وباحت الاسرار[٣]

٣- الأفكار

تحوم على فلسفة الحمد وأهميّة التوحيدوالاعتراف بنبوة محمدﷺ وذكر فضائل القرآن وصفات المبلغ الديني، وعصر الرسولﷺ وفضائل العترة الطاهرة،ومنزلة آل البيت، وأخيراً ذكر صفات الفجّار.

٤- العواطف

يتجلى عنصر العاطفة اولاً في قولهعليه السلام: أحمده... فالحمد الذي بدأ به نجد فيه طلب الاستتمام والاستسلام والاستعصام والاستعانة، وماهذه العناصر الأربعة الاّ منابع للرغبة والشوق، لأنّ الحمد يوجب زيادة ألطافه تعالى بالنسبة إلى

١. يوم بدر وهي أولى المعارك الاسلاميّة مع الكفّار.

٢. شعار ودثار: كنّى بها عن أصحاب الرسول (ص)الخواص منهم والعوام.

٣. نفس المصدر، ج١، ص٤٧.

الحامد، واذا كثرت ألطافه تعالى بالنسبة إلى أحد ابتعد عن العصيان، فسيزيد الشوق عند الانسان.

وكذلك نجد هذا العنصر في قولهعليه السلام: نتمسك بهاأبداً مابقاناوندخرها لا هاويل ما يلقانا، ففي التمسك نجد عنصر الرغبة وفي الأهاويل الرهبة، عنصران من عناصر العاطفة بهما يتمكن الانسان الحركة لأنهما كالقطبين الموجب والسالب للتيار الكهربائي، فبهما تتمّ الانارة والحركة و...، فما أبدع هذه الصور.

وهكذا نجد هذا العنصر في قولهعليه السلام: أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور... حتى يصل إلى: تحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات، فالقطب الموجب قوله الأوّل حيث فيه الرغبة وفي تحذيراً... فيه الهول والخوف.

وتارةاخرى تتجلى العاطفة على شكل تأسف وتحسر على أهل الجاهلية فانه انجذم فيها حبل الدين... ويتصاعد هذا الأسف لما يبلغ الى: فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خيرداروشرّ جيران.

وكذا تظهر علامات الترغيب لما يذكر آل البيت،انّهم موضع سر اللّه ولجأ أمره وعيبة علمه... وأخيراً تظهر أمارة الغضب في كلامه لما يصف الفجار أنّهم زرعوا الفجور والفتن وسقوه بالغرور وحصدوا الثبور والهلاك.

وقبل أن نختم الحديث عن عنصر العاطفة هنا أودّ أن اشير إلى قولين من أصحاب النقد، اولاً: يقول أحمد أحمد بدوي: «الاخلاص والايمان شرطان أساسيان في نجاح الخطيب، حيث قيل ان الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب واذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان، ثم ان ايمان الخطيب بفكرته له أثر كبير في نجاحه، وذلك لأن هذاالايمان يجعل العاطفة حية متدفقة»[1]، ثانياً: يرى

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٦٣٤ بتصرف.

الجاحظ: «فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة، وكان من يعم ولا يخص وينصح ولا يغش، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة شنقاً «مبغضاً» لأهل الاختلاف والفرقة، جُمعت له الحظوظ من أقطارها، وسبقت إليه القلوب بازمتها، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجُبلت على تصويب ارادته»[1]. فتأمل في كلام هذين الرجلين وانظر كيف تجلّى الايمان في الامام علي عليه السلام واعتقاده وموقفه بالنسبة لاضمحلال الدين قبل البعثة النبوية،وانه عليه السلام كيف جذب قلوب سامعيه عن طريق عنصر العاطفة إلى كلامه، وهو المصلح للامة من الفساد، وقائدهم الى المعالي، وهو خليفة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، ومرشد الناس إلى الهدى والتقوى.

٥-الخيال

قبل الخوض في الحديث عن الخيال لابدّ أن نقول ان قانون تداعي المعاني الذي نطرحه هنا لهذاالعنصر هو قائم على التشبيه والمجاز المرسل والاستعارة والكناية، ومن المعروف أيضاً انّ الكلام المشتمل على الخيال له تأثير رائع على النفوس فلننظر على سبيل المثال إلى قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا انصاره بوجوه كالدنانير

١. البيان والتبيين، ص٢١٧.

اراد انه مطاع في الحيّ وانّهم يسرعون إلى نصرته، وانّه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب إلاّ أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى نجدهم كالسيول تجيء من هنا وهناك...[1]

هذا ومن جهة أُخرى نرى انّ الهدف الرئيسي في عرض التشبيه خلال الكلام هو ابراز الفكرة وتجليتها جلاّءاً اتماماً، كي تؤثر في نفس القارئ أوالسامع، ناقلاً شعورالأديب في وضوح وقوة، كما نرى في كلامهعليه السلام خلال هذه الخطبة، حيث يصف اهل البيتعليهم السلام قائلاً: وكهوف كتبه وجبال دينه، يعني هم كالكهوف للكتب السماوية وهم كالجبال الراسية للدين الحنيف فهو من باب التشبيه البليغ.

ولو نظرنا من زاوية الاستعارة إلى هذه الخطبة والتي يقول عنها الجرجاني (اعلم انّ الاستعارة في الحقيقة... هي أمد ميداناً وأشدّ افتناناً وأكثر جرياناً وأعجب حسناً واحساناً وأوسع سعة وأبعد غوراً وأذهب نجداً في الصناعة... وأسحر سحراً... ويمتع عقلاً ويؤنس نفساً ويوفر اُنساً وأهدى إلى أن تهدى إليك عذاري قد تخير لها الجمال وعنى بها الكمال)[2]، لوجدنا كلام الامامعليه السلام مليء بها، فانظر إلى قولهعليه السلام في معرض حديثه عن تدهور الدين: انجذم فيها حبل الدين، فالحبل عادة يجرّ به الانسان الساقط في الهاوية فجعلهاعليه السلام للدين، فالمتعلق به سيعلو إلى درجات السعادة في الدارين، وانظر إلى قولهعليه السلام: عمى المصدر، فالعمى انما يكون للبصر وكنّى عن العقائد بالمصدر، فالمصدر عادة لا يكون أعمى فاستعارة العمى للعقائد على سبيل الاستعارة المكنية. وهكذا القول في «العمى شامل و... و...».

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٥١١ بتصرف.

٢. أسرار البلاغة، ص٣٢.

ونجد الاستعارة ماضية إلى نهاية الخطبة ففي قوله عليه السلام: زرعواالفجور وسقوه الغرور وحصدواالثبور، فالفجور لا يُزرع والغرور لا يُسقى والهلاك لا يُحصد، وانّما جاءت هذه التعابير على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك لأنّ تماديهم وما سكنت إليه نفوسهم من الامهال هوالذي أوجب استمرارهم على القبائح، فكان ذلك كما يسقى الزرع ويروى بالماء و...

ثم انظر إلى وصف الشيطان في قوله عليه السلام: وقام لواؤه في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها، ففي قوله عليه السلام داستهم استعارة مكنية وفي وطئتهم... استعارة مرشحة.

وأخيراً قيل ان الكناية أرفع منزلة من التصريح، لأن الأديب يقرن دعواه فيها باثبات أمر من الامور، بما يجعل النفس ترتاح إلى اثباته وتطمئن إليه، لأنّه بمنزلة الاتيان ببرهان على الدعوى. فانظر إلى قول ابن أبي الحديد يقول (استماماً واستسلاماً واستعصاماً من لطيف الكناية)[1] وقوله عليه السلام: وضاق المخرج، كناية عن عدم الوضوح، وقوله عليه السلام: بهم أقام انحناء ظهره، كناية عن ضعف الدين كما ان الانسان العجوز ينحي ظهره، وقوله عليه السلام: واذهب ارتعاد افرائصه، كناية عن انّ الدين كان كالخائف وبالرسول صلى الله عليه وآله وآله الكرام أصبح آمناً.

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص٤٣.

٦- الاسلوب

قيل انّ الاسلوب الجزل «هو الذي تعرفه العامة اذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها، ولابدّ أن يكون بعيداً عن التكلّف وان يكون واضح المعالم والدلالة، وان يكون له حلاوة ورشاقة، سهل الجري على اللسان، عذب في النطق والكلام»[١].

فلننظر إلى قوله عليه السلام في وصف الشيطان حيث يقول: وقام لواؤه في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها، فالمخاطب ى‌درك هذه المعانيمن داس ووطأ المترادفات لمعبى السحق،وكذا بالنسبة الى الخفّ الذي عادة يستعمل للبعير والظلف للبقر والسنبك للحصان، حيث استخدم الانسان هذه المراكب في حياته ذلك الزمان، اذن فلا غرابة في الكلام أبداً، وأضف إلى ذلك كله سيدرك المخاطب ما المقصود من المعاني التي جاءت في ظلال هذه الكلمات من ان داستهم فيها معنى الذلة والحقارة عن طريق السحق، وفي وطأ معنى الشدّة من الضرب، وفى قام معنى الاجهاز على الجريح، فانظر الى هذاالتدريج من السحق والضرب الى القتل فما أشدّها ألماً على الانسان، هذا هو الاسلوب الناجح في البيان، ثمّ انّ اسلوبه عليه السلام لا يخلو من الصناعات البديعية التي تزين الكلام وتزيد الشوق للمستمع وتميل النفس طرباً إليها، فانظر إلى فن الافتنان[٢] الذي جاء في القسم الأخير من كلامه عليه السلام: زرعوا الفجور وسقوه الغرور وحصدوا الثبور... وقوله عليه السلام: لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الامة أحد، ولا يسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماداليقين... حيث جمع بين غرضين من الذم

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٤٩٨ بتصرف.

٢. الافتنان هو الجمع بين غرضين مختلفين مثل الغزل والحماسة أو المدح والهجاء أو التعزية والتهنئة.

للفجور من اتباع الشيطان والمدح لآل البيت الكرام عليهم السلام، ثم انظر الى الطباق الذي تخلل كلامه عليه السلام: فالهدى خامل والعمى شامل، حيث ان العمى هو سبب للضلالة فقابل بها الهدى، وكذا الكلام في قوله عليه السلام: في خير دار وشرّ جيران، فالطباق هنا بين خير وشرّ، ثم انظر إلى كيفية استعمال لزوم مالا يلزم حيث يقوله عليه السلام:أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور، أوفي قوله عليه السلام: فانه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن، أوفي قوله عليه السلام: نتمسّك بهاأبداً ماأبقانا وندخرها لأهاويل ما يلقانا، أو في قوله عليه السلام: داستهم باخفافها ووطئتهم باظلافها، ثم انظر إلى السجع المرصع[1] في قوله عليه السلام: زرعوا الفجور وسقوه الغرور وحصدواالثبور، ولها أمثال كثيرة في الخطبة.

وأخيراً لننظر إلى القصر حيث اعتمد فيه على تقديم ما حقه التأخير خاصة وهو يريد الافصاح عن مقام آل البيت عليهم السلام، ففي قوله عليه السلام: بهم أقام انحناء ظهره... اليهم يفيء... وبهم يلحق... ولهم خصائص... وفيهم الوصية...، فآل البيت عليهم السلام فقط بواسطتهم يعتدل الدين لا بغيرهم، وهم مرجع الامة، يرجع إليهم الغالي وبهم يلحق التالي وليس لسواهم حقّ في ذلك، ولهم استحقاق الولاية على الناس لا لغيرهم من الأصحاب، ولهم اختصت الوصية من الرسول صلى الله عليه وآله،والوارثة في الخلافة فلا لسواهم سبيل، ولا سبيل للوصول إلى هذه المعاني إلاّ عن طريق القصر، فأكرم بها من طريق وأكرم بها من معاني.

---

١. الترصيع هو توازن الألفاظ مع توافق الاعجاز أو تقاربها ،جواهر البلاغة، ص٤٠٦.

٧- الاقتباس

طبعاً قلنا مراراً انّ الامام علي عليه السلام تربّى في أحضان القرآن الكـريم حيـث عاصره وعاش جنباً إلى جنبه، فهو العالم بالآيات متى وأيـن وفـيمن نزلـت و... فعلى هذا انّك لن تجد خطاباً إلاّ وتضمن فيه آيات من القرآن المجيـد، فـانظر إلى قوله عليه السلام: الأمرالصادع، فانّه مقتبس من قوله تعالى: فاصـدع بمـا تـؤمر (الحجـر، ٩٤)، أي أظهره ولا تخفه، وقوله عليه السلام: وتخويفاً بالمثلات، فانّـه مقتـبس مـن قولـه تعالى: ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات (الرعد، ٦)، وقوله عليه السلام: حصدوااالثبور، فانّه مقتبس من قوله تعالى: وادعوا ثبوراً كثيراً (الفرقان، ١٤)، وقوله عليه السلام: إليهم يفيء الغالي فانّه مقتبس من قوله تعالى: فقاتلوااالتي تبغـي حتى تفيء إلى أمر اللّه (الحجرات، ٩).

التضمين: قوله عليه السلام: مفتونون في خيردار وشرّ جيران، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله، حيث حكى بالمدينة حالة كانت في مبـدأ البعثـة فقـال: كنـت في خـيردار وشـر جيران»[1].

وقفة مع الكلمات

نقصد من وراء ذلك الوقوف على ما احتوته بعض الكلمات من سموالمعاني إلى جمال الألفاظ المختارة، فلننظر إلى كلمتي الواو والفاء الذي يقول عنـهما ابـن الأثير (وهذا موضع لطيف المأخذ دقيق المغزى، وما رأيت أحداً من علمـاء هـذه الصناعة تعرّض إليه ولا ذكره)[2].

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص٤٥.

٢. المثل السائر، ج٢، ص٤٦.

فلو تحرينا الخطبة هذه لوجدنا لهذين الحرفين استعمالات كثيرة، ولكننا نشير إلى بعضها، ففي قوله عليه السلام: أحمده استتماماً... واستسلاماً... واستعصاماً... واستعينه... ولا يئل... ولا يفتقر من...، لقد اشتركت جميع هذه المعاني في الحكم من الاستتمام والاستسلام والاستعصام والاستعانة و... بالحمد، ولكنّه بعد قليل فصل عملية الاشتراك هذه بالفاء حيث قال عليه السلام: فانه أرجح ما وزن...، لأن الانسان سيواجه الميزان يوم القيامة، فانظر أيها القارئ إلى بديع الصنعة في اختيار الكلمات ووضعها في المكان المناسب لها.

كلمة التوحيد: قوله عليه السلام: وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، (تسمّى هذه الجملة بالعبارات التالية:

١- كلمة التوحيد: لأنّها تنفي الشرك وتنزه الخالق،

٢- كلمة التقوى: لأنّ طبعها ووضعها تورث التقوى،

٣- كلمة النجاة: لأنّه لا نجاة من عذاب اللّه إلاّ بها،

٤- كلمة النذير: لأنّها تنذر بفناء كل شيء إلاّ وجهه الكريم،

٥- كلمة التوكل على اللّه: لأنّها تنفي القوة عمن سواه،... ان كلمة التوحيد ليست حروفاً، ولكن منهج حياة وشريعة... ومن هنا قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلي كلمة لا إله إلاّ اللّه)[1].

فانظر إلى عظمة هذه الكلمة كيف ينحدر منها سيل المعاني، وتنشرح لها صدور أهل الايمان، وتعلو بالنفوس إلى جنات الرضوان.

---

١. توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٤٩.

الحمد والعصمة: قوله عليه السلام: واستعصاماً من معصيته، (فالكلام عطف على الحمد السابق أول الخطبة، وان الحمد يوجب زيادة ألطافه تعالى بالنسبة إلى الحامد، واذا كثرت ألطافه تعالى بالنسبة إلى أحد ابتعد عن العصيان)[1].

آل البيت عليهم السلام قوله عليه السلام: لا يقاس بآل محمد من هذه الامة أحد... يقول ابن أبي الحديد «قيل لا شبهة ان المنعم أعلى وأشرف من المنعم عليه، ولا ريب ان محمّد صلى الله عليه وآله وأهله الأدنين من بني هاشم لاسيّما علي عليه السلام أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدر قدرها، وهي الدعوة إلى الاسلام والهداية إليه، فمحمد صلى الله عليه وآله وان كان هدى الخلق بالدعوة التي قام بها بلسانه ويده، ونصرة اللّه تعالى له بملائكته وتأييده، وهو السيد المتبوع والمصطفى المنتخب الواجب الطاعة، الاانّ لعليّ عليه السلام من الهداية أيضاً وإن كان ثانياً لأول، ومصلياً على أثر سابق ما لا يجحد، ولو لم يكن إلاّ جهاده بالسيف اولاً وثانياً وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وارشاد العرب إلى ما لم يكن له فاهمة ولا متصورة لكفى في وجوب حقّه وسبوغ نعمته عليه السلام، فان قيل لا ريب في ان كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه فأيّ نعمة له عليهم؟ قيل نعمتان: الاولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون، فان من أنصف، علم انه لو لا سيف علي عليه السلام لاصطلم المشركون من أشار إليه وغيرهم من المسلمين وقد علمت آثاره في بدر وأحد والخندق وخيبر وحنين، وان الشرك فيها فغرفاه، فلولا ان سدّه بسيفه لالتهم المسلمين كافة، والثانية علومه التي لولاها لحكم بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقداعترف عمر له بذلك والخبر مشهور لولا علي لهلك عمر...»[2].

---

١. توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٤٩.

٢. شرح ابن أبي الحديد، ج١، ص٤٦.

التحليل الاعرابي

اعراب بعض التراكيب

١– قوله(عليه السلام): أحمده استتماماً لنعمته واستسلاماً... وما بعدها مفعول له.

٢– قوله(عليه السلام): واشهد أن لاإله إلاّ اللّه، أن مخففة واسمها محذوف أي انه، وجملة ما بعدها خبر، ولا نافية للجنس، واله اسمها والخبر محذوف تقديره موجود.

٣– قوله(عليه السلام): فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون... فجاهلون خبر ثان لـ(هم) ومفتونون خبر ثالث.

٤– قوله(عليه السلام): بأرض عالمها، بأرض بدل من خيردار، أو متعلق بما تعلق به.

٥– قوله(عليه السلام): من هذه الامة، الامة عطف بيان من هذه.

٦– قوله(عليه السلام): الآن اذ رجع الحقّ، الآن ظرف متعلق برجع.

٧– الهاء في قوله(عليه السلام): فانّه أرجح ما وزن، عائدة إلى مادل عليه قوله أحمده، يعني الحمد والفعل يدل على المصدر، وترجع الضمائر إليه.

٨– الهاء في ظهره من قوله(عليه السلام): أقام انحناء ظهره، ترجع إلى الدين وكذلك فرائصه.

الدرس العاشر

الوصية العظمى

ومن وصيّة له للحسن بن علي عليهما السلام[١] كتبها إليه بحاضرين[1] (منصرفاً من صفّين)

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانف الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ[٢]، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذّامِّ للدُّنيا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، وَ الظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لا يُدْرِكُ السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ[٣] الْأَسْقَامِ وَ رَهِينَةِ[٤]الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ[٥]الْمَصَائِبِ، وَ عَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُور، وَ غَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِالْمَوْتِ، وَ حَلِيفِ[٦] الْهُمُومِ، وَ قَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الآفَاتِ[٧]، وَ صَرِيعِ[٨]الشَّهَوَاتِ،وَخَلِيفَةِالْأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَ جُمُوحِ الدَّهْرِ[٩] عَلَيَّ وَ إِقْبَالِ الآخِرَةِإِلَيَّ مَا يَزَعُنِي[١٠] عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي[١١]،غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي[١٢] رَأْيِي وَ صَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ،وَ صَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي[١٣] فَأَفْضَى[١٤] بِي إِلَى جِدٍّ لا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَ صِدْقٍ لا يَشُوبُهُ[١٥] كَذِبٌ،

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، الرسالة ٣١، ص٣٩١.

وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَ كَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً[١٦] بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ أَيْ بُنَيَّ وَ لُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ،وَ الاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَ بَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ؟

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَ نَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَ قَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ[١٧]،وَ بَصِّرْهُ[١٨] فَجَائِعَ[١٩] الدُّنْيَا، وَ حَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَ فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَ ذَكِّرْهُ بِمَاأَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَ سِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَ آثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُواوَعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا وَ نَزَلُوا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِانْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ،وَ حَلُّوا دِيَارَالْغُرْبَةِ،وَ كَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَ لا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَ دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ،وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَ أَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَ لِسَانِكَ وَ بَايِنْ[٢٠] مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ،وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَ لا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وَ خُضِ الْغَمَرَاتِ[٢١] لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَ تَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ وَ نِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ، وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ[٢٢] حَرِيزٍ[٢٣]، وَ مَانِعٍ عَزِيزٍ، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ

لِربِّكَ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَ الْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرالِاسْتِخَارَةَ[٢٤]وَ تفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً[٢٥] فَإِنَّ خَيرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَ لا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقُّ[٢٦] تعَلُّمُهُ.

أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً[٢٧]،ورَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً[٢٨] بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ،وأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ[٢٩] إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي،أَوْأَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي،أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَ فِتَنِ الدُّنْيَا فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ[٣٠] النَّفُورِ[٣١]،وإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَ يَشْتَغِلَ لُبُّكَ لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّرَأْيِكَ[٣٢] مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ[٣٣] وَ تَجْرِبَتَهُ فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ، وَ عُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ،وَاسْتَبَانَ[٣٤] لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ،وَ فَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَ سِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَ نَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ[٣٥]، وَ تَوَخَّيْتُ[٣٦] لَكَ جَمِيلَهُ، وَ صَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَ أَجْمَعْتُ[٣٧] عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَ أَنْتَ مُقْبِلُ[٣٨] الْعُمُرِوَ مُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍوَ نَفْسٍ صَافِيَةٍ،وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّه عَزَّوَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ،وَ حَلَالِهِ وَ حَرَامِهِ، لا أُجَاوِزُ[٣٩] ذَلِكَ بِكَ إِلَى

غَيْرِهِ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ[٤٠] أَنْ يَلْتَبِسَ[٤١]عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلامِكَ إِلَى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ[٤٢]،وَ رَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللّه فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللّه وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللّه عَلَيْكَ،وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا[٤٣]أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ،وَفَكَّرُوا كَمَاأَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُواوَالإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلَوِّ الْخُصُومَاتِ.وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ وَ تَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ[٤٤]أَوْلَجَتْكَ[٤٥] فِي شُبْهَةٍ،أَوْأَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَ تَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ،وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاًوَاحِداً فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أنت لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ،وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ[٤٦]، وَ تَتَوَرَّطُ[٤٧]الظَّلْمَاءَ،وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ،وَالإِمْسَاكُ[٤٨] عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ[٤٩].

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي،وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ،وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي،وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللّه عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِوَالاِ

بْتِلاء،وَالْجزَاء فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شاءَ مِمَّالا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَ مَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ وَ يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَ يَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ،ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَ لْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ[٥٠]...

رُوَيْداً يُسْفِرُ[٥١]الظَّلامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ[٥٢]،يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ، وَ اعْلَمْ يَابُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَ يَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَ نْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً[٥٣].

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَ لَنْ تَعْدُوَأَجَلَكَ،وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ[٥٤] فِي الطَّلَبِ،وَأَجْمِلْ[٥٥] فِي الْمُكْتَسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ[٥٦]،وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَ لا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ،وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ[٥٧] وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ[٥٨]، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً[٥٩]،وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللّه حُرّاً، وَ مَا خَيْرُ خَيْرٍلا يُنَالُ إِلاّ بِشَرٍّوَ يُسْرٍ[٦٠] لا يُنَالُ إِلاّ بِعُسْرٍ[٦١].

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ[٦٢] بِكَ مَطَايَا[٦٣] الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ[٦٤]الْهَلَكَةِ[٦٥]،وَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاّ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللّه ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللّه سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

وَتَلافِيكَ[٦٦] مَا فَرَطَ[٦٧] مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ[٦٨] مِنْ مَنْطِقِكَ، وَ حِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ[٦٩]، وَ حِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَب مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَب إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ[٧٠]،وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ، مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ[٧١]، وَ مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَ بَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ، وَ ظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ[٧٢] رِفْقاً، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَ رُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَ غَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ[٧٣]، وَ إِيَّاكَ وَ الاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى[٧٤] فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى[٧٥]، وَ الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ...

فقه اللغة

[١] حاضرين: بلدة من نواحي صفين بالشام،ويقول ابن أبي الحديد في شرحه ج٤: ١٨، فالذي كنّا نقرؤه قديماً كتبها إليه بالحاضرين على صيغة التثنية يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين وهي الارباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد، ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ولم يفسروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية،ومنهم من يقول بخناصرين، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها وقد طلبت هذه الكلمة في الكتب المصنفة سيما في البلاد فلم أجدها ولعلي أظفر بها...

[٢] المقرّ للزمان: المعترف له بالشدّة.

[٣] غرض الاسقام: هدف الأمراض ترمي إليه سهامها.

[٤] الرهينة: المرهونة،أي انّه في قبضة الأيام وحكمها.

[٥] الرمية: المصاب بالسهم.

[٦] الحليف: المحالف،المعاهد.

[٧] نصب الآفات: لا تفارقه العلل، وهو من قولهم: فلان نصب عيني بالضم،أي لا يفارقني.

[٨] الصريع: الطريح أرضاً.

[٩] جمع الدهر: استقصاؤه وتغلبه.

[١٠] يزعني: يكفني ويصدّني، من وزع، وسوى: لفظة يقصر اذا كسرت سينها وتمد اذا فتحتها، وهي هنا بمعنى غير.

[١١] ماورائي: كناية عن أمرالآخرة.

[١٢] صدفني: صرفني.

[١٣] محض الأمر: خالصة.

[١٤] أفضى: انتهى.

[١٥] لا يشوبه: لا يمتزج ولا يختلط.

[١٦] مستظهراً به: مستعيناً به.

[١٧] قرره بالفناء: اطلب منه الاقرار بالفناء.

[١٨] بصّره: اجعله بصيراً.

[١٩] الفجائع: ج فجيعة: وهي المصيبة تفزع بحلولها.

[٢٠] باين: باعد وجانب.

[٢١] الغمرات:الشدائدوالصعوبات.

[٢٢] الكهف:الملجأ.

[٢٣] الحريز:الحافظ،المستحكم.

[٢٤] الاستخارة:اجالةالرأي في الأمر قبل فعله لاختيارأفضل وجوهه.

[٢٥] صفحاً: جانباً.

[٢٦] لا يحقّ: بكسر الحاءوضمها: أي لا يكون من الحقّ.

[٢٧] بلغت سناً:أي وصلت النهاية من جهة العمر.

[٢٨] الوهن:الضعف،الاستكانة.

[٢٩] أفضى: ألقى إليك.

[٣٠] الصعب النفور:غير المذلل، جموح.

[٣١] النفور: ضدالآنس،الوحشي.

[٣٢] جدّرأيك: أي محققه وثابته.

[٣٣] كفاه بغيةالشيء:أغناه عن طلبه.

[٣٤] استبان: ظهر.

[٣٥] النخيل:المختارالمصفى.

[٣٦] توخّيت: أي تحرّيت واحرجت، وحيث عناني: أي أهمني.

[٣٧] أجمعت عليه: عزمت وصممتُ.

[٣٨] مقتبَل: بالفتح، من اقتبل الغلام فهو مقتبل وهو من الشواذ، والقياس مُقتبِل بكسرالباءلأنّه اسم فاعل. ومقتبل الانسان: أول عمره.

[٣٩] لا أُجاوزذلك: لاأتعدى بك.

[٤٠] اشفقت:أي خشيت وخفت.

[٤١] التبس:غمض.

[٤٢] الهلكة:الهلاك.

[٤٣] لم يدعوا:لم يتركوا.

[٤٤] الشائبة:ما يشوب الفكر من شك وحيرة.

[٤٥] أولجتك:أدخلتك.

[٤٦] العشواء:الضعيفة البصر أي تخبط خبط الناقةالعشواءلا تأمن ان تسقط فيمالا خلاص منه.

[٤٧] تورّط الأمر:دخل فيه على صعوبة في التخلص منه.

[٤٨] الامساك عن الشيء: حبس النفس عنه.

[٤٩] امثل:أفضل وأحسن.

[٥٠] شفقتك: خوفك.

[٥١] يُسفر: يكشف.

[٥٢] الاظعان: ج ظعينة: وهي الهودج تركب فيه المرأة، عبّر به عن المسافرين في طريق الدنيا إلى الآخرة.

[٥٣] الوادع:الساكن المستريح.

[٥٤] خفض: أمر من خفض (بالتشديد)أي أرفق.

[٥٥] أجمل في كسبه:أي سعى سعياً جميلاً لا يحرص فيمنع الحق ولا يطمع فيتناول ما ليس بحقّ.

[٥٦] الحرب: بالتحريك، سلب المال.

[٥٧] الدنيّة:الشيء الحقير المبتذل.

[٥٨] الرغائب:ج رغيبة،وهي ما يرغب في اقتنائه من مال وغيره.

[٥٩] عوضاً: بدلاً.

[٦٠] اليسر:السهولة، المراد سعة العيش.

[٦١] العسر:الصعوبة: المراد ضيق العيش.

[٦٢] توجف:تسرع.

[٦٣] المطايا:ج مطية، وهي ما يركب ويمتطى من الدواب ونحوها.

[٦٤] المناهل: ماترده الابل ونحوها للشرب، المشرعة.

[٦٥] الهلكة:الهلاك والموت.

[٦٦] التلاقي:التدارك لاصلاح ما فسدأو كاد.

[٦٧] مافرط:أي قصر عن افادة الغرض أو إنالةالوطر.

[٦٨] ادراك مافات:هو اللحاق به لأجل استرجاعه،وفات: أي سبق إلى غير عودة.

[٦٩] بشدّوكائها: أي رباطها، والحِرفة: نقصان الحظ وعدم المال.

[٧٠] احفظ لسرّه:اشدّ صوناً له وحرصاً على عدم البوح به.

[٧١] أهجرإهجاراًوهُجراً: بالضم هذي يهذي في كلامه وأفحش.

[٧٢] الخرق: بالضم العنف.

[٧٣] المستنصح: اسم مفعول:المطلوب منه النصح.

[٧٤] المنى:ج مُنية بضم وسكون: ما يتمناه الشخص لنفسه ويعلل نفسه باحتمال الوصول إليه.

[٧٥] النوكي: ج انوك،وهو كالأحمق وزناً ومعنى.

التحليل الأدبي

١- المناسبة

قال الشريف الرضي كتب أميرالمؤمنين هذه الوصية لولده الامام الحسن عليهما السلام بحاضرين عندانصرافه من صفين،وقيل لابنه محمّد الحنفية،وكان قد بلغ عمر الامام عليه السلام ٦٣ سنة، وابنه عليه السلام في سن ٣٦ سنة.

كلمات لابدّ منها: نحن الآن في صدد بيان وشرح الرسالة رقم ٣١، من نهج البلاغة، وبما ان موضوع البحث في هذه الرسالة هي «الوصية»، فلابدّ للقارئ أن يقف على امور كمقدمة للخوض في الحديث عن الرسالة وماهيتها وقيمتها وخصائصها و... و... فنقول:

أولاً: الرسائل الأدبية: هوأن «يتناول الأديب موضوعاً عاماً فردياًأواجتماعياً، تناولاً أدبياً، مبنياً على اثارة عواطف القارئ ومشاعره، وبطبيعة الحال تهدف إلى أغراض خلقيةأواجتماعيةأو غيرها»[١] كما هوالملاحظ في هذه الوصية. وهي عادة تحتوي على فكرة واعية وموضوع معين تؤدي إلى نتيجة خاصة وغاية مرسومة منذ اللحظة الاولى.

ثانياً: ما هي الوصية؟ «هي كلام يوجهه عليه السلام إلى شخص محدّد، يتضمن تنفيذاً لعمل أوارشاداً لمختلف السلوك العبادي، وهو يتم اما من خلال المطالبة بالتزام ذلك في حياته عليه السلام أو بعد وفاته عليه السلام[٢]، ففي الحالة الاولى (في حياته)...

وأماالحالةالثانية (أي الوصية لما بعد الموت) فتنحصر اما في المطالبة بتنفيذ عمل من الأعمال أو بمطلق التوصيات العبادية،وفي هذا الصعيد تنحدرالتوصية إلى أولاده عليه السلام أوأقاربه عليه السلام واحياناً الى سواهم»[٣].

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٥٨٣ بتصرف.

٢. والوصية شرعاً اما تمليكية كأن يوصى بشيء من تركته لزيد، ويلحق بها الايصاء بالتسليط على حقّ، واما عهدية كأن يوصى بما يتعلق بتجهيزه أو باستيجار الحج أو الصلاة أو نحوهما له، وأما فكية تتعلق بفك ملك كالإيصاء بالتحرير، وهي واجبة ان ظهرت امارات الموت وعند المحتضر أموال الناس ،تحرير الوسيلة، الامام الخميني رحمه الله، ج٢، ص٩٣.

٣. تاريخ الأدب العربي، ص٢٢٩.

ثالثاً: من خصائص الرسالة: «ليس الرسالة مجرد ممارسة لفظية بتوصيات عامة، بقدر ما هي (عمل فنّي) تتآزر فيه جملة من العناصر الفكرية والنفسية المصوغة بأدوات الفنّ من صورة وايقاع وبناء هندسي وما إليها»[١].

٢- شرح النص

هذه وصية الامام علي عليه السلام لابنه الامام الحسن المجتبى عليه السلام،كتبها له لما وصل إلى حاضرين بعد ما رجع من صفين قاصداً الكوفة.

حوادث الدهر[٢]: من الوالدالسائر في طريق الفناء،المعترف بما تفعله الأيام بالانسان، الذي مضى أكثر عمره، المنقاد لصروف الدهر،المُعرض عن دار البلاء،الساكن في دورالأموات،الراحل عن الدنيا غداً،إلى المولودالذي لا يدرك أمله في الدنيا،الماضي في طريق الهالكين،هدف الامراض والأسقام، في قبضة الليالي والأيام، طريدالحوادث، عبد الشهوات، يتعامل معها مغروراً، مطالب من قبل الموت وأسير بيده، ومحالف الاحزان، مصيدة للمصائب والآفات، مغلوب الهوى، وقائم مقام الأموات.

امّا بعد، فانّي علمت ان الدنيا تنكرت وادبرت عنّي، وان الآخرة قد دنت منّي،ويكفني هذاالأمر أن أكون مشغولاً عن غيري، والتفكير بما ورائي من الخلوف. وان أظهر خالص أمري رأياً صائباً فيه جدّ لا يقترن بلعب،وصدق لا

---

١. الاسلام والفن، ص١٥٧.

٢. هنا يذكر الامام علي عليه السلام سبع خصال لنفسه الشريفة ثمّ ضاعفها لابنه عليه السلام، فيما ترى ما هو القصد من وراء ذلك؟ ومن المعلوم ان هذه الخصال المذكورة تعم جنس البشر جميعاً ولا تختص بهما عليهما السلام، لمكانة العصمة لديهم، وبعبارة اخرى انما ذكر الخاص وأراد منه العام.

يخالطه كذب (وان هم نفسي يقتضي أن أهتم بك) لأنّي وجدتك جزءً منّي بل أن كلّ وجودي، فلو أصابك شيء بسهمه أصابني ولوان سيف الموت أتاك أتاني، فعنيت بأمرك ما اعتنيت بنفسي، فكتبت إليك وصيّتي هذه مستعيناً بها لهدايتك ان بقيت حياً أووافني الأجل.

مراحل التربية: فوصيتي الاولى لك (ياولدي)الخوف من اللّه تعالى،لأنه القائل: ومن يتق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب (الطلاق– ٢)، والعمل باحكامه، وان تعمّر قلبك بذكره دائماً، والتمسك بشريعته وماجمل هذاالسبب الذي بينك وبين اللّه ان تمسكت به، فحياة الانسان بقلبه وحياة قلبه بالفضائل التي تكتسب عن طريق المواعظ،ارفض الشهوات بالزهد في الدنيا، وقوّه باليقين عن طريق التفكير في خلق السموات والأرضين، وأنره بالحكمة، وبذكر الموت يتواضع، وخذ الاعتراف منه بالزوال والفناء، ثم لينظر إلى مصائب الدنيا حتى لا يركن إليها، وليكن حذراً من حملات الدهر وقبح تطاول الأيام (لأنّ الفقر والغنى والصحة والمرض و... و... ترافق الانسان) ثمّ أعرض عليه حوادث التاريخ من أخبار الأخيار والأشرار، فليذكر عندها المصائب والعقوبات التي حلّت بهم، وسر ناظراً في الآثار القديمة، وانظر في الأعمال الباقية من الأبنية والعمارات و... و... ثم انظر كيف تركواالأهل والبلاد، وحلوا ديار القبر والبوار، وكأنك ستصبح أحدهم، فأصلح عملك للآخرة، ولا تبع آخرتك بدنياك، لأن حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، فلا تتكلم فيما لاتعلم، والخطاب فيما لم يكفلك اللّه سبحانه، ولا ترد في طريق أنت شاك من صحته أو بطلانه، لأن الترك وقت الحيرة أفضل من ركوب المخاوف.

اعمل بالمعروف تكن من أهله، وانكر المنكر ما استطعت بيدك ولسانك (قولاً وعملاً)وابتعد بكل قواك عن ارتكابها، وكن مجاهداً في سبيل اللّه كما يستحقه جلّ وعلا، ولا تخف من اللائم في أوامر اللّه، وتحمل الشدائد للّه وللحقّ، وتعلّم أحكام الشريعة، وعوّد نفسك على الصبر (ولا تستسلم للباطل أبداً)،لأنه من أفضل الأخلاق الذي يعين الانسان للوصول إلى الأهداف السامية وعوّد نفسك بالرجوع إلى الربّ سبحانه، فانّك ان فعلت ذلك فسوف تلجأها إلى مانع مستحكم لا تصل إليه المكاره.

وكن مخلصاً في دعائك لأنّه بيده الجود والحرمان،واطلب منه صلاح دينك ودنياك فافهم وصيتي جيداً، ولا تُعرض عنها صفحاً، لأن أفضل الأقوال ما نفع الناس، واعلم بأنّه لا خير في كلام لا ينفع، وبعلم لا يجوز تعليمه (كالسحر).

ياولدي انّي لما رأيت نفسي قد وصلت إلى النهاية، ورأيتُ نفسي تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، عجّلت لك بوصيتي هذه وذكرت لك فيها صفات وخصائل قبل أن يحلّ بي أجلي ويمنعني أو أُلقي إليك ما في نفسي من النصائح، وقبل أن يدخل النقصان في رأيي كما دخل في جسمي، أوان يسبقى بعض أسباب الهوى ومغريات الدنيا، فتكون حيئذٍ كالفرس الجموح (يصعب ركوبه) لتوحشه، ثم اعلم ان قلب الشاب يشبه الأرض الخالية من الزرع، فما أُلقي فيها من بذور قبلته وأخرجته نباتاً، فسارعت إلى تأديبك قبل أن يشتد قلبك بالملكات السيئة، وان يشتغل عقلك بامور الدنيا[1]، لتكون جاداً في رأيك لاستقبال الامور بحيث تستغني

---

١. لابدّ وان نذكر ثانيةً بأن الامام علي عليه السلام كان ينظر إلى نفسه الشريفة وإلى ابنه عليه السلام بمنظار ليس فيه عصمة والحال ان آية التطهير: انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (الأحزاب، ٣٣) ،يشملهم جميعاً، وعلى هذا المنوال جاء الكلام كله.

عن تجربة الآخرين وبذلك قد عوفيت من علاج التجربة وبذل المال لاكتسابها، فجاءك ما تطلبه من التجارب ما كنّا نكتسبها بالمشقة من قبل، وظهر لك ما قد أُبهم علينا.

معرفة التاريخ: يا ولدي وان كان عمري قصيراً ولكنّني نظرت في أحوال الأُمم الماضية من قبلي، وفكرت في أخبارهم الواصلة إلينا، وسرت في آثارهم الباقية لدينا، حتى أصبحت مطلعاً على جُلّ امورهم وكأنّني كنت معهم، بل أصبحت كالذي عاش معهم منذ اليوم الأول وإلى اليوم الأخير. فعرفت أخبارهم الخالصة من الشائبة، فاستخلصت لك من الامور أفضلها، وتحريت لك الموعظة الحسنة التي تسعد الانسان، وضربت صفحاًعن الامور المجهولة غايتها، ونظرت إليك من زاوية اهتمام الوالد الشفيق على ولده الذي لا يرجو له الاّ خيراًوعزمت على تأديبك وان أنصحك وأنت في أول حياتك والدهر مقبل عليك،والحال ضميرك سالم من الشوائب ونفسك صافية من الشهوات،وان ابتدأُ تربيتك بتعليمك القرآن الكريم وتأويله، حيث يقول البارئ تعالى: وما يعلم تأويله إلاّ اللّه والراسخون في العلم (آل عمران، ٧)، وتعليمك أحكام الاسلام من الحلال والحرام، ولاأعدل بك عن الكتاب، ثم خفت أن يشتبه الأمرعليك كما اختلف الناس في آرائهم في القرآن، فأحكمت الاصول الغامضة بالأدلة والبراهين (علماً بأنّني كنت أكره الخوض في دقائق الامور لصعوبتها)، فهي أكثر حبّاً إليّ من أن أتركك لتأخذ من الناس آرائهم التي تبعث على الهلاك، وأرجو من اللّه سبحانه أن يوفقك لرشدك من دون انحراف وأن تسير في وسط الطريق مهدياً، فكتبت اليك وصيتي هذه.

واعلم يا ولدي: انّ أفضل ما أنت عامل بوصيتي هذه هي التقوى، والاكتفاء بما أوجبه اللّه تعالى عليك من الفرائض (بلا زيادة ولا نقصان)،والتمسك بما جرى عليه أجدادك الطاهرون كالرسولﷺ وآبائه الكرام والصالحون المؤمنون من أهل بيتك كأبي طالب وعبدالمطلب وحمزة وجعفر و... و... فانّهم لم يتركوا التفكير في أمر أنفسهم والقيام بواجباتهم، مثل الذي أنت تنظر فيه من أمر نفسك وكذلك فكروا كما تفكر في اكتساب السعادة، ثم أخيراً توصلوا إلى العمل بما عرفوا من الامور المفيدة، وانصرفوا عما لم يكن عليهم واجباً. فان امتنعت نفسك الاّ بالتعرف على ماهية الامور كما صنعوا،فاطلب العلل، وابتعد عمّا لا تكلّف، فليكن ذلك عن طريق الادراك والفهم،لا بالدخول في الشبهات، وتعليل الخصومات فيما بينك وبين غيرك،واستعن باللّه على الادراك والفهم قبل الخوض في هذه الامور، وان ترغب إليه أن يوفقك وأن تترك كل شائبة ادخلتك في شبهة أو اسلمتك لضلالة طريق، وإن أيقنت ان قلبك قد صفا من الشوائب فسيكون خاشعاً للّه تعالى، فسيتم رأيك ويصلح، فحينئذٍ يجتمع رأيك على نطاق واحد، وكان همّك الذي تطلبه من اللّه همّاًواحداً لااحتمالات كثيرة ومتفرقة.

فانظر فيما شرحت لك (مما مضى ومما سيأتي)،وان ترددت نفسك في الاحتمالات ولم يفيء رأيك إلى جهة واحدة، فاعلم انّما تخبط كما تخبط الناقة العشواء (تقول وتتصرف على غير هدى وبصيرة)ودخلت في مكان مظلم ولا تدري ما هي العاقبة، وليس من صفات طالب الدين الخبط والخلط بين الحقّ والباطل،والامتناع عن الخوض في ذلك أفضل.

صفات الباري: يا بنيّ تعلّم وصيتي هذه واعلم انّ مالك الموت هو مالك الحياة(وهوإله واحد) وانّ الخالق هو المميت للاحياء،والذي يُفنى البشر هو

الذي سيعيدهم في القيامة،والذي يختبر الناس بالشدائدهوالذي ينجيهم منـها، وان الدنيا لم تستقر على جهة واحدة بل تتراوح بين الشـدة والنعمـة كمـا يشـاءربّ العالمين،وهوالذي سيجازي البشر يوم الحساب في الآخرة،وبما يشاء اللّه سـبحانه ممّا لا نحيط به علماً، فان اشكل عليك فهم شيء من ذلك (التناقض الموجود بـين الموت والحياة... و...) فاحمله على جهلك لأنّ الانسان أول ما خلق كان جـاهلاً (استصحاباً بالأصل)ثمّ تعلم.

واعلم ان جهلنا كثير بالنسبة لعلمنا،ويتحير فيه عقلنا أحياناً، وتضل آرائنا في الامور، ولكن نبصرها بعد جهد وجهاد،فتمسك باللّه الذي خلقك من لا شيء وجعل لك رزقاً مقسوماً وصنعك متساوي الأطراف (معتدلاً)، فاجعل له طاعتـك وإليه تقربك زلفاً، فليكن خوفك له وحده.

صبراً حتى ينكشف ظلام الجهل (تقوم القيامـة)وكأن الاظعان(المسـافرين) وردوا ليوم القيامة، ويوشك المسرع أن يلتحق بهم.

واعلم انّ الانسان الذي جُعل له الليل والنهار(الزمان والأيام) مركباً، فانّـه يسار به وان كان واقفاً وسيقطع المسافة الزمنية وان كان مقيماً مستريحاً في الدنيا.

النظرةالواقعية:واعلم يقيناً (بالحقيقةوالواقع)انّك لـن تصـل إلى آمالـك الدنيوية ولن تتجاوزأجلك، فارفق وأقلّ في طلب الـدنياواترك الحـرص عليهـا، ولربّ طلب سلب مالاًوأتبعه الشقاء،لأنّ ليس كـل مـن طلـب الـرزق بمـرزوق كمايشاء،ولا المتوسط في الطلب (للرزق)بمحروم من النعمة، فابتعـد عـن الرذائـل والأفعال الخسيسـة، وان كانـت فيهـا رغبتـك، لان شـرف الانسـان لا يُعـوّض بشيءولا تطع الآخرين طاعة عمياء والحال خلقك اللّه وأنت مالك لزمام أمـرك، ولاخير في شيءان كان سبباً للشرّ، ولا يُنال الخيرالّا بالشدّةوالعسر.

وكن حذراً من أن تسرع إليك مراكب الطمع(لاتكن طماعاً)فسترد الهلاك، وحاول أن تكتسب الرزق بيدك من دون وساطة، لأنّك لا تدرك الّاالمقسوم لك،وان القليل من اللّه سبحانه كثير وعظيم بالنسبة للناس، وان كان مصدرالارزاق جميعاً بيده.

آيات الحكمةوالعزة: ويمكنك أن تتدارك الذي لم تقله (حيث يكون الصمت احياناً كلاماً)ولكن لا يمكنك أن تتدارك ما نطقت به،والاحتفاظ بما في الظرف بشدّ الرباط عليه(حفظ الأسرار في القلب بربط اللسان)،والاحتفاظ بما في يد الانسان (عدم الاسراف والتبذير)أفضل من الطلب بذل من الآخرين،وتحمّل مذاق المرّ لليأس أفضل من مسألة بخلاءالناس، وضيق الرزق مع الحفاظ على الفرج واليد أفضل من الغنى مع الأعمال المحرمة(لأن ضيق العيش يزول ولكن وبال الفجور لا يزول) وان الانسان أشدّ حفظاً للأسرار كما قال الشاعر:

اذاضاق الصدرالمرءعن حفظ سرّه فصدرالذي يستودع السرّأضيق

وكثيراً مايسعى الانسان لاجتلاب الشرّ، ومَن ثرثر في كلامه هذى(وقلّما يسلم المكثار)،ومَن فكّر في الحقائق يجدها،و كن مع الأخيار وابتعد عن الأشرار حيث يقول الشاعر:

عن المرءلاتسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

وأكل الحرام من أسوأالأكلات، والتجاوز على الضعفاء من أشدّالظلم قبحاً،اذا كان الرفق بعض الاحيان عنقاً، فانّ العنف يعدّ رفقاًأحياناًأُخرى(حسب متطلبات الموقف)، وأحياناً يكون الدواء بمنزلة زيادة المرض وأُخرى بالعكس،وأحياناً ينصح غير الناصح وأُخرى يغش أهل النصح، احذر التوكل على

الأماني(لأنّه قيل شرف الفتى ترك المنى)،لأنّها من بضائع الحمقى، وانّما العقل هو حفظ التجارب المكتسبة...

ملاحظة: بماانّ الكلام في هذا الكتاب طويل،أعرضنا عنه صفحاً، تاركين المجال على عاتق القراء.

٣- الأفكارالرئيسية

احتوت هذه الرسالة على جميع التجارب المكتسبة للامم الماضية وعلى تجارب الامامعليه السلام الشخصية،وعلى علوم الدين من توحيد ومعاد، فنخص بالذكر منها، الانسان وحوادث الدهر، مراحل التربية، المبادرة الى تربية الأطفال، نصائح، معرفة التاريخ،النظرة الواقعية،وآيات من الحكمة والموعظةالحسنة.

٤- العواطف

لا شك انّ الامام علي بن أبي طالبعليه السلام هو الامام السياسي للامة، وهو أيضاً امام الخطباءوالفصحاءوشيخ الأدباءالمتازين لا يفوقه أحدإلاّ رسول اللّهصلى الله عليه وآله،وبناءً على هذا فهو يمتلك من الأحاسيس والمشاعر ما لا يملكه غيره،اذهو مصدراشعاع العاطفة ونورها الوهاج،تنفجر من جوانبه،فهو صاحب الحسّ المرهف تراه يركع أمام اليتامى والأرامل،ويستسلم للضعفاء من الناس و... يخاف ربّه وتتساقط دموعه كالثكلى مستوحشاً من الدنيا وزينتها ويأنس بالليل ووحشته...، وما شجاعته في سوح القتال إلّا شوقاً إلى اللقاء،وماأعرض عن قتال أعداءالدين الاّ رغبة في المحبوب و... و... فلا غروانّهعليه السلام صاحب عاطفة سامية لا يرقى إليه أحد، وما هذه العواطف الجيّاشة في الخطب والرسائل إلاّ رشحات منثورة

هناوهناك، لتنير الدرب للسالكين،وليس للأديب سوى الاقتداء بها، وهانحن نشرح جانباً من هذه الأحاسيس والمشاعر الطيبة التي تخللت هذه الرسالة فنقول:

١- لونظرنا إلى قوله عليه السلام في بداية الرسالة: من الوالدالفان، المقر للزمان،المدبرالعمر،المستسلم للدهر، الذام للدنيا،الساكن مساكن الموتى، الضاعن عنها غداً،نرى ان أُسس القهر والغلبة في قوله عليه السلام «الفان... المقر... المستسلم...»، والى جواره اسس الكراهية في قوله عليه السلام: «الذام... الساكن... و...»، وعنصرالاجبار في قوله عليه السلام: الظاعن... جاءت كلها واضحة المعالم في الكراهية والتنفير، وماهذه المشاعرإلاّ نابعة من النفس الزاكية الطاهرة للامام عليه السلام، حيث نشاهد مسير القهر والغلبة يتصاعد شيئاً فشيئاً مع تقدم الكلام فمن الفناء إلى الادباروالاستسلام،واظهارالكره بشدّة وخاصة لما يقول الساكن مساكن الموتى، فالموتى والميت ممّا تشمئز منه النفوس وتنفر منه فراراً،وأخيراً يتجلى هذا التصاعد للعاطفة في قوله عليه السلام الظاعن(الراحل) عن الدنيا إلى الآخرة، بلااختيار بل اجبار، مشاعر تأجج نارالاكراه في نفس مستمعيه الطالبين للدنيا الفانية.

٢- قوله عليه السلام:إلى المولود المؤمّل ما لا يُدرك،السالك سبيل من قد هلك، غرض الاسقام،ورهينة الأيام ورمية المصائب وعبد الدنيا،وتاجر الغرور،وغريم المنايا،وأسير الموت وحليف الهموم، وقرين الأحزان،ونصب الآفات، صريع الشهوات،خليفة الأموات، حيث نشاهد أيضاً اسس الكراهية تتصاعد نفوراً في قوله عليه السلام: غريم المنايا،عادة الانسان يفر من غريمه وخاصةاذا كان الطالب له ظالماً، والى (أسيرالموت) فالتنفر هنا على محورين الأول:الاسارة،وهي مذمومة عند الناس، والثاني:انّه في قبضةالموت، فانظر بدقة إلى هذاالتصعيد في التنفير، ويستمر التصاعد في الكراهية إلى الحدّ الأعلى في قوله عليه السلام: خليفة... لا للاحياء بل

للأموات، حيث تزداد النفرة أكثر في النفوس من الدنيا، ثم هناك عنصر الغلبة والقهر المشهود في قولهعليه السلام: المؤمّل ما لا يدرك، فالأمل حالة نفسية تسرُّ صاحبها ولكن سرعان ما تزول عن النفس عن طريق عدم الادراك لها، وتتعالى صرخة القهر في قولهعليه السلام:السالك(الماضي) في طريق الهلكى، وتبدوامارة الحسرة واضحة في قولهعليه السلام: غرض الاسقام والأمراض ورهينة و... و... ثم تتصاعد لتغري الانسان بتجارة الغرور والشهوات، ثم تشتدّ ألماً لما يصبح الانسان جليس الهموم والأحزان وبهذا النحووالسياق تتعادل طرفي العاطفة في ركني الفقرتين الاولى والثانية.

٣- عاطفةالابوة: من المعروف والمشهور بين الناس انّ للام عاطفة متعالية سريعة الاشتعال، تأجج نار الشوق، ملتهبة في وجودها، وليس لها نظير، وقلّما ينتبه الانسان لعاطفة سليمة أُخرى،أودعها اللّه سبحانه في وجود الأب وألمح إليها في كتابه العزيز معبّراً عنها بلسان نوحعليه السلام لما قال: ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ يا بنيّ اركب معنا... قال سآوي إلى جبلٍ... قال لا عاصم اليوم من اللّه... فكان من المغرقين...(هود،٤١ - ٤٦)،انظر الى عاطفة الأب كيف تغلي في صدر نوحعليه السلام لما يطلب منه الركوب في السفينة للنجاة من عذاب اللّه الأليم، علماً بأنّه كان من المغرقين(الظالمين، الضالين)ومع هذه الحالة ثارت العاطفة ثانية عند نوحعليه السلام وعاد مستعيناً بربّ العالمين مخاطباً ايّاه أنه(ابني) مظهراً بذلك الحبّ والشفقة عليه،ولما جاء الجواب سلبياً من اللّه تعالى، زالت العاطفة عن قلبهعليه السلام[1]،ونعودإلى حديثنا عن العاطفة لدى أميرالمؤمنينعليه السلام لما يقول لابنه «وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكأن الموت

١. واودُهنا أن اشير إلى انّ العاطفة التي تحدثنا عنها مراراً وتكراراً لابدّ وان تصطبغ بصبغة الله، فحينها تبلغ القمة مقاماً والاّ سيقل قيمتها كلّما ابتعدنا عنه سبحانه.

لو أتاك أتاني»، فانظر الى تدرج العاطفة من الجزء إلى الكل وتتأجج ناراً وشوقاً لما يقول لو أصابك شيء(من مرض أوسهم أو...) اناأشعر بـه ألمـاً، بـل تتصـاعد العاطفة عنده عليه السلام بفداء نفسه الشريفة لابنه اذا أتاه الموت، فما أحـلاه مـن تعـبير وموقف جميل.

٤- الحبّ: قوله عليه السلام: أوصيك بتقوى اللّه أي بنيّ،فكلمة «بنيَّ» مصغرة ابـن وماالهدف منهاإلاّ اظهارالشوق والحب العميق لابنه عليه السلام عن طريق إحدى أهـداف التصغير ألا وهو التحبيب.

٥- التشويق والتحذير، وهما من أبرز سمـات المبلـغ الاسـلامي، ويعـدان كقطبين للتيار الكهربائي، ولولا هما لم تمض الامور على رسلها بل من الممكن أن تصاب بعطب وعطل، فانظر إلى قوله عليه السلام:وأمر بالمعروف تكن من أهلـه،المعروف شيء محبب لدى النفوس جميعاً ثم انه عليه السلام أضـافها إلى كلمـةالأهل الـتي سـتزيد الشوق أكثر عند المستمع أوالمخاطب، مما يجعل الانسان أن يتقدم نحو الامام، ومن جهة اخرى يأمره بانكار المنكر باليدواللسان(بالقوة والبيان)وعليه مبانية ومقاطعة أصحاب المنكرات بكل قواه بلا ضعف واستكانة، فبالأمر بالمعروف والنـهي عـن المنكر تنم اضاءةالطريق للمجتمع الاسلامي السـليم، لتحـي حيـاة طيبـة سـعيدة ينشدها كل انسان مخلص لوطنه ولدينه و...

٦-الالتـزام بالصـبر،هو عنصـر المقاومـة وعـدم الاستسـلام للمصـائب وللحوادث وللدهر، ويعدُّ من الامور المستصعبة على النفس البشريةالتي لا تكـاد تطيـق ان تتحمـل لسـعة الزنبـور، ومـن أجـل أن يشـتاق إليهـا الانسان،مدحهاالامام عليه السلام بأحسن صورة لما قال: ونعم الخلـق التصـبر في الحـقّ،

فالصبر كما قيل مُرٌّ، ولكنه سيحلو إن كان للحقّ، فالمرُّ لـن يصـبح حلواً(بالعقـل والفكر)الاّ عن طريق العاطفة.

٧-الخوف من القيامة:ان المعاد من أهم أركان الاعتقاد باللّه، بها وبالتوحيد تسير الامور في مجراها الطبيعية، وللمعاد مشاهدة مثيرة للدهشة والحيرة والخوف والرعب كما صوّرها القرآن الكريم في مواطن مختلفة،وها هـو مولانـا علـي(عليه السلام)، اميرالخطباء،وسلطان الفصحاء والبلغاء يُثير لدينا الخوف من مشـهد كأنـه(عليه السلام) رآه حيث يقول: رويداً يُسفر الظلام كأن قد وردت الأظعان، يوشـك مـن أسـرع ان يلحق، يقول ابن أبي الحديد: «استقرأني أبوالفرج محمد بن عباد(رحمـه اللّـه)وأنا يومئذ حدث هذه الوصية، فقرأتها عليه من حفظي، فلماوصلت إلى هذا الموضـع (رويداً...) صاح صيحة شديدة وسقط، وكان جباراً قاسي القلـب»[١]، هكـذاتفعل المواعظ الحسنة في نفوس أصحابها القساة، فهذا المشـهد العـاطفي يحتـوي علـى صورتين مثيرتين للرعب،والشوق فالأولى تصور الظلام الذي تمثـل في قولـه(عليه السلام): يسفرالظلام، فالدنيا مظلمة موحشة عندأصحاب الايمان، ولكن الانسان لا يـدرك ذلك الاّ بعد أن تنكشف له حقائق الأمور وترفع عنه حجب الجهل عند الممـات، فلـو نظرنـا بعـين الحقيقـة لاستوحشـنا مـن الـدنيا وظلامهـا رغـم اشـراقها بالضحى،والثانية: قوله(عليه السلام): كأن قد وردت الاظعان يوشك من أسـرع... فصـورة الابل محملة بأثقالها،السريعة في جريها، يشتاق الانسان الالتحاق بها بسرعة، للقاء ربّ العزة، حيث يقول الباريء: يوم يخرجون من الأجداث سراعاً(المعارج، ٤٣).

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص ٣٤.

٥- عنصر الخيال

هو ذلك التصوير الذي يبرز العاطفة في ثوبها الجديد، ويجلّيها بوضوح تام، راسماً مشاعر الأديب وأحاسيسه بصورة قوية قادرة على نقل المشاهد(الصور) إلى وجدان المستمع أو القارئ كما أدركها الأديب نفسه، فحينها تظهر محاسن الأشياء للعين زاهيةوتسمعها الآذان بانغامها الموسيقية الموزنة، وتؤثر في نفوس السامعين أثر السحر، وبذلك يتم النصر للأديب الحاذق، فلننظر إلى أنواع الصور المستخدمة في هذاالنصّ الجميل، فمنها:

١- التشبيه:ومن المعلوم انّ الغرض الأوّل منه هوابراز الفكرة وتجليتها جلاء تامّاً،كي تؤثر في قارئها وسامعها أقوى تأثيروأشده،وعادة تبرز أهميتها لما تأتي جديدة طريفة، لم يسبق إليها أحد، فانظر إلى قولهعليه السلام:حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني،وكأن الموت لو أتاك أتاني، فصور العاطفة بشكل يدركه السامع عن طريق الاصابة، سوءاً كانت عن طريق الضربة بالسيف أو الرمي بالرمح أو السهم أو... فالألم الذي شعر به الامام عليعليه السلام وأحسّه في وجدانه انتقل مباشرة مع الصورة إلى نفس السامع فبها تجد النفس الروعة والجمال في البيان،وانهعليه السلام لا يكتفي بهذا المقدار بل ينتقل إلى تصعيد الشعور العاطفي، فاتى بصورة أشدّ وقعاً في النفس من المرّة الاولى،وأكثر ادراكاً للألم لّما ذكر الموت،فنقل المشاعر التي أدركها بلا زيادة ولا نقصان إلى مخاطبيه، ممّا يجعل هذاالعمل يزيد الروعة في الكلام ويؤثر أثر السحر في النفوس.

وهناك تشبيهات جاءت خلال الرسالة، منها قولهعليه السلام: فتكون كالصعب النفور، حيث استوفت جميع أركان التشبيه، فالمشبه الضمير في «تكون» وأداته الكاف والمشبه به «الصعب النفور» وهي من احدى صفات الفرس الجموح،ووجه

الشبه محذوف تقديره (عدم السيطرة)وهو من باب تشبيه التمثيل، فانظر كيف صوّر النفس الامارة بالسوء بالفرس الجموح الذي يمنع ظهره من الركوب(الصورة الاولى)، ويرمي بالراكب أرضاً مصروعاً(الصورة الثانية) لعدم السيطرة،فوجه الشبه منتزع من صورتين، فانظر إلى الصياغة الجميلة «للاباءوالامتناع» كيف صوّرت حسيّاً بشكل تؤثر في عواطف السامعين، وهكذا تجد الصورة في قولهعليه السلام: قد صرت كأحدهم، فالمشبه الضمير في «صِرْتَ»،والكاف أداة وأحدهم المشبه به، وحذف وجه الشبه المنتزع من أكثر من صورة، فالصورة الاولى «دخول القبر» والثانية عدم الحركةوالعمل،كما هو شأن الأموات. وأخيراً نشير إلى قولهعليه السلام: قلب الحدث كالأرض الخالية،ماألقى فيها قبلته،حيث اشتملت على جميع أركان التشبيه.

٢- الاستعارة المستعملة في هذه الرسالة وفي أكثر خطبهعليه السلام لا تعدّ ولا تحصى فأينما سرت ستواجه أنواع الاستعارة التي لها الفضل الأكبر في التصوير الفني للعاطفة،وانتقالها من ضمير الأديب إلى المخاطبين أوالقرّاء، وتعد الاستعارة لدى الامامعليه السلام من النوع «الخاصّ النادر الذي لا تجده إلاّ في فحول الكلام»[١]، والملاحظ ان أغلب الاستعارات المستعملة هي غرار الاستعارة المكنية، فعلى سبيل المثال نشير إلى قولهعليه السلام: وايّاك أن توجف (تسرع) بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة، فالمطايا تستعمل عادة للمركوبات لا للطمع،فالركوب على ظهر الطمع من باب الاستعارة المكنية،وهي أشدّ وقعاً في النفس، فتصور ان للطمع مركباً يعلوه الانسان، فاذاركبه أورده في الهلاك. وكذا في قولهعليه السلام:أصلح مثواك(قبرك)،وبعبارةأصلح عملك، فالمثوى محل رقدة الانسان، والانسان هو

١. دلائل الاعجاز، ص٦٥.

الذي يفسد أخلاقيّاً أو اعتقاديّاً أو... فيحتاج إلى الاصلاح، فاصلح مثواك استعارة مكنية، وقوله عليه السلام: صولة الدهر، فالدهر لا يهاجم بل العدو هوالمهاجم، فحملة الدهر من باب الاستعارة المكنية، وقوله عليه السلام: عمارة القلب، وانّما العمارة للداروالبلاد و... فاعمار القلب من باب الاستعارة المكنية أيضاً، وقوله عليه السلام:أويسبقني إليك بعض غلبات الهوى، عادةالمسابقات تكون للخيل أو للانسان، وليس للهوى سباق، فانظر إلى جميل التعبير حيث شبه الهوى بالخيل(الانسان) فحذف المشبه به وكنّى به بأحد لوازمه (السباق)على سبيل الاستعارة المكنية، ثمّ انظر الجمال في الصورتين التاليتين «وإن كانت الصور جميعهاجميلة» ففي قوله عليه السلام: من كانت مطيته الليل والنهار، فليس للزمان مطية وإنّما المطايا للمراكب،حيث شبه الأيام بالمراكب فحذف المراكب ورمز إليه بالمطية(الظهر) وجعلها صفة لليل والنهار على سبيل الاستعارة المكنية،وانظر أخيراً إلى كيفية تصويره عليه السلام للموت في قوله غرض الاسقام،فالدنيا مسلّحة للحرب ضد الانسان وهي على اتمّ الاستعداد، وهدفها الرئيسي ان ترمي الانسان بسهام الأمراض والأسقام المختلفة،ومن المعروف لدى الأطباء ان الجوّ المحيط بنا مليء بالجراثيم والمكروبات والفايروسات،وهي تهاجم الانسان بحرب عشوائية لحظة بعد أُخرى، وهناك احياء لا ترى بالعين المجرّدة ملاصقة بأبداننا تعيش مسالمة معنا، منتظرة الأوامر بالهجوم علينا من القيادة العليا(اللّه سبحانه) حتّى تدك عرش حياة البشر رامية بجسمه على الأرض مقتولاً، فما أجمل هذه الصور البيانيّة التي تصوّر الموت حسيّاً.

٣- الكناية:هي أبلغ من التصريح واذا عمل بها الأدباء «بدت هناك محاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعراً شاعراً، وسحراً ساحراً،

وبلاغة لا يكمل لها إلاّ الشاعر المفلق والخطيب المصقع»[1]، والكناية المستخدمة في أرجاء هذه الرسالة ليست بقليلة، ونذكر منها على سبيل المثال قوله عليه السلام: كأن قد وردت الأظعان، فكنّى بالأظعان على المسافرين الذين يحلون القيامة،وهي كناية عن موصوف، وفي قوله عليه السلام: عمّا انتقلوا وأين حلوا ونزلوا، حلوا ديار الغربة، فكنّى بقوله عما انتقلوا بالدنيا الفانية، وكنّى عن الآخرة بقوله: أين حلوا ونزلوا، وكنّى عن القبر بديارالغربة، فهي كنايات عن موصوف، وقوله عليه السلام قد بلغت سناً، فكنّى عن العمر بالسن، فهي كناية عن موصوف أيضاً.

٦- الاسلوب

١- الاستهلال والبناء الهندسي للرسالة: «فلو وقفنا عند استهلال هذه الرسالة (من الوالدالفان، المقر للزمان...) فهذاالاستهلال بالرغم من كونه يخصّ شخصاً محدّداً،الاّ انّه يتجاوز ما هو خاص إلى ماهوعام ليصب في نفس الأهداف العباديّة التي تطبع سائر أشكال التعبير الفني عند الامام عليه السلام وذلك من خلال اخضاعه لعمارة تتواشج وتتنامى موضوعاتها بحيث يصبح هذاالاستهلال تمهيداً فنياً تبدأ الاجزاءاللاحقة بتفصيل ماأجمله الاستهلال وتنمية تطوير مفهوماته،ولنقرأ:أمّا بعد فانّي فيما تبيّنت من ادبار الدنيا عنّي وجموح الدهر عليّ واقبال الآخرة إليّ... حتّى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني،وكأنّ الموت لوأتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يُعنيني من أمر نفسي... وتجاوزه إلى ما هو عام من التوصيات التي تبدأ من المقطع الثالث من التوصية: أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة وقوّه

---

١. اسس النقد الأدبي، ص٥٢٩.

باليقين ونوّره بالحكمة... فهذا المقطع جاء انماءً عضويّاً وتطويراً لأفكار بـدأت في المقطع الأوّل من الوالد الفان...»[1].

٢- المقابلة: قوله عليه السلام: أحي قلبك بالموعظةوأمته بالزهادةوقوّه باليقين ونوّره بالحكمة... حيث انه عليه السلام «رسم للقلب عمليات خاصّة هي الاحياءوالاماتـةوالقوّة والتنوير والتذليل والتبصير، والتحذير، وهذه الرسوم ليست عرض عابر بقدر مـا تشكل صوراً فنية بالرغم من انّها لم تأخـذ شـكل الصـورة التركيبيـة ذات البعـد الرمزي المكثف، بل أخذت شكلاً مألوفاً سهلاً، الاّ انّها خضـعت لمبـدأ فنّـي هـو التضاد والتمايل، فالتضاد من خلال التماثل يشكل في لغة النقدالفني، واحـداً مـن اشكال الصياغة المعاصرة لاشكال الفن. التضاد هنا بين أحياء القلب واماتته ولكن من خلال التشابه الذي يجسّد مفهوم المعرفة العبادية، كما انّ التبـاين مـن تقويـة وتنوير وتذليل من خلال التشابه المذكور يجسد نفس الفاعليّة الفنيّـة مـن حيـث استنارة النفوس، مادمنا نعرف من حيث الاستجابة الفنيّة،وهذا ماانتبه إليه مؤخّراً علماءالنفس (الجشطالتيون)انّ الشخصيّة تستجيب لأيّ منبّة من خـلال الكـل أو الوحدة التي تنتظم مختلف الجزئيّات في شكل موحد»[2]،ثمّ انظـر إلى بـاقي كلامـه ستجد الطباق في قوله عليه السلام: فافضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لعب،وصدق لا يشوبه كذب، فتجد الطباق بين الجدّ واللعب، والصدق والكذب،وترى أيضاً في قوله عليه السلام: ان أنا بقيت لك أو فنيت، أو في قوله عليه السلام: فان بيده العطاءوالحرمان، فالطباق بـين البقاء والفناءوالعطاءوالحرمان، فهذه الصياغة تزيد الشوق للمستمع أكثر، خاصة لما تقرع أسماع المخاطبين كلمة جدّ فان المستمع ينتظر اللعب في الكلام وكذا لما يسمع

---

١. تاريخ الأدب العربي، ص٢٣٠.

٢. الاسلام والفن، ص١٦١.

الصدق ينتظرالكذب، وهكذا ترى المستمع تتفاعل نفسه مع الخطيب في بيانه أخذاًوعطاءً، فعمليّة الانتباه والاستماع من قبل الخطيب وعملية الأخذ والعطاء من قبل المستمع لا تأتي إلاّ من وراء عنصر التقابل والتضاد. ثمّ انظر إلى قولهعليه السلام: وليكن له تعبدك وإليه رغبتك ومنه شفقتك، فان عمليّة الاختصاص بالعبوديّة للّه ما جاءت إلاّ عن طريق القصر متزامنة مع الاخلاص من خلال قولهعليه السلام: الرغبة والشفقة؟ جمال يصوغ جمالاً.

ثمّ انظر إلى قولهعليه السلام: وظلم الضعيف أفحش الظلم، حيث استخدم فيها ردّ العجز على الصدر[1]،وأخيراً استخدم العكس[2] في قولهعليه السلام:اذاكان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً،ربّما كان الدواء داءً والداءُ دواءً.

وقفة مع الكلمات

انّما ذكرنا لها عنواناً خاصّاً لما وجدنا فيها بعض الظرائف الأدبيّةأو اللغويةأوماشابه ذلك، حيث تسترعي الانتباه وتجلب الانظار فتقول:

١- قولهعليه السلام: من الوالد الفان، حيث «حذف الياءهاهنا للازدواج بين الفان والزمان،ولأنّه وقف،وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام[3] حذف الياء واثباتها،والاثبات هو الوجه ومع عدم اللام يجوز أمران واسقاط الياءوالوجه»[1].

---

١. هو أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين أو المتجانسين أو الملحقين بهما (بان يجمعها اشتقاق أو شبهه) في أوّل الفقرة ثمّ تعاد في آخرها مثل قوله تعالى: وتخشى الناس واللّه أحقّ أن تخشاه (الأحزاب، ٣٧).

٢. العكس: هو أن تقدّم في الكلام جزءاً ثمّ تعكس، بأن تقدّم ما أخّرت، وتؤخّر ما قدّمت، نحو: كلام الملوك ملوك الكلام.

٣. يقصد باللام، الألف واللام الفاني.

٢- قوله عليه السلام: من الوالد الفان...إلى المولود المؤمل،لقد اختار الامام عليه السلام أفضل الكلمات القرآنية(الوالدوالمولود) لما توحى مع قرينتها جمالاً في المعاني فاذا تتبعنا الآيات القرآنيّة فسنجد المعاني التالية مقرونة بها:

اولاً:اقتراب القيامة وهي ممّا تناسب موضوع الرسالة،حيث يقول الباريئ:اتقوا ربكم واخشو يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً(لقمان، ٣٣) حيث تنعدم أقوى العواطف.

ثانياً: العبوديّة للّه والاحسان بالوالدين،قال تعالى: وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين احساناً (الاسراء- ٢٣)،فاقتران الاحسان بالوالدين جاءت بعد مرحلة العبودية للّه سبحانه، والاحسان هو من أحد صفات عباد اللّه.

ثالثاً:العناية بهما، حيث قال تعالى: وبرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً شقيّاً (مريم- ١٤)،أو قوله تعالى: قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى(البقرة- ٢١٥)، فنحن مأمورون بالاعتناء بالوالدين مهما كلّف الأمر.

رابعاً: طلب المغفرة لهما: قال تعالى: ربّنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (ابراهيم- ٤١)، وكذا الترحم عليهما كما قال سبحانه: وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً(الاسراء- ٢٤).

خامساً: وجوب الشكر على النعم، قال تعالى: ان اشكر لي ولوالديك إليّ المصير (لقمان- ١٤)لأنّها تزيد النعم.

سادساً: ذكر النعمة، قال تعالى: اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك(المائدة- ١١٠) والنعم كثيرة منها نعمة الحياة والرزق والسلامة و... و...

سابعاً: تعجب ومدح، قال تعالى: ووالد وماولد(البلد- ٣).

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص١٨.

فالملاحظ انّ لفظ الوالد احتوت على مساحة كبيرة من المفاهيم والمعاني المختلفة وبعبارة اخرى انّ هذه الكلمة تشعّ المعاني منها نوراً وهدىً فما أحلاها من كلمة.

ولكن لو نظرنا بعين الدقيق إلى كلمة الأب، فانّنا سنجد في طياتها معاني جميلة ولكن الغالب عليها ان تقترن بالمعاني التالية:

أولاً:الفحشاء،قال تعالى: واذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا (الأعراف– ٢٨).

ثانياً:الضلالة، قال تعالى: قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين(الأنبياء– ٥٣) أوقوله تعالى:انّهم ألفوا آباءهم ضالّين (الصافات– ٦٩).

ثالثاً: التمادي في الضلالة، قال تعالى:أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا (هود– ٨٧).

رابعاً:الشرك، قال تعالى: أجئتنا لنعبد اللّه وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (الأعراف– ٧٠).

خامساً:عدم العلم والجهل، قال تعالى: ان هي إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم واباؤكم (النجم– ٢٣)أوقوله تعالى: أولو كان اباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون (المائدة– ١٠٤).

سادساً: انكار القيامة، قال تعالى: أئذا كنّا تراباً وآباؤنا أئنّا لمخرجون (النمل– ٦٧).

سابعاً: عدم العقل، قال تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (البقرة– ١٧٠)،والى معاني أُخرى نضرب عنها صفحاً خوف الاطالة، فاحببت هنا أن يطّلع القارئ الكريم على مدى الاختلاف بين كلمتي الوالدوالأب، حسب ما

صرّح به القرآن الكريم وهذا هو السرّ من وراء اختيار الوالد من قبل الامام علي عليه السلام.

٣- قوله عليه السلام:المدبر العمر، «لأنّه كان قد جاوز الستين ولم يبق بعد مجاوزة الستين الاّ ادبار العمر، لأنّها نصف العمر الطبيعي الذي قلّ أن يبلغه أحد، فعلى تقديرأن يبلغه فكلّ ما بعد الستين أقل ممّا مضى،ولا جرم يكون العمر قد أدبر»[١].

٤- قوله عليه السلام: أحي قلبك بالموعظة وأمته بالزهادة،وقوّه باليقين،ونوّره بالحكمة وذلّله بذكرالموت... حيث جعل للقلب حياةً عن طريق المواعظ ومماتاً عن طريق الزهد وقوّةعن طريق اليقين باللّه،وانارة عن طريق الحكمة،وذليلاً عن طريق الموت،واعترافاً عن طريق الفناء،وبصراً عن طريق رؤية مصائب الدنيا،وعقلاً عن طريق التحذير وهكذاالكلام في البقية.

٥- قوله عليه السلام: وأيّ سبب أوثق من سبب بينك وبين اللّه،«لا يتحقّق السبب بين اللّه وعبده إلاّ بثلاثة:الأوّل:الشعور بوجوده،وانّه ينفع ويضر،وينعم وينتقم،الثاني:التوكل عليه والثقة به،الثالث:أن يكون مع الايمان والتوكل عمل يرضاه،أي ينفع ولا يضر، وهذه الثلاثة متكافئة متشابكة،فمن آمن ولم يتوكّل أو توكّل ولم يعمل انقطع السبب منه وبين خالقه»[٢].وجاء الاستفهام للتعجب لأجل تعظيم حبل اللّه وهو في مقام المدح.

٦- قوله عليه السلام:ونعم الخلق التصبر في الحق،فالتصبر على وزن تفعّل تعطى معنى الكثرة،وهذا يعني لابدّ للصابر أن يصبر مراراً وتكراراً فانّما المدح جاء للتكرار لا للمرة الاولى،وهذا يدل على انه لابدّ للصبر أن يستمر ولا يتوقف طول

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص١٨.

٢. في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص٤٨٧.

الحياة، فالصبر لازم للانسان حتّى يفوق على المشاكل والمصاعب و... ولا يتم الصبر إلاّ في قالب التكرار المتمثل في قوله «التصبّر».

٧-الاقتباس

قلنا مراراًانّ الامامعليه السلام تربّى في ربوع القرآن الكريم واستقى من معينه الزلال، فجرت آياته مجرى الدم في أفكاره وسلوكهعليه السلام، فنشير هنا إلى بعض الفقرات المقتبسة من القرآن الكريم،ففي قولهعليه السلام: أوانقص في رأيي كما نقصت في جسمي، مقتبس من قوله تعالى: ومن نعمّره ننكسه في الخلق (يس- ٦٨)،وقولهعليه السلام: وجاهد في اللّه حق جهاده، مقتبس من قوله تعالى: وجاهدوا في اللّه حق جهاده(الحج- ٧٨)، قولهعليه السلام: الساكن مساكن الموتى، مقتبس من قوله تعالى:وسكنتم مساكن الذين ظلموا انفسهم(ابراهيم- ٤٥)،قولهعليه السلام:ازدادوهناً، مقتبس من قوله تعالى:وهن العظم منّي (مريم- ٤)،وقولهعليه السلام ولا تبع آخرتك بدنياك، مقتبس من قوله تعالى:اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة(البقرة- ٨٦)، قولهعليه السلام:ونعم الخلق التصبر في الحق، مقتبس من قوله تعالى:سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(الرعد- ٢٤)، وقولهعليه السلام:أولجتك في شبه، مقتبس من قوله تعالى: يولج الليل في النهار(الحج- ٦١)،وإلى أمثالها كثيرة.

٨. التضمين[1]

يُعدُّأميرالمؤمنينعليه السلام من أكبر صحابة رسول اللّهصلى الله عليه وآله حيث آمن به وهو صبيّ وتزوج من فاطمة بنت الرسولصلى الله عليه وآله،وهو الخليفة بالنص والشورى من بعد الرسولصلى الله عليه وآله،فلا شك انّه سمع الكثير من كلماتهصلى الله عليه وآله،ورأى الكثير من أعمالهصلى الله عليه وآله،فلابدّ أن تأتى قبسات النور من الرسولصلى الله عليه وآله في خطبه ورسائلهعليه السلام، فنشير إلى قولهعليه السلام:«ودع القول فيما لا تعرف،مأخوذ من قول رسول اللّهصلى الله عليه وآله: خذ ما تعرف ودع ما لا تعرف وعليك بخويصة نفسك»[2]، وقولهعليه السلام:والخطاب فيما لم تكلف مأخوذ من قول رسول اللّهصلى الله عليه وآله:من حُسن اسلام المرء تركه ما لا يعينه،وقولهعليه السلاموامسك عن طريق اذا خفت ضلالته،مأخوذ من قول النبيصلى الله عليه وآله:دع ما يريبك إلى ما لا يريبك،وقولهعليه السلام:فخفض في الطلب، مأخوذ من قول رسول اللّهصلى الله عليه وآله:ان روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها،فاجملوا في الطلب.

التحليل الاعرابي

جئنا باعراب بعض التراكيف لتسهيل الأمر، علماً بأن المعاني لا تأتي إلاّ من وراءالاعراب فنقول:

١- قولهعليه السلام: رويداً يسفر الظلام، لرويد أربعة أوجه، الأوّل: اسم فعل مثل: رويدَ زيداً أي أمهل زيداً، الثاني: صفة مثل سار القوم سيراً رويداً، أي خفيفاً أو

---

١. هو أن يضمن الشاعر كلامه شيئاً (من مشهور الغير) مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً لدى نقاد الشعر وذوي اللسن وبذلك يزداد شعره حسناً (جواهر البلاغة، ص٤١٦).

٢. شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص٢٣.

بطيئاً، الثالث: حال اذا وقع بعد المعرفة مثل سار القوم رويداً، الرابع: النصب على المصدر(مفعول مطلق) مثل: رويداً، ورويد زيد بالاضافة.

٢- قوله عليه السلام: حيث تفرّد بي هموم الناس دون همٌّ نفسي، فـ(هم) فاعل تفرد.

٣- قوله عليه السلام:وصرّح لي محض أمري، يروى بنصب محض ورفعه، فمن نصبه فتقديره عن محض امرى،فلما حذف الجار نصب، ومن رفعه جعله فاعلاً.

٤- قوله عليه السلام:ونعم الخلق التصبر في الحقّ، نعم الخلق خبر مقدم،والتصبر مبتدأ مؤخر،أوالتصبر خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو.

٥- قوله عليه السلام:ان أنت أخذت به، فعل الشرط محذوف تقديره:ان أخذت أنت أخذت به.

٦- قوله عليه السلام:وأمر بالمعروف تكن من أهله،تكن مجزوم لأنّه في جواب الطلب.

٧- قوله عليه السلام:أي بُنيّ:أي حرف نداء،وبنيّ منادى منصوب لأنّه مضاف وعلامة نبصه الفتحة على الواو المحذوفة(لام الفعل) الواقعة بين اليائين فالاولى منها للتصغير والثانية للمتكلم.

٨- قوله عليه السلام: -ازداد وهناً: فـ(وهناً) تمييز.

٩- قوله عليه السلام:ما قد كفاك:(ما) مفعول تستقبل.

١٠- قوله عليه السلام: فانّك أوّل ما خلقت خلقت جاهلاً،(ما) مصرية وجاهلاً حال.

الدرس الحادي عشر

اسراءالايمان[1]

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ،وَ عِمَارَةِالصَّـفِيحِ[١]الْـأَعْلَى مِـنْ مَلَكُوتِهِ[٢]خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلائِكَتِهِ،وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا[٣]،وَحَشَا بِهِـمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا،وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ[٤]الْمُسَـبِّحِينَ مِـنْهُمْ فِـي حَظَائِرِ[٥]الْقُدُسِ[٦]وَسُتُرَاتِ[٧]الْحُجُبِ وَ سُرَادِقَاتِ[٨]الْمَجْـدِ،وَوَرَاءَذَلِكَ الرَّجِيجِ[٩] الَّذِي تَسْتَكُّ[١٠]مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ[١١] تَرْدَعُ الْأَبْصَارَعَنْ بُلُوغِهَا، فَتَقِفُ خَاسِئَةً[١٢] عَلَى حُدُودِهَا.

وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ،أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلالَ عِزَّتِهِ،لا يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِـنْ صُـنْعِهِ،وَلا يَـدَّعُونَ أَنَّهُـمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّاانْفَرَدَ بِهِ،بَلْ(عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ وَ هُـمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)[2]جَعَلَهُمُ اللّه فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَـى وَحْيِـهِ،وَحَمَّلَهُمْ

---

١. هم الملائكة أفضلُ عباد الرحمن، الذين يأتمرون بأوامر الله سبحانه، وهم سكان السموات، حيث تحدث عنهم الامامعليه السلام في هذا المقطع بشيء من التفصيل، ومن المعلوم ان الحديث عن الملائكة أو الجن حديث عن الغيب، وإن كتاب الله اعتبر الايمان بالغيب شرطاً أساسياً في الدين، ومن البديهي أن يكون الإمامعليه السلام قد خاطب بكلامه هذا الذين يؤمنون بالغيب، وأما من كفر فعليه كفره. «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل» النساء، ١٣٦.

٢. الأنبياء، ٢٧.

إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ وَ عَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ[١٣]عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ وَ أَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ وَ أَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ[١٤]السَّكِينَةِ وَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً[١٥]إِلَى تَمَاجِيدِهِ وَ نَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً[١٦]وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ[١٧] تَوْحِيدِهِ لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الْآثَامِ[١٨]وَ لَمْ تَرْتَحِلْهُمْ[١٩]عُقَبُ[٢٠]اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ وَ لَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا[٢١]عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ[٢٢] يَقِينِهِمْ وَلاقَدَحَتْ قَادِحَةُالْإِحَنِ[٢٣] فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاقَ[٢٤]مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ وَ مَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَ هَيْبَةِ جَلالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ[٢٥] بِرَيْنِهَا[٢٦] عَلَى فِكْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ[٢٧]وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ وَفِي قَتْرَةِ[٢٨]الظَّلَامِ الْأَيْهَمِ[٢٩]وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ[٣٠] الْهَوَاءِوَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ[٣١]تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِالْمُتَنَاهِيَةِ.

قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ[٣٢]أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ وَ وَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ[٣٣]إِلَيْهِ وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَاعِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ قَدْ ذَاقُوا حَلاوَةَ مَعْرِفَتِهِ وَ شَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ[٣٤]مِنْ مَحَبَّتِهِ وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ[٣٥] قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ[٣٦] خِيفَتِهِ فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ وَ لَمْ يُنْفِدْ[٣٧]طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ وَ لاأَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ[٣٨]خُشُوعِهِمْ وَ لَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَ لا تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ[٣٩]الْإِجْلَالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ

دُؤوبهِمْ[٤٠]وَلَمْ تَغِضْ[٤١]رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُواعَنْ رَجَاء رَبِّهِمْ وَ لَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاتُ أَلْسِنَتِهِمْ[٤٢] وَلامَلَكَتْهُمُ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ[٤٣]إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ[٤٤]الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ وَلَمْ يَثْنُواإِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ،وَلا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ[٤٥] جِدِّهِمْ بَلادَةُ الْغَفَلاتِ وَلا تَنْتَضِلُ[٤٦]فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ قَدِ اتَّخَذُواذَاالْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ[٤٧]وَ يَمَّمُوهُ[٤٨]عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ لا يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَلا يَرْجِعُ بِهِمُ الاِسْتِهْتَارُ[٤٩]بِلُزُومِ طَاعَتِهِ إِلاّ إِلَى مَوَادَّ[٥٠] مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَ مَخَافَتِهِ لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ[٥١] مِنْهُمْ فَيَنُوا[٥٢] فِي جِدِّهِمْ وَ لَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ[٥٣] عَلَى اجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ[٥٤]وَجَلِهِمْ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ وَلا تَوَلاّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ وَلا تَشَعَّبَتْهُمْ[٥٥]مَصَارِفُ الرِّيَبِ وَلا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ[٥٦] الْهِمَمِ فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلا عُدُولٌ وَ لا وَنًى[٥٧]وَلا فُتُورٌ وَ لَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ[٥٨]إِلاّ وَ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌأَوْ سَاعٍ حَافِدٌ[٥٩] يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً وَ تَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً[١].

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، خ٩١، الخطبة المسماة بالاشباح، ص١٢٨.

[١] الصفيح:السماءويقال لكلّ وجه عريض، والعمارة:الأهلة بالسكان، من عمر المنزل بأهله.

[٢] الملكوت:العزّوالسلطان،والفروج، ج فرج،وهو الفراغ بين شيئين، الفراغات.

[٣] الفجاج: فجّ الطريق الواسع الواضح بين جبلين.واجواء:ج جوّ،وهو ما اتّسع من الأودية،ويقال لما بين السماء والأرض جوّ.

[٤] الزجل:رفع الصوت.

[٥] الحظائر:ج حظيرة،وهي الموضع يحاط عليه لتأوي إليه الغنم والإبل توقّياً من البردوالريح،وهو مجازهنا عن المقامات المقدسة للأرواح الطاهرة، وحظيرةالقدس الجنة.

[٦] القُدُس:بضمتين أوبضم فسكون: الطهر.

[٧] السترات:ج سُترةوهي ما يستتر به.

[٨] السرادقات:ج سُرادق،وهو ما يمدّ على صحن البيت فيغطيه.

[٩] الرجيج:الزلزلةوالاضطراب.

[١٠] تستك منه:تصم منه الأذان لشدته. تنسد.

[١١] سبحات النور: طبقات النور،وأصل السبحات الأنوار نفسها.وهي عبارة عن جلالة اللّه تعالى وعظمته،وتردع: تكف.

[١٢] خاسئة: مدفوعة مطرودة عن الترامي إليها، سادرة.

[١٣] الزائغ:العادل عن الطريق، المائل.

[١٤] الإخبات:الخضوعوالخشوع،والسكينة: الوقاروالطمأنينة.

[١٥] ذلل:ج ذلول، خلاف الصعب، سهلة هينة. وتماجيد ج تمجيد،الثناء عليه بالمجد.

[١٦] مناراً: ج منارة،العلامة والدلالة.

[١٧] الاعلام: ما يقام للاهتداء به على أفواه الطرق ومرتفعات الأرض، والكلام تمثيل لما أنار به مداركهم حتى انكشف لهم سرّ توحيده.

[١٨] موصرات الآثام:مثقلاتها.

[١٩] ارتحله:وضع عليه الرحل ليركبه.

[٢٠] العُقب: ج عقبة وهي النوبة،أو تعاقب الليل والنهار.

[٢١] النوازع:ج نازعةشهواتها النازعة المحركة.

[٢٢] معاقد: ج معقد،محل العقد، بمعنى الاعتقاد.

[٢٣] الإحن:ج إحنة،وهي الحقدوالضغينة.

[٢٤] لاق:التصق،أومانبت.

[٢٥] تقترع:من الاقتراع بالسهام بمعنى ضرب القرعة.

[٢٦] الرين:الدنس،وما يطبع على القلب من حجب الجهالة.

[٢٧] الدلح: ج دالح،وهو الثقيل بالماء من السحاب.

[٢٨] القترة: هنا الخفاء والبطون، ومنها قالوا:أخذه على قترةٍ أي من حيث لا يدري.

[٢٩] الأيهم:الذي لا يهتدي فيه ومنه فلاة يهماء،وقيل الأيهم أي الأسود،وتخوم الأرض: حدودها.

[٣٠] مخارق:ج مخرق أي موضع الخرق.

[٣١] ريح هفافة:طيبة ساكنة.

[٣٢] استفرغتهم: جعلتهم فارغين من الاشتغال بغيرها.

[٣٣] الوله: شدة الشوق،أو شدةالحزن.

[٣٤] الروية:التي تروي وتطفئ العطش.

[٣٥] السويداء: حبّة القلب ومحل الروح الحيواني منه.

[٣٦] الوشيحة:أصلها عرق الشجرة،أراد منا هاهنا بواعث الخوف من اللّه.

[٣٧] لم ينفذ:لم يُغن.

[٣٨] ربق:ج ربقةوهي العروة من عُرَى الربق،وهو حبل فيه عدة عُرى تربط فيه البهم،الحلقة من الحبل.

[٣٩] الاستكانة: ميل للسكون من شدة الخوف. ثم استعملت في الخضوع والخشوع.

[٤٠] الدؤوب: من دأب في العمل، بـالغ في مداومتـه حـتى أجهده.الاسـتمرار في العمل، الجد والاجتهاد.

[٤١] لم تغض: لم تنقص.

[٤٢] اسلةاللسان: طرفه ومستدقه.

[٤٣] الهمس:الخفي من الصوت،والجؤار: رفع الصوت بالتضرع.

[٤٤] المقاوم: ج مقام، والمرادالصفوف.

[٤٥] لا تعدو على عزيمة: لا تسطو عليها.

[٤٦] انتضلت الابل:رمت بأيديها في السير مسرعة،وخدائع الشهوات للنفس مـا تزيّنه لها،أي لم تسلك خدائع الشهوات طريقاً في هممهم.

[٤٧] فاقتهم: حاجتهم.

[٤٨] يمّموه: قصدوه بالرغبة والرجاء عند ماانقطع الخلق سواهم إلى المخلوقين.

[٤٩] الاستهتار:التولّع والملازمة.

[٥٠] مواد: ج مادة،أصلها من «مدالبحر» اذازاد.وكل ما أعنت به غيرك فهو مادة.

[٥١] الشفقة: هناالخوف.

[٥٢] ينوا: من ونى يني اذا تأنّى، فتروا، يضعفوا.

[٥٣] وشيك السعي: مقاربةوهيّنة.

[٥٤] الشفقات: نارات الخوف وأطواره، والوجل:الخوف أيضاً.

[٥٥] تشعبتهم: فرقتهم صروف الريب، ج ريبة:وهي مالا تكون النفس على ثقة من موافقة للحقّ، فرقهم.

[٥٦] الأخياف: ج خيف،وهو في الأصل: ما انحدر عن سفح الجبل،الهبوط والمراد هنا سقوط الهمم.

[٥٧] الوني: مصدر وني ـ كتعب أي تأنى.

[٥٨] الإهاب:جلد الحيوان.

[٥٩] حافد: خفيف، سريع.

التحليل الأدبي

١- المناسبة

قال الرضي رحمه الله: تُعرف هذه الخطبة بخطبة الأشباح[١](جمع شبح،وهوالشخص وهنا يراد بها الملائكة)،وهي من جلائل خطبه عليه السلام، روى مسعدةُ بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، انه قال أميرالمؤمنين بهذه الخطبة على منبر الكوفة؛وذلك أنّ رجلاً أتاه فقال: يا أميرالمؤمنين صف لنا ربّنا مثل ما نراه عياناً لنزداد له حُبّاً وبه معرفةً؛ فغضب[٢] (الامام عليه السلام)،ونادى الصلاة جامعة[١]،فاجتمع إليه

١. وكأنّ التسمية بهذا الاسم جاءت لسؤال ذلك الشخص له عليه السلام.

٢. لعلّ غضبه عليه السلام كان لأجل كون السؤال تعنتاً، كما هو كثير عند الجهلة، اذ لا يريدون بذلك الفهم وانما يريدون تحبيب أنفسهم، وانما أجاب الامام لموقفه من الحاضرين الذين شهدوا السؤال، فالعالم يفهم الحقيقة عند التعنت، أمّا غيره فلا يدرك ذلك؛ فعدم الجواب: يُحمل على سوء الخلق أو العجز أو... توضيح نهج البلاغة؛ ج٢، ص٣٨.

الناس حتى غص(امتلأ) المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضبٌ متغيرُ اللون، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلم...[2]

سمات الملائكة: أرى من المناسب أن نعرض شيئاً يسيراً عنهم كما صوّرهم القرآن الكريم؛ فهم ممّن يخاطبهم اللّه سبحانه،لأنّهم من المقرّبين إليه،هم العابدون الساجدون،الراكعون المسبحون...، يلعنون الشيطان وحزبه، ومن البرّ الإيمان بهم، يشهدون بوحدانية اللّه، تُنادي الناس والمؤمنين الصالحين،هم جند اللّه الغالبون، تستقبل الأرواح حين الممات مبشرين للمؤمنين، ضاربين وجوه الكافرين، هم الشهداء للحقّ، وهم عباد اللّه المخلصين لا يستكبرون عن عبادته طرفة عين، تُنزل حقائق السماء إلى الأرض وهم رسل ربّ العالمين، يطوفون حول عرشه، يسغفرون لمن في الأرض، يُصلّون على النبيﷺ والمؤمنين،منهم حرس جهنم، ومنهم سدنة الجنة تتنزل إلى الأرض ليلة القدر، وأعلاهم منزلة جبرائيل وميكائيل وعزرائيل واسرافيل(عليهم السلام).وهم حلقة الوصل بين اللّه وعباده كما يقول العلاّمة الطباطبائي في تفسيره «وأمّا وساطتهم في تدبير الأمور في هذه النشأة فيدلّ عليها ما في مفتتح هذه السورة من اطلاق قوله: «والنازعات غرقا،والناشطات نشطاً،والسابحات سبحاً، فالسابقات سبقاً، فالمدبرات أمراً،...» بما تقدّم من البيان... إنّهم خلقوا وشأنهم أن يتوسّطوا بينه تعالى وبين خلقه،ويرسلوا لإنفاذ أمره الذي يُستفاد من قوله تعالى في صفتهم: بل عباد مكرمون لا يسبقونه

---

١. الصلاة منصوب بفعل تقديره «احضروا»، وجامعة حال.

٢. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص١٣٨.

بالقول وهم بأمره يعملون (الأنبياء، ٢٧) فلا شغل للملائكة إلاّ التوسط بينه تعالى وبين خلقه بانفاذ أمره فيهم...»[1].

٢- شرح النص

موطن الملائكة:خلق اللّه الملائكةلا نظير لهم في الخلق،وأسكنهم في ملكه من السماء(في بعض الكواكب)،وملأ بهم الطرق الواسعة بين السماء والأرض،وجعلهم وسط الشقوق في جوّ السماء(الفضاء)،وتسمع[2] أصوات الملائكة صاعدة بالتسبيح له من بين تلك الثقوب،ومنهم من سكن أطهر الأمكنة(التي لا يعصى فيها اللّه أبداً).

موانع الرؤيا:وهي مستترة بحُجب (بينها وبين الخلق)،وخيام المجد والعظمة(حيث لا كفر ولا عصيان ولا فقر ولا جهل و...)،وخلف تلك الزلازل والاضطرابات التي تصم الاذن لشدّة وقعها، طبقات النور التي تكفّ الأبصار والعيون عن الوصول إليها،فتقف حرى،لأنّها لا تستوعب أكثر من طاقتها.

أنواع الملائكة: خلقهم على اشكال متفاوتة(كماهوالحال في الانسان)،لهم مقامات مختلفة،لها أجنحة(تطوف في الفضاء).

وظائف الملائكة: هم في تسبيح دائم لجلالته وعظمته،لا يدّعون ما ظهر في الخلق لأنفسهم(لا يدعون الربوبيّة)،ولم يدّعوا خلق شيء تفرّد به سبحانه في ايجاده وانشائه، بل هم عباد أكرمهم اللّه تعالى، مطيعين له عاملين بأمره،

---

١. الميزان، ج٢، ص١٨٣.

٢. اذا قيل لماذا لا نسمع أصواتهم؟ قيل لعدم قابلية الانسان العادي لذلك، كما هو الحال عند الأصم الذي لا يسمع أصواتنا لعدم قابليته وعجزه.

فجعلهم اللّه امناء وحيه المنزل على أنبيائه، وجعلهم الحاملين لرسالته إلى رسله، حتّى يؤدّوا أماناته من الأوامر والنواهي إلى الأنبياء.

صفات سامية:حفظهم من كلّ شبهة وريب، فلاأحد من الملائكة مائل عن سبيل رضاه(دائبون في طاعته)،ومنحهم من العلم والقدرة على العمل في طاعته،وألهم قلوبهم التواضع والخضوع،وفتح لهم أبواباً سهلة المنال إلى تمجيده وتعظيمه،فلا يرون صعوبة في تمجيدهم للّه سبحانه كما هوالحال في البشر.أقام لهم الأدلّة الواضحة على وحدانيته وعظمته، فلا يشعرون بثقل المعاصي على ظهورهم، إذ لا مال ولا مقام ولا هواء ولا شهوات ولا ذنوب ولا معاصيو....،لم ترمهم الأيّام بالكبر هرماًوسقماً و....،حيث لا طعام ولا شراب ولا جنس...ولا يمكن لدوافع الشكوك أن ترمي ايمانهم الصلب،ولا يمكن للظنون أن تحارب عقائدهم الراسخة ولا يمكن لشرارة الحقد أن تشتعل فيما بينهم،ولا يمكن للشك أن يسلب معرفتهم باللّه الملاصقة بضمائرهم،ولا يمكن للحيرةأن تسلبهم ما وجدوا من العظمة والهيبة والجلال الربانيّ في مطاوي صدورهم،ولا تمكن للوساوس والشكوك أن تطمع بهم يوماً حتى تضرب بدنسها على أفكارهم.

لون الملائكة: بعض الملائكة يشبه السحاب المملوء ماءاً،والبعض عظيم كالجبال المرتفعة،والبعض خفي كالظلام الدامس(كسوادالليل)،وهناك صنف آخر من الملائكة خرقت أقدامهم باطن الأرض طولاً (وصلت إلى أعماقها)،وهي تشبه البيارق البيضاء(مقابل الملائكة السود)،حيث انّها خرقت(خرجت)الفضاء،ومن تحتها ريح ساكنة طيبة،تحسبها الملائكة الحدود النهائية لها فلا تتعداها أبداً.

أماني الملائكة: انشغلوا ما بوسعهم في عبادة اللّـه دون غيره،أوصلتهم حقائق الايمان إلى معرفته تعالى،وانقطع اليقين بهم الى شدّة الشوق إليه، فلم تنعطف أمياهم إلى ما عند غيره سبحانه.

صورالعرفان والعبودية: ذاقوا حلاوة المعرفة(حيث لا يعدلها حلاوة)، وشربوا المحبة بالكأس التي تروي العطشان،ورسخت في مجمع روح القلب جذور (أسباب)الخوف منه تعالى؛ فانحنت ظهورهم لاستقامتهم على الطاعة ولم تنته رغبتهم إليه سبحانه، مادام رجائهم،لم يعدمهم الخوف منه تعالى،ولم يطلق سراح عبوديتهم مع تقربهم إليه(فأعناقهم في رقّ العبودية مستقرّة له)،ولم يستحسنوا من أعمالهم الصالحة(كمّاً ونوعاً)،ولم تدعهم الاستكانة والذلّة لعظيم جلاله أن يُعظّموا نصيبهم(ثوابهم)،ولم تتقدم رغبتهم الثواب حتى يخالفوا رجاء ربّهم، ولن تنشف أطراف ألسنتهم طول المناجاة مع ربّهم،ولم تمنعهم كثرة الاشتغال عن الذكر الخفي المتضرع له،واصطفوا في الطاعة له جنباً إلى جنب (قاماتهم معتدلة في الصفوف)امتدت له سبحانه أعناقهم في الطاعة بلا ملل وبلا انثناء للاستراحة.

ولا تعلو على عزمهم الراسخ لطاعته غفلة البلادة(لأنّهم دائموا الجدّ في الطاعة)ولا ترمي الشهوات الخادعة هممهم العبادية(كما هو الحال في الانسان)، واتخذوا اللّه ذخيرة لهم يوم الحساب، وقصدوه لماأعرض الناس عنه سبحانه، لقضاء حوائجهم،انّهم لم يصلوا الغاية في عبادتهم مع طول الأمد حتى يستريحواوان ولههم بلزوم الطاعة له يجعلهم لا يتراجعون عنه بالكسل أوالفتور،الاّ انّهم كلما أطاعوه ازدادت لديهم بواعث الطاعة من الرغبة والرهبة الموجودتين في قلوبهم. فلم تبتعد عوامل الخوف عن قلوبهم،ولم يسقطوا في فخّ اسر الأطماع حتى يُقدّموا

السعي الضعيف على اجتهادهم المستمر[1]،فلن يعظموأعمالهم الصالحة (وان كانت كثيرة)،فلو عظموأعمالهم الماضية لبطل الرجاء منهم تارات خوفهم (اذا عظم الرجاء قلّ الخوف)،ولم يختلفوا في محبة اللّه بأن يستولي الشيطان على قلوبهم،ولم يتمكن أن يفرقهم شرّ تفريق (من حسدوغضب)ولن يسيطر عليهم الحسد، وما فرقتهم أنواع الشكوك،ولا يمكن للجهات المختلفة ان تشتت أفكارهم(بل همهم همّ واحد) فهم تحت ظل الايمان أسرى ولا يمكن لأيّ زيغ وميلان وضعف وفتور وكسل أن يفك رقابهم من الايمان ولن تجد في السموات السبعة مكان شبر خال الاّ وعليه ملك ساجد للّه،أو مسرع في اطاعته (فالسماء ممتلئة بهم)، يزداد علمهم كلما ازدادت طاعتهم،ويزداد عظمة ربّهم في قلوبهم يوماً بعد يوم[2]،وانظر إلى ما قال ابن أبي الحديد:

(عج بالغري على ضريح حوله نادٍ لأملاك السماء ومحفلُ
فمسبحٌ ومقدسٌ وممجدٌ ومعظمٌ ومكبرٌ ومهللُ)[3]

---

١. لأنه ليس للملائكة طمع في شيء سوى الله سبحانه، وأما الانسان اذا طمع في شيء قلّ سعيه في أشياء أُخرى.

٢. انّني أرى انّ الامام عليه السلام وصل إلى أعلى درجات العرفان، ففتحت له أبواب السموات، فرأى من عظيم القدرة ما رأى، فوصف الملائكة كما هم عليها وصفاً دقيقاً عميقاً يسير على نهج القرآن الكريم، وبعبارة اخرى انّ هذه المشاهد الجميلة والمشاعر العظيمة جاءت من وراء اكتساب التجارب العرفانية الخاصة به عليه السلام، بل قل انه عاش إلى جوارهم، فالأديب الماهر هو الذي تصب مشاعره وتجاربه في قوالب الأدب شفافةً.

٣. الآراء النقدية والأدبية، ص٤٠٩.

٣- الأفكار

جاءت الأفكار تحوم حول الملائكة وتصف المشاهد المختلفة وصفاً دقيقاً وهي تشمل على: موطن الملائكة، الموانع لرؤيتهم، أنواعهم، وظائفهم، صفاتهم، ألوانهم، أمانيهم، صور العرفان والعبودية.

٤- العواطف

ماذاأقول عن أطهر المشاعر وأزكها، واللّه ان قلمي لقاصر عن البيان، وفكري لا يدرك كنه هذاالكلام،ذهلت لأوّل مرّة لما قرأت هذه الخطبة،لم أرَ لها نظيراً من قبل،وخاصة هذه الفقرة التي نحن شرحناها (الملائكة)،وبحقّ قال الشريف الرضي: وهي تعدّمن جلائل خطبه عليه السلام، فما من أديب الاّ ويتصاغر أمامها،وما من شاعر الاّ وتهدمت قواه،ثم انظر إلى ما قال الأديب البارع ابن أبي الحديد في هذا المقام: «هذا موضع المثل اذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل،اذاجاء هذا الكلام الربانيّ واللفظ القدسي بطلت فصاحةالعرب،وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النصار(الذهب)الخالص،ولو فرضنا انّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أوالمقاربة لهذه الألفاظ،من أين لهم المادة التي عبرت هذه الألفاظ عنها؟ومن أين تعرف الجاهلية؟ بل الصحابة المعاصرون لرسول اللّه صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائية ليتهيأ لها التعبير عنها؟أما الجاهلية فانّهم انّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعيرأو فرس أو حماروحش أو...وأمّا الصحابة فالمذكور منهم بفصاحة انّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة...فأمّا الكلام في الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبّها له وولها إليه وما جرى مجرى ذلك ممّا تضمّنه

هذاالفصل على طوله، فانّه لم يكن معروفاً عندهم على هذاالتفصيل، نعم ربّما علموه جملة غير مقسمة هذاالتقسيم،ولا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم،وأمّا من عنده علم من هذه المادة كعبداللّه بن سلام وأميةابن أبي صلت وغيرهم،فلم تكن لهم هذه العبارة ولا قدرواعلى هذه الفصاحة، فثبت انّ هذه الامور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلاّ لعلي عليه السلام وحده،واقسم انّ هذا الكلام اذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة اللّه العظيم في روعه وجلده،وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكادأن يخرج من مسكه شوقاً وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً»[1].

فهي مليئة بالمشاهدالعاطفيّة، نذكر منها:

مشاعرالتواضع: قوله عليه السلام: وأشعر قلوبهم تواضع أخبات السكينة، والاشعار من باب الافعال بمعنى الصيرورةأي جعلهم يشعرون بالتواضع والحال لم يكونوا هكذا من قبل،وقيل هو من الشعار الذي بمعنى الثوب اللاصق بالجسد،وهذا يعني انّ الخضوع التصق بقوبهم كما انّ الثوب يلتصق بالبدن، فكان نتيجة ذلك:

١-عدم الاحساس بالذنب (طاهرةالقلب) وعادةالانسان يشعر بخفةالوزن لعدم الاثم،ولأنّ الذنوب تثقل كاهل العبد.

٢-عدم الشعور بالارتحال من حوادث الدهرومصائب الدنيا.

٣-عدم الركون إلى الشكوك والريب.

٤-عدم تضارب الظنون في القلوب.

٥-عدم الاشتغال بالاحقاد فيما بينهم.

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص١٥٠.

٦-لايمكن للحيرةأن تسلب منهم المعرفة الكائنة في ضمائرهم.

٧-عدم استلاب الحيرة ليقينهم لعظم جلالة اللّه في قلوبهم.

٨-وأخيراًعدم دخول الوساوس الشيطانية الى باطنهم.

مشاهد من الخوف والرعب: ولّماأراد أن يُعظم الملائكة فأتى بصور تضرب بسهامها القلوب،فاسمعه لما يقول(عليه السلام):منهم من هو في خلق الغمام الدلح،وهذا من أكبر مشاهد الخوف،فالظلام عادة يعدّه الانسان من مصادر الخوف[1]،ويتعالى الخوف ويشتد لمّا نسمعه يقول انّه في عظم الجبال الشمخ، مشهدمرعب ثانٍ فالجبال الشامخة تهاب الصعود منهاوالنزول،فالخوف بادٍ في هذا المشهد،ويستمر هذاالتصاعد لما يقول(عليه السلام): وفي قترة الظلام الأيهم(الأسود)،الظلام لا تدرك فيه العيون شيئاً فما بالك لو اختلط هذاالظلام بالسواد، فتصبح ظلمات فوق ظلمات،مخاوف يدركها القلب والوجدان بأحسن الاشكال، فعاشت المشاعر هذه مادامت السموات والأرض.

مشاهدالتعجب: ثم انظر كيف جمع بين الصورةوالعاطفة في عظيم خلق الملائكة،حيث يقول(عليه السلام):ومنهم من خرقت(وصلت) أقدامهم(أرجلهم)الى الحدّالنهائي للأرض، فماهذه العظمة!وما هذاالانشاء!وما لهذه الاذن لمّا تسمع هذا الكلام!انّها بالحقّ عجائب وبدائع ليس لها نظير في عالم الأدب والفنّ، ثم ينتقل إلى جوار هذه المشاعروالأحاسيس فيبني صورة حسيّة حيث يشبه الملائكة بالاعلام البيضاءالطويلة، تشقّ أجواءالسماءوالفضاء،وتحت أقدامها ريح ساكنةلا تزعزع تلك الرايات وتظنّ الملائكة انّها بلغت الحدود النهائيّة للكون،مظاهر

---

١. في شهر آب عام ٢٠٠٣ انتشرت الأخبار بانقطاع التيار الكهربائي في أمير كا وعلى أثر ذلك توفي بعض الناس خوفاً من الظلام.

عجيبة،تؤثرأثر السحر في النفوس وتحدث لها شوقاً لرؤيـة تلـك العظمـة وتلـك القدرة الالهية.

اسمى آيات الحبّ:أظنّ انّك أيّها القارئ لحدّالآن لم تكن تسمع أو تقرأ هكذا مشاهد وصفية للحبّ والشوق والوجـد كماصـنع الامـامعليه السلام في هـذاالمجال حيث يقول: وقطعهم الايقان به إلى الوله إليه، فانقطعت بهم جميع سبل الحـبّ الاّ سبيل حبّ اللّه، فحينها تذهب العقـول يميناًوشمـالاً، وتلعـب الحـيرة في النفـوس ذهولاً،ويتعالى نارالوجد في القلوب اشتعالاً.هذاهو الحبّ الحقيقـي للمشـتاقين،لا كما يصفه بعض الأدباء من اللجوء إلى الحسناء ركضـاً وراءالشـهوات،خائباً مـن الآمال....،ثم انظر كيف بدأ يصعد هذا الحبّ للّه إلى أبعد ما يتصوّره العقل بحيث لا يمكن العدول عنه والرغبةإلى غيره،مهما كانت المغريات، فالاستقامة شرط في بقاء المحبةوالزيغ يزيله،أكرم بهذاالحبّ،وماأعظمه،ثمّ يمضيعليه السلام في هذاالتصعيد.

فلابدّ للحبّ هذا من بقاء مادامت السموات والأرض، فعنـدها يحتـاج إلى الغـذاءوالماء حتّـى يسـتمر في الحيـاة، فالملائكـة تغـذت مـن حـلاوة العرفـان الرباني،وشربت المحبة عن طريق الكأس الروية الـتي تُشـفى العليـل، فاسـتقرت جذور الحبّ في أصل القلوب، فـلا يمكـن لأحـد اقتلاعهـا مهمـا بلغـت قدرتـه وقوته،مشاهد رائعة،وللأبدّ للادباء الاستسقاء منـها كـي تـروى عطـش المحـبين والمشتاقين،ويستمرّ الامامعليه السلام في ابراز هذه العاطفة بصورتها الحسية قـائلاً:فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم،فحسبك هـذاالحبّ الـذي يقـوّس قامـات المحـبين تعظيماً لربّ العالمين،فلا ضجر ولا تشاؤم من وراءهذاالتضرع والاستسـلام، فـلا يمكنهم فكاك رقابهم من الخشوع ولا يفدوا أنفسـهم منـها بـالتقرب إليه،وهكـذا تستمر هذه المشاعر المثيرة الى النهاية حيث يقولعليه السلام: فهم تحت ظلّ الايمان أُسراء

مكبلون، فلا تنعتق أعناقهم من العبوديّة لربّ العالمين بالميلان والعدول، ولا بالضعف والفتور،هكذا يصنع الحبّ الحقّ بأهله، ويخلق ابداعاً وجمالاً لا نظير له في ساحة العبودية التي هي المحطة الأخيرة من وراء خلق أشرف الكائنات ألا وهو الانسان الكريم وعلى رأسهم الرسول العظيمﷺ وآله عليهم السلام.

٥- عنصر الخيال

اعتمد عنصر الخيال في هذه الخطبة على التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية،وبعبارةأُخرى لقد استوعب كلام الامامعليه السلام جميع عناصرالبيان ويقول ابن أبي الحديد:«وفي هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصنعة مالا خفاء عليه»[١]. «فبلاغة التشبيه ترتكز على عنصرين الاوّل طريقة تأليف ألفاظه،والثاني ابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان،ولا يجول الاّ في نفس الأديب الذي وهب اللّه له استعداداً سليماً في تعرّف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء، وأودعه قدرة على ربط المعاني»[٢].وكذلك «تنشأ بلاغته من انّه ينتقل بك من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه،أو صورة بارعة تمثله،وكلّما كان هذا الانتقال بعيداً قليل الخطورة بالبال،أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال،كان التشبيه أروع للنفس وادعى إلى اعجابها واهتزازها»[٣]. فانظر إلى كلام الامامعليه السلام،كيف رسم اللون الأسود بحيث لا يخطر على قلب أحد، فانّك عادة لترى(ويرون)اللون الأسود في الفحم، وبه تضرب الأمثال والتشبيهات ولكنّه عدل عن مصدر اللون الأسود إلى أشدّ اعجاباً في

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص١٤٠.
٢. جواهر البلاغة، ص٣٤٣.
٣. البلاغة الواضحة، ص٦٥.

النفس،فقال عليه السلام: منهم من هو في خلق الغمام الدلح(السحاب الممطر الأسود)، فعدل بك من الفحم الأسود إلى السواد الكائن في السحابة الممطرة، حقاً انّها قوة الـذكاء والحذق ترشد الأديب إلى ما لا يدركه الآخرون،وثم انّه عليه السلام حذف الأداة ووجـه الشبه فأتى على أعلى درجات التشبيه البليغ المبني على ادعاء أن المشبه والمشبه به شيءواحد،وهذاالاتحاد فيه نوع من المبالغة تزيد الشوق في النفس،وانّ الكـلام على قوله عليه السلام:وعظم الجبال الشمخ وفي قترةالظلام الأيْهم، نفسه الذي سـبق مـن قبل.ثمّ انظر إلى قوله عليه السلام في اللون الأبـيض حيـث يقـول: فهـي كرايـات بـيض ،المعروف انّ البياض يتجلى في الجليد والشيب،وبما انّهما محسوستان لدى الجميـع فلا تحتاجان إلى أعمال فكر ودقة نظر فعدل عنهما إلى شيء يلفـت الانتبـاه إلى هذا اللون وهو كونه مع الاعلام(البيرق)فانّه خرج عـن المؤلـوف والمتعـارف إلى شكل جديد،وإلى صورة بارعة تمثله، فهذا الأنتباه سيزيد الشوق في الوجدان أكثر، فانظر بعين الدقةوالاعتبار إلى هذين التشـبيهين كيـف تمّ بيـان حـال المشـبه في القوّةوالضعف والصغروالكبروالزيادةوالنقص.

المجاز: هو ضرب من الايجاز ويظهر فيه الجمال لمهارةالأديـب في اختيـار العلاقة بين المعنى الأصلي والمجاز، بحيث يكون المجاز مصوراً للمعنى المقصود خير تصوير،فانظر إلى قوله عليه السلام: ما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، فصدرهم مجاز علاقته الكلية ويقصد بها «القلوب»، فاطلاق الكل على الجزء فيه نوع من المبالغة التي تؤثر في النفس الأثر الشديد،وكذلك انظر الى قوله عليه السلام: فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم،فالإنحناء مجاز يقصد به شدةالخضوع لربّ العالمين، وهو من نوع اطلاق المسبب على السبب.

الاستعارة: لها «بلاغة من حيث الابتكار،وروعة الخيال وما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها،فمجال فسيح للابداع، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام»[1]،ولهاأهداف سامية من التجديد في البيان وتوسع اللغة،فهي تبرز البيان دائماً في صورة مستجدة، فان معاني الألفاظ اذا رددت بتلك الألفاظ عينها ملتها النفوس،وصُرفت عنها،فانت ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ثمّ ترى لها في كلّ واحد منها شأناً مفرداً وفضيلة مرموقة، فالمتتبع لهذه الفقرة من الخطبةرقم ٩١، سيجد الاستعارات متوفرة بشدة فيها،وهذا يدل على انّ الخيال شغل الحيز الأكبر منها وبالتالي يدل على ان مبدعها ذو خيال واسع وعميق وخصب، فانظر إلى قوله عليه السلام: ولم ترمِ الشكوك بنوازعها عزيمة ايمانهم، الرمي عادة يكون للسهم أوالرمح،لا للشك، فحذف المشبه به ورمز اليه بأحد لوازمه (الرمي)على طريقة الاستعارة المكنية، والكلام نفسه ينطبق على قوله عليه السلام: لم تطمع فيهم الوساوس، فالطمع في المال والمقام لا في الوساوس... وقوله عليه السلام: ولم تعترك الظنون،عادة العراك بين المتخاصمين لا الظنون...وكذاالكلام في قوله عليه السلام:ولا سلبتهم الحيرة،عادة السلب هو للسارق، فجاءت الحيرة هنا على سبيل الاستعارة.وكذلك القول في:ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، فالسرعة في السير للابل لا للخدعة،وهكذاالكلام في قوله عليه السلام: لم تأسرهم الاطماع،وقوله عليه السلام:ولا تولاهم غل التحاسد، فالكلام كله استعارة،ان لم نكن من المبالغين.

---

١. جواهر البلاغة، ص٣٤٤.

الكناية[1]:«مظهر من مظاهر البلاغة وغايةلا يصل إليهاالّا من لطف طبعه،وصفت قريحته،والسرّ في بلاغتها انّها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضيةوفي طيها برهانها كقول البحتري في المديح:

يغضون فضل اللحظ من حيث بدا

لهم عن مهيب في الصدور محبب

فانّه كنى عن اكبار الناس للممدوح، وهيبتهم ايّاه بغض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان و...،وانّها تضع لك المعاني في صورةالمحسوسات،ولا شك انّ هذه خاصة الفنون،فان المصور اذا رسم لك صورة للامل أو لليأس،بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً»[2]،فلو نظرنا إلى الكنايات التي جاءت في هذاالقسم فنرى قولهعليه السلام: ملأ بهم فروج فجاجها،حيث كنّى في كلامهعليه السلامعن كثرة عددالملائكة،وهو بمثابة ارائةالدليل، ومن ثَمّ تمكن أن يصور الملائكة(الذين هم من النور)حسيّاً عن طريق كثرةالتعداد. ثم لنر قولهعليه السلام:أولى أجنحة تُسبح جلال عظمته، فاولى أجنحة وإن كانت من التعابير القرآنية،فهي كناية عن قدرة الطيران وسرعة الحركة في الملاحةالجوية، حيث صورهم عن طريق الحس الذي هوالهدف الأسمى في البلاغة.وكذلك نرى في قولهعليه السلام: وليس في اطباق السماء موضع اهاب...، حيث كنّى أيضاً عن العدد الكثير للملائكة بشكل لا يمكنك أن تجد موضع قدم للسجودأوالسعي لهم في السموات، فهي كناية عن كثرة العددوالتي تجلت أيضاً بشكل محسوس في الكلام.وهكذا القول في بيانهعليه السلام فحنوا بطول الطاعةاعتدال ظهورهم، فالاحناء دليل على كثرة السجود

١. والكناية اذا دخلت الجملة تجاذ بها طرفي الحقيقة والمجاز.

٢. جوهر البلاغة، ص٣٥٤.

للملائكة،وتقوّس ظهورم صورة حسية يدركهاالجميع بكلّ بساطة، فالكلام جميل جداً ويصبّ في الجمال روعة وبلاغة اجتمعتا في خدمةالعقيدةالكبرى الا وهي الايمان باللّه سبحانه وتعالى.

٦- الاسلوب

بالنظر إلى ما احتوته هذه الفقرة من معاني سامية،وبلاغة عاليةوتجارب نفيسة، وانارةلذوي الأفهام البصيرة،... جاء الاسلوب سلسلاً ليس فيه غموض في التعبير نظراً لاكتشافات جديدة لسكان السموات، موزنة في قالب السجع الذي يزيد سحر الانغام،فانظر إلى قوله عليه السلام:

جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه،وحملهم الى المرسلين ودائع أمره ونهيه.

أو قوله عليه السلام:لم تُثقلهم موصرات الاثام،ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام.

أو قوله عليه السلام:ولم تجف لطول المناجاةاسلاتُ ألسنتهم،ولا ملكتهم الاشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم.

أو قوله عليه السلام:ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم،ولم يثنواإلى راحة التقصير في أمره رقابهم.

فنجدالفصلان أحياناً متساوية الوزن وأُخرى الفاصلة الثانية أطول من الاولى، ممّا تزيد هذه الانغام انتعاشاً في قلوب السامعين،وهكذا سيكون الكلام في بقية الخطبة،فالاسلوب خالٍ من كل تعقيد في اللفظ والمعنى، يستسيغه كلّ من كان له أدنى ذوق أدبي، ويرغب فيه كلّ من له اليد الطولى في الأدب، ثمّ انظر الى استخدام بعض الفنون الأدبية الأُخرى فنجد في قوله عليه السلام:أهل الأمانة على

وحيـه،...ودائع أمـره ونهيـه،فبين وحيـه ونهيـه لـزوم مـالا يلزم،(الحرفـان الياءوالهاء)،ثم انّه استخدم الطباق في قوله عليه السلام: خلق الغمام الـدلح...،فهي كرايـات بيض،فالأسود(معنى للدلح)طابقها مع الأبـيض، وكـذاالكلام في قولـه عليه السلام: فحنـوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، فطابق بين معنى الانحناء والاعتدال.

وقفة مع الكلمات

الف) في قوله عليه السلام:فهم اسراءإيمان لم يفكهم من ربقتـه زيـغ... فيـه صـورة للايمان الحقيقي باللّه سبحانه،فانظر إليه عليه السلام كيف يصورلك الايمان مبتدأ بالأسر ثم يشتد التصعيد شيئاً فشيئاً، بحيث تتم الصـورة بشـكل كامـل وفي ابعـاد مختلفـة، فالضلع الأول عـدم الزيغ،والضـلع الثـاني عـدم العـدول والـركن الثالـث عـدم الوهن(وني)، وأخيراً عدم الفتور والضعف، فتأمل هذا المربـع تحـيط بـه الجـدران الأربعة التي بُنيت بشكل يقيد الايمان ولا يمكن له الفرار منه،وهذاهو الاعجـاز في البيان، وهذه هي البلاغة الواضحة المعالم،وهذا هو أدب أهل البيت عليهم السلام، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

ب) من صفات الملائكة،المستفاد من الخطبة:

١-عبادتهم دائمة.

٢-لا يدعون لأنفسهم حولاًولا قوّة.

٣-متواضعون أصحاب سكينةووقار.

٤-أصحاب يقين لا تدخل الشكوك إلى ساحتهم.

٥-لا يحملون الاحقاد في صدورهم.

٦-أشداء في تعظيم اللّه سبحانه.

٧-يفرغون ما بوسعهم لعبادته.

٨-لاتتجاوز رغباتهم إلى غير اللّه سبحانه.

٩-ترسخ حبّ اللّه في ضمائرهم بعد ما ارتوت بالكأس الروية.

١٠- يملكون أعظم تقوى في نفوسهم.

١١-لا يستكثرون كثرة طاعتهم...

ج) مع السماء،قوله عليه السلام:خلق سبحانه لاسكان سمواته، فمن السماء تنزل الرحمة والأمطار(وأنزلنا من السماء ماءاً طهوراً)،وفي السماء الطير مسخرات بأمره، وجعل السماء بناءاًوالأرض بساطاً، وبنزول الرجزوالبلاء من السماء،وأنزلت المائدة على عيسى عليه السلاموإلى معاني كثيرة تجدها في القرآن اختصت بالسماء.

٧- الاقتباس

لو أردناأن نذكر بدقة ما اقتبسه الامام عليه السلام من القرآن الكريم،لاستغرق منّا الوقت الكثير،ولكننا نشير على سبيل المثال فنقول ان في قوله عليه السلام: وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته، فملكوت من الألفاظ القرآنية حيث يقول البارئ: أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض (الأعراف، ١٨٥)،وقوله عليه السلام: فتقف خاسئة على حدودها،مقتبس من قوله تعالى: ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير(الملك، ٤)، وقوله عليه السلام:اولي أجنحة تُسبح جلال عزته،مقتبس من قوله تعالى: جاعل الملائكة رسلاً أُولي أجنحة مثنى وثُلاث ورُباع(فاطر، ١)، قوله عليه السلام: قداتّخذوا ذاالعرش ذخيرة، مقتبس من قوله تعالى:اذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً (الاسراء، ٤٢).

٨- التضمين

قوله عليه السلام: «حظائرالقدس،لفظة وردت في كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله»[١].

التحليل الاعرابي

نشير هنا إلى بعض الجوانب للاعراب من كلامه عليه السلام فنقول:

١- قوله عليه السلام:وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين،بين خبر مقدم وزجل مبتدأ مؤخر.

٢- قوله عليه السلام:ووراءذلك الرجيج... سبحات، وراء ذلك خبر مقدم،وسبحات مبتدأ مؤخر.

٣- قوله عليه السلام:فتقف خاسئةً،خاسئة حال.

٤- قوله عليه السلام:أنشأهم على... أُولي أجنحة، أُولي أجنحة حال من مفعول أنشأهم.

٥- قوله عليه السلام: جعلهم فيما هنالك،فيما خبر مقدم وهنالك مبتدأ مؤخر.

٦- وأشعر قلوبهم تواضع، تواضع مفعول ثان لأشعر.

٧- قوله عليه السلام:ولا سلبتهم الحيرة ما لاق، ماالسم موصول مفعول سلبتهم.

٨- قوله عليه السلام: فتقترع،منصوب بان مقدرة بعد الفاء.

٩- قوله عليه السلام:واتّخذوا ذاالعرش ذخيرةً ليوم فاقتهم،ذخيرةً مفعول ثانٍ لاتّخذوا، وليوم متعلق بذخيرة.

---

١. شرح ابن أبي الحديد، ج٢، ص١٥.

١٠- قوله عليه السلام:ويمّموه... برغبتهم، برغبتهم متعلق بيمّموه.

١١- قوله عليه السلام: فينوا في جدهم،الفعل منصوب بان مقدرة.

١٢- قوله عليه السلام: يزدادون... علماً، وتزداد... عظماً،كلّ من علماً وعظماً تمييز.

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- الآراءالنقدية والادبية /السيدخليل باستان /رسالةدكتوراه /،١٣٧٧

٣- الادب السياسي في العصر الاموي /أحمد حوفي /بيروت /دارالقلم.

٤- الادب في ظلّ التشيع /عبدالله نعمة / بيروت /دارالتوجيةالاسلامية /ط ٢ /١٩٨٠م.

٥- اسرارالبلاغة /عبدالقاهرالجرجاني بيروت /دارالمعرفة/١٣٩٨ - ١٩٧٨،

٦- اسس النقدالادبي /احمداحمد بدوي / القاهرة /دارالنهضة.

٧- الاسلام والفنّ /محمودالبستاني /ایران آستان قدس رضوي /١٤٠٩/ط ١،

٨- الالفاظ الفارسيةالمعربة /ادّى شير / بيروت /المطبعةالكاثوليكية /،١٩٠٨

٩- الامثال والحكم /محمدالغروي /قم /النشر الاسلامي /،١٤٠٧

١٠- البلاغةالواضحة /علي الجازم ومصطفى أمين /قم /مكتبةسيدالشهداء /،١٣٧٩

١١- البيان والتبين /عمر بن الجاحظ / بيروت /الشركةاللبنانيةللكتاب.

١٢- البيان /ابوالقاسم الخوئي /النجف /مطبعة الآداب /١٣٨٥ - ١٩٦٦ /ط ٢،

١٣- تاريخ الادب العربي /حنّاالفاخوري / بيروت /المطبعةالبوليسية.

١٤- تاريخ الادب العربي /عمر فروخ / دارالعلم للملايين /١٣٨٨ - ١٩٦٩ /ط ٢،

١٥- تاريخ الادب العربي /محمودالبستاني / بيروت /مجمع البحوث الاسلامية /١٤١٠ - ١٩٩٠.

١٦- تحريرالوسيلة /الامام الخميني / ايران - قم /دارالعلم /ط ٢،

١٧- ترجمةنهج البلاغة /محمددشتي /طهران / نشرالمشرقين /١٣٧٩ /ط ٧،

١٨- ترجمة نهج البلاغة/اسدالله مبشري / طهران/دفتر نشر فرهنگ اسلامي/١٣٦٣.

١٩- ترجمة نهج البلاغة/السيدجعفر شهيدي/ طهران/شركةافست/١٣٧٠/ط ٢،

٢٠- ترجمة نهج البلاغة/السيدجمال دين برور/ بنيادنهج البلاغة/١٣٧٩/ط ١،

٢١- ترجمة نهج البلاغة/السيد علي نقي فيض الاسلام/طهران/، ١٣٦٠

٢٢- توضيح نهج البلاغة/السيد محمد الشيرازي/ طهران/دار تراث الشيعة.

٢٣- ثم اهتديت/محمدالسماوي التيجاني / لندن/مؤسسةالفجر.

٢٤- جلوههايى از بلاغت/ محمد خاقاني / طهران/بنياد نهج البلاغة/، ١٣٧٦

٢٥- جواهرالبلاغة/احمدالهاشمي بيروت / داراحياءالتراث العربي/ط - ٢.

٢٦- دلائل الاعجاز/عبدالقاهرالجرجاني/ بيروت/دارالمعرفة/١٤١٥- ،١٩٩٤

٢٧- روائع نهج البلاغة/جورج جرداق / ايران/مركزالغدير/١٤١٧- ١٩٩٧/ط ٢،

٢٨- روضات الجنات/محمدباقرالخوانساري/ بيروت/الدارالاسلامية/١٤١١- ١٩٩١/ط١ .

٢٩- شرح نهج البلاغة/عبدالحميدابن ابي الحديد/بيروت/دارالمعرفة.

٣٠- العرفان الاسلامي/محمدتقي المدرسي/
ايران/المركزالثقافي/١٤٠٥ .

٣١- العمدة/ابن رشيق القيرواني/بيروت/دارالجبل/١٩٢٧/ط - ٢،

٣٢- الفروق اللغوية/ابوهلال العسكري/
المكتبةالمرتضوية/١٣٥٣ .

٣٣- فقه اللغة/اسماعيل الثعالبي/مكة المكرمة/دارالباز.

٣٤- في ظلال نهج البلاغة/محمدجوادمغنية/بيروت/دارالعلم للملايين/١٩٧٢/ط
- ٢.

٣٥- الكاشف/السيدجوادالمصطفوي/طهران/
دارالكتب الاسلامية/١٣٩٠/ط- ٢.

٣٦- الكامل في اللغةوالادب/محمدبن يزيد المبرد/بيروت/مكتبةالمعارف.

٣٧- لسان العرب/ابن منظور/دار لسان العرب/١٦٧٠ .

٣٨- مفتاح العلوم/السكاكي/ بيروت /دارالكتب العلمية.

٣٩- المثل السائر/ضياءالدين ابن الاثير /بيروت/المكتبةالعصرية.

٤٠- مجمع البحرين/فخرالدين الطريحي/طهران/كتاب فروشي بوذرجمهري.

٤١- مصادرنهج البلاغة/عبدالزهراء الحسيني/بيروت/مؤسسة الاعلمي/١٣٩٥-
١٩٧٥/ط - ٢.

٤٢- معالم البلاغة/محمدخليل رجائي/ شيراز/دانشگاه شيراز/،١٣٥٩

٤٣- المعجم المفهرس/محمدفؤادعبدالباقي/القاهرة/دارالكتب المصرية/،١٣٦٤

٤٤- المردات/حسين بن محمدالراغب الاصفهاني/طهران/المكتبةالمرتضوية.

٤٥- موسوعةالامام علي/جورج جرداق /بيروت/دارمكتبةالحياة/١٩٧٠ .

٤٦- الميزان/السيدمحمدالطباطبائي/بيروت/الاعلمي/١٣٩٣- ١٩٧٣/ط ٣ .

٤٧- النقدالادبي/سيدقطب.

٤٨- نهايةالادب/احمد بن عبدالوهاب النوري/مصر/وزارةالثقافةالمصرية.

٤٩- نهج البلاغة/صبحي الصالح/بيروت/ ١٣٨٧- ١٩٦٧/ط ١ .

٥٠- نهــج البلاغــة /عزيزالله العطــاردي / ســورية / المستشــاريةالثقافيةالايرانية / ١٤١٦- ١٩٩٥/ط ٢ .

٥١- نهــج البلاغة /محمــدجعفري امــامي ومحمدرضاآشتياني /قم/مدرســةالامام اميرالمؤمنين/١٣٧٢/ط ٩ .

٥٢الوجــوه والنظائر /الحســين بــن محمــد الــدامغاني /بيروت /دارالعلم للملايــين / ١٩٧٠/ط ١.